العددان الأول والثاني • ربيع الثاني ١٣٩٥هـ • ابريل (نيسان) ١٩٧٥م

مجلة المسلم المعاصر

المسلم المعاصر

فصلية فكرية تعالج شؤون الحياة المعاصرة في ضوء الشريعة الإسلامية

العددان الأول والثاني - ربيع الثاني ١٣٩٥ هـ ابريل (نيسان) ١٩٧٥ م

صاحب الامتياز ورئيس التحرير المسؤول

الدكتور جمال الدين عطية

العنوان

ص . ب . ١١٩٤٢٩ بيروت

سعر النسخة ٤٠٠ ق.ل

الاشتراك السنوي في لبنان : ١٥ ل.ل

محتويات العدد

كلمة التحرير

ردود الفعل — . . . . د . جمال الدين عطية ٥

ابحاث

في التفسير الاسلامي للتاريخ : المسألة الحضارية — د . عماد الدين خليل ٩

خواطر حول أزمة الخلق المسلم المعاصر — عبد الحليم محمد أبو شقة ٤١

تراث الفكر الاسلامي في النظم السياسية والادارية — فتحي عثمان ٧٥

الشريعة الاسلامية وسيادة القانون — د . مصطفى كمال وصفي . ١٠١

حوار

الحوار نافذة من نور — . . . . عمر بهاء الدين الأميري ١١٥

هل الاسلام اليوم بحاجة لمجلة جديدة . . . محفوظ عزام ١٢٥

امكان الاجتهاد في أصول الفقه — د . مصطفى كمال وصفي ١٣١

نظرات في العدد الأول — . . . . د . يوسف القرضاوي ١٣٣

نقد العدد الماضي — . . . . محيي الدين عطية ١٥٣

نقد العدد الماضي — . . . . يوسف كمال محمد ١٥٩

أتوقع أن تكون هذه المجلة — . . . . . عبد الحليم عويس ١٧٢

نقد كتب

الاسلام يتحدى — . . . . د . زغلول النجار ١٨٠

خدمات مكتبية :

٢ — دليل الباحث في الاقتصاد الاسلامي — د . يوسف القرضاوي ٢٠٦

مؤتمرات

ندوة الفاتيكان حول حقوق الانسان الثقافية ٢١٢

الندوة الاسلامية العالمية ٢٣٠

ندوة مشروع كتابة تاريخ العرب والاسلام ٢٤٢

أخبار ٢٥٨

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة التحرير

رُدُود الفِعْل

كنت أود ان أتابع الحديث فيما بدأته في العدد الافتتاحي باسطاً البحث في مختلف ميادين وآفاق العمل الاسلامي الفكري والاصلاحي والسياسي ، لولا أن ردود فعل العدد الأول لدى القراء والكتاب على السواء يدعوني إلى المبادرة بتسجيل بعض الملاحظات مرجئا الى عدد قادم باذن الله استئناف ما بدأت في العدد الماضي .

أولى هذه الملاحظات تتعلق بالتجاوب الكريم الذي لمسناه لدى القراء والكتاب تجاوباً أكد لنا أهمية الدور الذي تحاول المجلة الاضطلاع به وخطورة المسئولية التي تقع على عاتق من يعرض نفسه لعمل عا ، خاصة في الميدان الفكري ، والفكري الاسلامي بالذات ...

غير أني أحب أن أوضح بهذا الخصوص ان شعور القائمين على تحرير المجلة بالمسئولية لا ينبغي أن يتعدى حدود طرح القضايا واختيار الابحاث التي تعالجها ،

فإن تعدى ذلك الى درجة منع نشر الرأي لمخالفته وجهة نظر القائمين على التحرير فهذا مما يتعارض مع مبدأ الحوار الحر الذي تلتزم به المجلة ومع رغبتها الصادقة في الوصول إلى ثمرة ناضجة لهذا الحوار الحر .

لقد كان المسلمون وما زالوا بحاجة الى التنبيه الى أن الخلاف في الرأي أمر طبيعي ، وان الموقف الواجب بين المختلفين في الرأي هو الحوار لا الخصام .

وان نتعاون فيما اتفقنا عليه ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه ، وان للحوار أصوله وآدابه من تحري الموضوعية وعدم التجريح وافتراض خطأ النفس وصواب الغير الى غير ذلك من الأصول والآداب التي دعا اليها الاسلام : « ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابذوا بالالقاب » ... « وإنا وإياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين » ...

وكلمة الاستاذ زين العابدين الركابي في العدد الماضي وكلمة الاستاذ عمر الأميري في هذا العدد مما يدخل في هذا الفن : « فن الخلاف » او « كيف نختلف » ، وما زلنا بحاجة الى المزيد من تعميق البحث في هذا الفن ومن ممارسته عمليا في مناقشاتنا وكتاباتنا بل وفي شعورنا ووجداننا ...

وانما يدعوني الى هذا الاستطراد حرصي على توضيح منهج المجلة في الحوار الذي نحاول مراعاته قدر الامكان ، ولنا من تجاوب الاساتذة الكتاب خير معين ان شاء الله ...

كما يدعوني الى هذه الملاحظة حرصي على تأكيد ما اشرت اليه في العدد الافتتاحي من ان المجلة لا تمثل انتماء معينا داخل الخط الاسلامي العام ولا يعني نشرها رأياً معيناً في مسألة خلافية . انها تنتمي الى هذا الراي او حتى تتبناه ، فالمجلة منبر اسلامي عام لكل الآراء ولكل الاتجاهات ...

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أحب أن أوضح أن دور المجلة في بعض ابوابها كباب المؤتمرات أو الاخبار أو الوثائق أو التقارير لا يعدو أن يكون دوراً إخبارياً أو تسجيلا لوقائع دون أن يعتبر النشر تقويما ايجابيا لما ينشر او

تبنياً له ، وقد يتطلب منا البعض ان نعلق على ما ننشره من أخبار أو نسجله من وقائع ؛ وهو منهج يتطلب جهداً اضافياً لا تستطيع ادارة التحرير تقديمه في هذه المرحلة ؛ كما ان بعض الاخبار يصعب تقويمها قبل مضي وقت معين وتبين تفاصيلها ومختلف جوانبها .

* * *

كنت أعتزم معالجة موضوع الاجتهاد في أصول الفقه ، ولكن كفاني مؤونة ذلك كلمتا الدكتورين مصطفى كمال وصفي ويوسف القرضاوي ، خاصة وان الدكتور القرضاوي قد دفع الموضوع دفعة أخرى إلى الامام تعدت مجرد بحث امكانية الاجتهاد في اصول الفقه إلى محاولة رسم معالم ومناهج الاجتهاد المعاصر وهو الأفق الذي ندعو الكتاب المختصين الى متابعة البحث فيه بمزيد من التوسع والتعميق سعياً الى تحقيق رسالة المجلة في هذا المجال .

* * *

حاولنا في العدد الذي بين ايديكم — ونرجو أن يكون ذلك سياسة دائمة في مقبل الاعداد — ان نوزع الاهتمام بين عرض الجديد من الابحاث وبين اجراء الحوار فيما أثارته ابحاث العدد الماضي ، وإن كان رأي بعض الفضلاء ان يختص كل عدد بتناول موضوع معين بالبحث من وجهات النظر المختلفة والانتهاء فيه إلى نتيجة واضحة قبل الانتقال إلى غيره من الموضوعات ، ومع تقديرنا لهذا الرأي إلا أن الاخذ به سابق لأوانه في هذه المرحلة من حياة المجلة لأنه يتطلب تجاوبا سريعاً من الكتاب المختصين الذين يدعون الى الاسهام في بحث موضوع معين في عدد معين ، وهو ما يتعارض غالباً مع مشغولياتهم وارتباطاتهم الأخرى . لذلك آثرنا — مضطرين — المنهج الذي نسير عليه إلى حين ...

* * *

وقد أضفنا في هذا العدد بابا جديدا للأخبار العلمية والفكرية ، وفي النية أن

نضيف – بالتدريج – أبوابا أخرى في المستقبل ان شاء الله للتقارير والاقتراحات ودليل القارىء .... الخ .

* * *

ولا يفوتنا في نهاية هذه الكلمة ان نتوجه بالشكر إلى الزميلات التي رحبت « بالمسلم المعاصر » وفي مقدمتها مجلة الثقافة (المصرية) بقلم رئيس تحريرها الاستاذ عبد العزيز الدسوقي وجريدة الجمهورية (المصرية) بقلم الاستاذ صلاح عزام ومجلة الطليعة (المصرية) بقلم الأستاذ السيد يسين ، وان كنا نخالفه فيما أسماه « حقيقة أنه لا تعارض بين أن تكون ماركسيا ومسلما في نفس الوقت » فالتعارض جذري أصيل ولكنه لا يمنع الحوار المخلص بغية الوصول إلى أرض مشتركة ...

* * *

ولا يفوتنا كذلك ان نتوجه بالشكر إلى جميع من تفضلوا بابداء ملاحظاتهم القيمة سواء من ناحية الشكل أو المضمون وقد أجرينا بعض التحسينات في هذا العدد ونرجو أن نتابع ذلك نحو الأفضل دائما باذن الله ...

جمال الدين عطية

ابحاث

في التفسير الإسلامي للتاريخ
المسألة الحضارية (١)

د . عماد الدين خليل *

(١)

تزداد « أهمية المسألة الحضارية » في التفسير التاريخي يوماً بعد يوم ، بحيث أنها تغطي مساحة واسعة في أي مذهب للتفسير مهما كانت بنيته ، وتشكل (القاسم المشترك) بين المذاهب جميعاً . واما في (التفسير الحضاري) لتوينبي فتغد والمسألة سدى مذهبه و لحمته ، وتشكل مضامينه واطره . وما من شك في أن الحصيلة النهائية لدور الجماعة التاريخي تقاس بمدى دورها الحضاري ، حماية ونقلا أو ابتكارا وابداعا . وتختلف — بعد ذلك — المواقف والاتجاهات . فابن خلدون مثلا يرى في التحضر مسألة محتمة تجيء دائما في أعقاب توطن العناصر البدوية في الامصار ، وتجاوزها مرحلة التنقل والرعي ... وهيجل يراها مسألة دايناميكية شاملة تنبثق عن صراع النقيضين في

(*) أستاذ التاريخ الاسلامي بجامعة الموصل . العراق . وصاحب عدة مؤلفات مشهورة .

(١) هذا المقال صفحات من بحث للمؤلف تحت الطبع بعنوان « التفسير الاسلامي التاريخ » .

عالم الافكار في تسلسل طويل ينتهي الى مرحلة تجلّي المتوحد حين يصل العقل الكلي قمة تعبيره وكامل انطباقه على حضارة العالم ومؤسساته ، ومن خلالها ، واما ماركس فانه يأخذ عن هيجل دينامية الحركة الحضارية المتولدة عن صراع النقائض الا أنه يقصرها في نطاق المادة ووسائل الانتاج و (الظروف) التي تعمل فيها ويرى في هذا المثلث القاعدة التحتية التي تنبثق عنها سائر الفعاليات والمنجزات الحضارية الفوقية متأثرة بها ، متلونة بلونها ، حاملة دماءها ، متكونة بخلاياها ، حتى لو كانت قيما خلقية وممارسات دينية ومنازع عاطفية وعلاقات جمالية .. اما توينبي المتأثر بسلفه شبنجلر الى حد كبير ، فيراها وليدة مقدرة الجماعة الانسانية على الاستجابة للتحديات البيئية ، الجغرافية والبشرية ، المحيطة بها ، ويتناسب حجم العطاء الحضاري كما ونوعا تناسبا طرديا مع حجم الاستجابة وامدائها بمقاييس الكم والنوع كذلك .

ما الذي يقول لنا كتاب الله في هذه المسألة ؟ ان كلمة (حضارة) و (تحضر) لم تكن شائعة في استعمالات العربية اللغوية اول مرة ، وطيلة القرون التي أعقبت مرحلة الفتوحات الاسلامية ، ويكاد ابن خلدون ان يكون أول من نبه اليها واستخدمها في (مقدمته) الا أن اصطلاحه الاثير الذي كان يستغني به معظم الاحيان عن هذه الكلمة هو (العمران البشري) الذي يقابل (الحضارة البشرية) .. ومهما يكن من امر فان المصطلح الحضاري ، بتصريفاته المختلفة ، قد فرض نفسه في القرن الاخير ، سيما بعد الاحتكاك الثقافي الشامل بين الشرق والغرب وتقدم الاخير في حقول التفسير التاريخي والدراسات الحضارية .. وبدلا من هذا فاننا سنلتقي من خلال القرآن الكريم بصيغ ومفردات عديدة اخرى تعتمد للتعبير عن المسألة الحضارية لان القرآن ما جاء الا لكي يخاطب العرب بلغتهم (الراهنة) ومن خلال مفرداتهم الشائعة .

نستطيع أن نتلمس البدايات الاولى للمسألة بالرجوع الى حادثة (خلق آدم) باعتبارها حجر الزاوية في الوجود البشري .. ولكن اليس من حقنا أن نتساءل انه ما دامت الحضارة فعلاً وابداعاً ومجابهة لكتلة العالم والطبيعة ، واستجابة

للتحديات الدائمة وتهيئة واعماراً وتمهيداً وتطوراً ، وما دامت الواقعة التاريخية عموما تجيء بأمر الله الذي لا راد لامره وبارادته التي تعلو على الارادات ، فهل لنا أن نرجع بالمسألة الى ما وراء خلق ادم ، الى كل العمليات التي اريد بها تهيئة العالم لاستقبال المخلوق الجديد واحاطة نشاطاته المختلفة بالضمانات؟ بل الى ما قبل ذلك، الى اليوم الذي قال فيه الله للسماوات والارض (اتيا طوعا أو كرها ، قالتا : اتينا طائعين) ؟ ان آدم عليه السلام ، وذريته من بعده ، ما داموا حلقة من حلقات الابداع الالهي في الكون فان لنا ان نصل معطياته الحضارية بما هو اشمل وارحب ، وبما يعطيها مساحتها الحقيقية في حركة الكون دونما افراط أو تفريط ؟

ان التاريخ الحضاري – في القرآن اذن – يمتد الى ما قبل آدم .. انه كل فعل إلهي تمتزج فيه ارادة الله وروحه وكلمته بالمادة ، فتصوغها كتلاكونية أو نظما طبيعية او خلائق تحمل بصمات الحياة الاولى من نبات او حيوان .. أو تخلقها بشرا سويا : ويجيء الانسان – من ثم – خليفة لله ، كما يؤكد القرآن في أكثر من موضع ، لاعمار الارض التي (انزل) اليها وهو يحمل العدة الكافية لهذا العمل ، ويمتلك الشروط الاساسية لمجابهة العالم وتحويله وتغييره وتطويره ، سواء بما ركب الله في ذاته من عقل وروح وارادة وتكييف جسدي فذ ، ليس المشي على قدمين ، وتحرر اليدين ، ومطاوعة الاصابع بأقلها خطورة .. أو بما هيأه الله في الارض وما حولها من امكانيات التعامل الحيوي معها والاستمرار في اطرافها ، والتحاور الخلاق بينها وبين الانسان الذي جعل بهذا التمهيد المزدوج لاداء مهمته الحضارية : سيدا للعالمين ، وفضل على كثير من خلق الله تفضيلا ؟ وما دامت عملية بناء الكون وتهيئة الارضية الصالحة للحياة على الارض ، قد سبقت خلق ادم بأزمان لا يعلمها الا الله ، وما دامت المقاييس الادمية تجيء دائما نسبية قاصرة محدودة ازاء خلق الله ، فليس لنا ان نطمح للاحاطة الكاملة والتفسير الشامل لقضية (التكوين) هذه ، وليس لنا – كذلك – ان نفترض نظريات لا جدوى من ورائها .. ان هذا فوق طاقتنا ، وان اية محاولة في سبيله

لا تعدو أن تكون عبثا (ميتا فيزيقيا) يذكرنا بما كان يفعل جل الفلاسفة اليونانيين ، والاسلاميين المتأثرين بهم ، والذين افنوا اعمارهم في هذه السبيل . وهذا لا يعني أبداً التشكيك بالمحاولات العلمية ، التجريبية لدراسة الجانب الطبيعي القائم (فعلا) من الكون والسعي للكشف عن قوانين بنيانه المحكم ، لان هذا هو الموقف الذي يدعو له القرآن في عشرات الآيات .. انما القصد هو الجانب الفلسفي التصوري لبدايات الخلق والبحث عن (العلة) و (المعلول) و (متناهي الاول) الى اخره .. وكل ما يبينه القرآن عن امتداد عملية الخلق هذه في عصورنا التاريخية الراهنة والمقبلة ، أن الكون ماضٍ في حركته الدايناميه نحو الاتساع الدائم بارادة الله (والسماء بنيناها بايد وانا لموسعون) [1] ، وان هذه الهدفية على المستوى الكوني الكلي ، وهذه الحركة صوب الاتساع ، لا بد وأن تنعكس ، في التصور الاسلامي ، على حركة التاريخ البشري نفسه ، ومصير الانسان في العالم ، قبل أن يجيء اليوم الذي اعلن عنه القرآن مرارا حيث تطوى السماوات كطي السجل للكتاب ، وتكف الحياة والتاريخ البشري عن (الاستمرار) تمهيدا ليوم الحساب ، وتبدأ صفحة جديدة في تاريخ الخلق الالهي الدائم (كما بدأنا أول خلق نعيده ، وعدا علينا ..) [2] .

إننا حيثما تنقلنا في أرجاء القرآن الفسيحة لمطالعة الآيات والمقاطع الخاصة بخلق الكون وتهيئة الظروف الصالحة للحياة على الارض ، وتمعنا فيها ، وجدناها ترتبط ارتباطا عضويا اصيلا بالدور المنتظر الذي بعث الانسان لكي يلعبه ، وبالعمل والجدوى والنظام والاعمار والغاية التي بعث من اجلها ، وهي كلها قواعد أساسية لاي نشاط حضاري فعال هادف منظم متطور على الارض :

(وهو الذي خلق السماوات والارض في ستة أيام ، وكان عرشه على الماء ، ليبلوكم ايكم احسن عملا) [3] .

(ان ربكم الله الذي خلق السماوات والارض في ستة أيام ثم استوى على

---

(١) الذاريات ٤٧ (٢) الأنبياء ١٠٤ . (٣) هود ٧ .

العرش ، يدبر الامر ، ما من شفيع الا من بعد اذنه ، ذلكم الله ربكم فاعبدوه افلا تذكرون ؟ اليه مرجعكم جميعا ، وعد الله حقا ، انه يبدأ الخلق ثم يعيده ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب اليم بما كانوا يكفرون . هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا ، وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ، وما خلق الله ذلك الا بالحق ، يفصل الايات لقوم يعلمون) (٤) .

(وجعلنا الليل والنهار آيتين ، فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ، ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شيء فصلناه تفصيلا) (٥) .

(هو الذي خلق لكم ما في الارض جميعا منه ، ثم استوى الى السماء فسواهن سبع سماوات وهو بكل شيء عليم) (٦) .

(الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها ، ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجري لاجل مسمى ...) (٧) .

(وما خلقنا السماء والارض وما بينهما لاعبين . لو أردنا ان نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا ان كنا فاعلين . بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون . وله ما في السماوات والارض ومن عنده ، لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون . يسبحون الليل والنهار لا يفترون) (٨) .

(الله الذي خلق السماوات والارض وما بينهما في ستة أيام ، ثم استوى على العرش ، ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع افلا تتذكرون ؟ يدبر الامر من السماء الى الارض ثم يعرج اليه في يوم كان مقداره الف سنة مما تعدون . ذلك

---

(٤) يونس ٣ — ٥ .
(٥) الاسراء ١٢ .
(٦) البقرة ٢٩ .
(٧) الرعد ٢ .
(٨) الأنبياء ١٦ — ٢٠ .

عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم . الذي احسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الانسان من طين) (٩) .

(هو الذي خلق السماوات والارض في ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج في الارض وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ، وهو معكم اينما كنتم ، والله بما تعملون بصير) (١٠) .

(قل ائنكم لتكفرون بالذي خلق الارض في يومين وتجعلون له اندادا ذلك رب العالمين . وجعل فيها رواسي من فوقها ، وبارك فيها وقدر فيها اقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين . ثم استوى الى السماء وهي دخان فقال لها وللارض ائتيا طوعا أو كرها قالتا : اتينا طائعين . فقضاهن سبع سماوات في يومين واوحى في كل سماء امرها ، وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ، ذلك تقدير العزيز العليم) (١١) .

(والعصر ان الانسان لفي خسر ، الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) (١٢) .

فنحن من خلال هذه الآيات وغيرها كثير — ازاء تجربة اختبار وابتلاء ، تتطلب منا افرادا وجماعات ، عملا وابداعا .. ولكن اي عمل وابداع يتوجبان على الانسان في الفرصة التي ستنتهي الى (اجلها المسمى) ؟ ... انه ليس ارتجالا كيفيا ، ولا مواقف جزئية مفككة ، كما انه ليس فوضى لا يحدها نظام ولا يسلكها هدف .. انما العمل والابداع اللذين ينبثقان عن تخطيط مرسوم ، وينطلقان من مواقف كلية شاملة ، ويصدران عن نظام مبرمج يهدف الى غاية دايناميكية لا حدود لها ابدا تلك هي (عبادة الله) ... ان (عبادة الله) وحده ، بالمفهوم الابداعي الشامل الذي سنتحدث عنه عما قليل ، هي الهدف الذي

---

(٩) السجدة ٤ — ٧ .

(١٠) الحديد ٤ .

(١١) فصلت ٩ — ١١ . (١٢) العصر ١ — ٣ .

يتوجب على الانسان ، فردا وجماعة ، ان يصعد اليه كافة اوجه نشاطه الحضارية .. وبينما ترسم المذاهب الوضعية – هي الاخرى – اهدافا لحركتها الحضارية ، تتميز حينا بالغموض والمثالية كما هو الحال عند هيجل ، وتتميز حينا آخر بالتحديدات الصارمة والمادية كما هو الحال عند ماركس وانجلز ، وتتميز حينا ثالثا بصبغة مسيحية باهتة ، غير مبررة عقليا ، كما هو الحال عند توينبي .. الامر الذي قاد الاول – وهو يتحدث عن تجلي المتوحد من خلال (الدولة) – ان يعطينا كافة المبررات الفلسفية لممارسة سياستها العدوانية التي قد تقود ولا ريب الى الدمار الحضاري والظلم البشري ، وقاد الثاني الى اعلان دكتاتورية الطبقة العاملة كهدف للحركة التاريخية ،وتبرير أي أسلوب تعتمده لتحقيق هدفها ما دامت لا تعدو أن تكون منفذة امينة لمنطق التبدل في وسائل الانتاج الامر الذي قادها – ويقودها – الى تنفيذ المجازر الجماعية تجاه كافة القوى المعارضة والتي لا تنسجم وبداهات التحضر البشري الحر ... وقاد الثالث وهو بصدد حقن الحضارة الغربية المعاصرة بالامل ، الى عملية ترقيع غير منطقية بين القيم الروحية المسيحية وبين بعض معطيات الديانات العالمية الكبرى كاليهوديةوالبوذية والاسلام فيما سماه (الديانة الرباعية) .. الامر الذي يتناقض اساسا مع طبيعة التجربة (الدينية) القائمة على التلقي عن المصدر الواحد والتوجه المتوحد صوب هذا المصدر دون سواه ، وفق عقيدة تتميز بالوحدة والترابط . ثم ماذا بعد هذه الاهداف التي تؤكد المذاهب الوضعية انها آتية لا ريب فيها ؟ وهي في تأكيدها هذا تقع في التناقض الصريح مع (الداينامية) التي أقرتها كأساس لحركة التاريخ البشري ونمو الحضارات ؟ ماذا بعد دكتاتورية الطبقة العاملة وتجلي المتوحد ؟ ان التجربة البشرية اوسع دائما ، واغنى واشمل ، من ان تحصرها حدود طبقية تقوم على فرض التشابه الجماعي بالقسر ، ومجابهة كل تفرد أو تميز انساني ولا يعدو مصيرها في نهاية الامر أن يكون انشاء مجتمعات لا تزيد في نشاطاتها ومعطياتها عما نشهده في عوالم النحل والنمل من نظم هنلسية صارمة دقيقة ، وعمل دائب ، وانتاج متزايد .. أو ان تحصر هذه التجربة البشرية

الواسعة الغنية المعقدة المتنوعة ، الشاملة ، دولة عالمية يتجلى فيها المتوحد الهيجلي ، ويسوسها عرق ممتاز . مبررة سلفا كل ممارساته العدوانية ونزعاته الشوفينية .

بينما ترسم المذاهب الوضعية اهدافا كهذه تتميز بالغموض او الطغيان أو التناقض او الانغلاق ، نجد القرآن الكريم يعلن هدفه الواضح المتوحد المفتوح الذي يستقطب حوله كافة الفاعليات والمعطيات : عبادة الله ، والتلقي عنه ، والتوجه اليه .. ويطلب من القوى المؤمنة ان تتحرك على مدار التاريخ ، وفق كل الاساليب الانسانية الشريفة الممكنة ، لتجميع البشرية حول هذا الهدف الكبير (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنه ، ويكون الدين لله) (١٣) ... ولكي تتوحد في ممارساتها ومعطياتها وعلائقها جميعا مع النواميس الكونية الشاملة والنظام الالهي الملزم في مداه البعيد ، والذي ما منح هذا القدر من الحرية للانسان الا لكي يعتمدها باختياره ، في التساوق مع هذا النظام والاندماج في المجرى العام للخلائق الله جميعا ، تمييزا له ، بهذه الحرية التي تنبثق عن دوره كخليفة ، ومكانته كسيد للعالمين عن سائر خلق الله .. وفرق شاسع على كل المستويات الذاتية والاجتماعية والحضارية في النتائج المتمخضة عن نشاط يبذله الانسان وهو متساوق مع نواميس الكون ، متناغم مع مسيره ومصيره او وهو منشق على هذه النواميس متنافر معها بدءاً ومصيرا ..

والواقع أن الانسان فردا وجماعة ينسى في معظم الاحيان ان دائرة حريته محدودة فيما يقدمه من أفعال ، وما يتخذه من مواقف ويلتزمه من أهداف ، وانه فيما وراء ذلك ، محكوم بسنن ونواميس الهية تفوق طاقاته وقدراته جميعا ، وبدونها لا يمضي حق وعدل ، ولا يستقيم نظام كوني ولا وجود بشري ، ولا تتحقق حكمة الله سبحانه من تسيير الكون والخلائق جميعا وفق طرائق محددة منضبطه تؤدي بهم جميعا الى الاهداف التي رسمها في ابعادها المتكاملة ومن زواياها المختلفة (ولله يسجد من في السماوات والارض طوعا وكرها ..) (١٤) .

---

(١٣) البقرة ١٩٣ (١٤) الرعد ١٥ .

(وما خلقنا السماوات والارض وما بينهما الا بالحق) [١٥] .

(ولله يسجد ما في السماوات وما في الارض من دابة ، والملائكة . وهم لا يستكبرون) [١٦] .

(وله ما في السماوات والارض . وله الدين واصبا . افغير الله تتقون ؟)[١٧]

(تسبح له السماوات السبع والارض ، ومن فيهن ، وان من شيء الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم انه كان حليما غفورا) [١٨] .

(الم تر ان الله يسجد له من في السماوات ومن في الارض ، والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب ، وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب ...) [١٩]

(وما خلقنا السماء والارض وما بينهما باطلا ، ذلك ظن الذين كفروا ، فويل للذين كفروا من النار) [٢٠] .

(او لم يتفكروا في انفسهم ، ما خلق الله السماوات والارض وما بينهما الا بالحق واجل مسمى وان كثيرا من الناس بلقاء ربهم لكافرون) [٢١] .

(الله خالق كل شيء ، وهو على كل شيء وكيل ، له مقاليد السماوات والارض والذين كفروا بآيات الله اولئك هم الخاسرون) [٢٢] .

(وما خلقنا السماوات والارض وما بينهما لاعبين . وما خلقناهما الا بالحق ولكن اكثرهم لا يعلمون [٢٣] .

---

(١٥) الحجر ٨٥ وانظر النحل ٣ ، العنكبوت ٤ ، الزمر ٥ .
(١٦) النحل ٤٩ .
(١٧) النحل ٥٢ .
(١٨) الاسراء ٤٤ .
(١٩) الحج ١٨ ، وانظر النور ٤١ — ٤٢ .
(٢٠) ص ٢٧ .
(٢١) الروم ٨ وانظر الأحقاف ٣ .
(٢٢) الزمر ٦٢ — ٦٣ .
(٢٣) الدخان ٣٨ — ٣٩ .

(وخلق السماوات والارض بالحق ، ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون) (٢٤) .

(وله من في السماوات والارض كل له قانتون) (٢٥) .

(بل جاءهم بالحق ، وأكثرهم للحق كارهون . ولو اتبع الحق اهواءهم لفسدت السماوات والارض ومن فيهن ، بل اتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون) (٢٦) .

ولو تمعنا قليلا في موقفنا عبر الكون لرأينا اننا مجبرون — بالحق والعدل والنواميس : وباعتبارنا جزء من خليقة الله ، شئنا أم ابينا — في مساحات واسعة حاسمة من وجودنا ، اننا مجبرون على ان نولد ومجبرون على أن نموت ... اننا مجبرون على ان نبعث وان نحاسب على أعمالنا ، وان نساق الى جنة او الى نار وفق هذا الحساب العادل المحفز .. اننا مجبرون على ان ننتمي الى هذا الاقليم او ذاك ، والى هذه القبيلة او الامة او تلك ، والى هذا الجنس او ذاك ، والى هذا اللون او ذاك .. مجبرون كذلك على ان نخضع لمتطلبات حياتنا البيولوجية والحسية ، وعلى ان نتقلب وفق تجاربنا النفسية بين الحزن والفرح والغم والانشراح والخوف والطمأنينة ، والتمزق والتوحد .. وفوق هذا وذلك فاننا مجبرون على حمل ملامحنا الشخصية المتفردة ، وسماتنا الخاصة، وبصمات أصابعنا، وبدون هذه الالتزامات الحتمية تتبدد الحياة وتفقد وحدتها وتماسكها ومعناها ..... بدون هذا (الجبر) تضيع البشرية ، ويحدث التناقض في النواميس ، وتختفي قيم الحق والعدل الازلية ...

والمساحة المتبقية لممارسة حريتنا انما منحت لنا لتمييزنا عن سائر خلق الله وتفضيلنا على العالمين .. ان هذه المساحة تمتد هي الاخرى الى امداء واسعة : الموقف الذي نتخذه في العالم .. الاعمال والمعطيات التي نقدمها في الحياة .. الاهداف التي نتوجه اليها في ممارستنا ونشاطاتنا جميعا .. هذه الحرية التي تقف

---

(٢٤) الجاثية ٢٢ . (٢٥) الروم ٢٦ . (٢٦) المؤمنون ٧١ .

بالانسان والامم والشعوب والحضارات على مفترق طريقين .. فاما ان تكون مواقفنا واعمالنا واهدافنا منسجمة مع نواميس الكون وسنن الحياة ، متوافقة معها ، مما يترتب عليها انجاز حضاري اغنى وتوحد بشرى اشمل ، وسعادة نفسية أكثر عمقا ، ومصير في الارض والسماء أشد توافقا مع مهمة الوجود البشري في الارض .. وهذا ما سعت الاديان لتحقيقه في العالم وما يسعى الاسلام وسيظل ، من اجل تحويل البشرية كلها اليه (كي لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله) .. ..

واما ان تجيء هذه المواقف والاعمال والاهداف منشقة ، بالقدر الذي منحت فيه اختيارها بطبيعة الحال ، عن نواميس الكون وسنن الحياة ، مرتطمة بها الامر الذي يترتب عليه انجاز حضاري متفكك ، وتمزق بشري شامل ، وشقاء نفسي عميق ، ومصير سيء في الدنيا والاخرى ، يندعن طبيعة الدور الذي بعث الانسان الى العالم لادائه ، ويجيء مكافئا لعصيانه وتمرده ورفضه اداء المهمة ، وهذا ما سعت المذاهب الوضعية ، وتسعى لتحقيقه في العالم وتحويل البشرية كلها اليه .

ومن ثم فان القرآن في تفسيره لادوار الامم والشعوب والحضارات ، انما يتخذ ، هذا المقياس الكوني المصيري الحاسم في تحديد مدى توافق التجربة البشرية مع النواميس او ارتطامها بها ، ويدعونا الى مواقع الانسجام والتوافق، نافخا فينا روح العمل والابداع مستقطبا ممارساتنا ومعطياتنا في الهدف الواحد الشامل الذي أعلنه الله سبحانه (وما خلقت الجن والانس الاليعبدون) .. ولا بد أن نقف هنا لتلمس الملامح الاساسية الشاملة لمفهوم التعبد في الاسلام .

ان القرآن يؤكد ، هنا وفي اماكن اخرى ، ان الله سبحانه ما خلق (معشر الجن والانس) الا(ليعبدوه) ، وليس مفهوم العبادة هنا ، مساحة ضيقة لا تتجاوز دائرة (الشعائرية) و(الاتصال الروحي) بالله .. انه تجربة حياة كاملة يتوازن فيها الاخذ والعطاء ، وتغدو اشبه بالبرنامج الشامل الذي ينظم فاعليات

الجماعة البشرية في الأرض ، ويمنحها معنى ، ويسير بها الى هدف واضح مرسوم .. انه يمنح التجربة الحضارية طابعها الخاص ، ويعطيها الدافع والمبرر ، وينفخ فيها روح الابداع والابتكار والتطور الدائم الفعال .. كما انه يتجاوز بها السفوح الدنيا للنشاط البشري ، الى القيم التي تليق بمكانة البشرية في ساحة العالم.. وبهذا تسقط ، ابتداء ، كافة السلبيات التي يمكن ان تعلق باي نشاط حضاري لا يعتمد برنامجا شاملا ، ولا يسعى الى هدف واضح ، ولا يلتزم اخلاقية الانسان في حواره مع خالقه .

وتبرز من بين هذه السلبيات مسألتا (العبث) و (اللاجدوى) اللتان تسيطران على مساحات واسعة من انشطتنا الحضارية المعاصرة على مستوى الواقع والفكر [٢٧] ، في وقت تنتفيان فيه اساسا ، من خلال الموقف القرآني ، الذي يبين لنا مرارا ان خلق السماوات والارض ما جاء عبثا ، وان سعي الانسان في العالم ليس أمرا محكوما باللاجدوى :

(افحسبتم انما خلقناكم عبثا وانكم الينا لا ترجعون ؟) [٢٨] .

(ايحسب الانسان ان يترك سدى ؟) [٢٩] .

(وان ليس للانسان الاما سعى . وان سعيه سوف يرى . ثم يجزاه الجزاء الاوفى) [٣٠] .

(وما خلقنا السماء والارض وما بينهما لاعبين . لو اردنا ان نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا ان كنا فاعلين ، بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون) . [٣١]

ويعلن ان وراء هذا النشاط والجهد البشري غايات اساسية يتمحور حولها

---

(٢٧) أنظر كتاب (فوضى العالم في المسرح الغربي المعاصر) للمؤلف (قيد الإعداد) .
(٢٨) المؤمنون ١١٥ .
(٢٩) القيامة ٣٦ .
(٣٠) النجم ٣٩ – ٤١ .
(٣١) الأنبياء ١٦ – ١٨ .

وتنشد جميعا الى غاية الغايات ، والمركز الذي تتجه اليه الخلائق جميعا في نشاطاتها المختلفة وتحقق به وجودها وتجد مصيرها .. تلك هي عبادة الله والتلقي عنه والتوجه اليه .

ان ثمة ظاهرة اساسية يتميز بها النشاط التعبدي في الاسلام ، ذلك انه لا يقتصر على فترات مقتطعة من الزمن ، أو اماكن محددة من العالم ، وانما ينساح لكي يشمل كل الاماكن والازمان . ليس هذا فحسب بل انه في جوهره تذكر للوجود الالهي في الكون وادراك لابعاده الشاملة : قدرة وارادة واحاطة ورقابة وعلما .. واتصال دائم بالله سبحانه في كل ما يصدر عن الانسان من أفعال ظاهرة مرئية ، وإرادات لم تتشكل في افعالها بعد ، او نيات وخواطر وتأملات هواجس تدور في اعماق النفس .. وتقدير لعظمة الله الذي خلق الكون والحياة والانسان على اروع وادق نظام .. واعتراف بالجميل للخلاق المبدع الذي هيأ للبشرية ظروفا تمكنها في كل وقت من تحقيق السعادة الكاملة في الارض والسماء.

ان التعبد — بهذا المعنى — يمتد الى كل مساحات الحياة البشرية الظاهرة والخفية الخاصة والعامة ، الفردية والجماعية ، المادية والروحية ، تماما كما تمتد الدماء وتسري في اوصال الجسد البشري وخلاياه .

« وتنبثق عن هذه الحقيقة ضرورة التفريق بين هذه القاعدة التعبدية الشاملة، وبين بعض صور العبادة التي حددها الاسلام على شكل شعائر وطقوس ذات اشكال ومضامين معينة كالصلاة والصيام والحج والزكاة .. ففي الحالة الاولى يبدو أن كل ممارسة ، باطنية كانت أم ظاهرية ، يمكن أن تكون تعبدا اذا كنت وراءها نية مؤمنة تسعى الى ان تجعل من كل فاعلية في الحياة وسيلة يتقرب بها الانسان من الله ، ويتعبد اليه ، ويتذكر وجوده الشامل القادر المريد .. هذه القاعدة الشاملة التي تضم ، فيما تضم ، الشعائر الاسلامية الخمس نفسها مضافا اليها كل الفاعليات الاخرى ، ابتداء من اشدها مادية وكثافة كالتجربة الجنسية وتجارب الطعام والشراب ، وانتهاء بسهر الليالي الطوال تقربا الى الله وتأملا في ملكوته .

والحق ان من الصعوبة بمكان الفصل بين الشعائر الاسلامية وبين القاعدة التعبدية نظرا للارتباط الدقيق بينهما . فضلا عن ان هذه الشعائر نفسها لا تنصب على الجانب الروحي . التأملي ، فحسب بل تنساح الى كل جوانب النشاط الانساني الحركي : جسدا وعاطفة وروحا وعقلا وفسلجة ووجدانا . الا انه لا بد من هذا التفريق لغرض ايضاح هذه الحقيقة الاساسية في بنية الاسلام الذي يرسم لاتباعه برنامجا عمليا للصعود والترقي ينتهي بابعد آفاقه في تلك اللحظات التي يتوحد الانسان فيها مع ذاته وعقيدته ، ويغدو تعبيرا حيا عنها ، بحيث انه لا يمارس عملا الا وهو يستشعر خلال تلك الممارسة الوجود الالهي المحيط المريد ، وحينذاك يكون المسلم قد حقق اقصى درجات إسلاميتهوهي (الاحسان) ويكون (الاسلام) قد أدى دوره الكامل .

ولا ريب أن سؤالا يتبادر الى الاذهان في هذا المجال ، وهو أنه اذا كانت الارضية التي تقوم عليها العبادة الاسلامية تمتد وتشمل هذه المساحة الواسعة من حياة الانسان فلماذا اضاف الاسلام اليها شعائر يومية وموسمية محددة تتمثل بصيام أو حج أو زكاة .. واوجب على المسلمين الالتزام بها ، واعتبر التخلي عنها حدا بين الكفر والايمان ؟ والجواب يجيء سريعا في أن الاسلام جاء لكي (يضبط) و (يحدد) و (ينظم) انطلاقا من ايجابيته وواقعيته في تحديد الاشياء والعلاقات والقيم ، ذلك ان ترك الانسان حرا في ممارسة تعبده لا يضمن اساسا قيام هذا التعبد لدى بعض المنتمين واستمراره لدى بعضهم الاخر ، فلا بد اذن من وضع حد ادنى (ملزم) يكون بمثابة قاعدة يمكن ان يبنى فوقها المزيد من النشاطات التعبدية التي تصل بالمسلم (اختيارا) . وحسب المقدرة ، الى درجة الاحسان والى تحويل الحياة كلها الى ساحة للتعبد والتذكر » (٣٢) .

قد يسأل سائل : « اذا كان هدف الانسان في الكون هو ان يعبد الله كما

---

(٣٢) عن الملامح الأساسية للعبادة الاسلامية أنظر بالتفصيل بحثا للمؤلف في مجلة الوعي الاسلامي السنة الثامنة .

يؤكد القرآن الكريم – افلا يعني هذا ان الانسان مغبون إذ قدر عليه ان يقف في موضع يطلب منه فيه العطاء فحسب، دونما أي قدر من (الاخذ) ؟ «والجواب (كلا) لان العبادة في الاسلام – كما مرَّ بنا – هي التجربة الحياتية الكبرى القائمة على توازن فذ عجيب بين الاخذ والعطاء ، والانسان يبلغ قمة انسانيته عندما يصل تلك النقطة التي يحقق فيها ذلك التوازن . حيث نجده يبلغ اقصى درجات الانسجام ، والتوحد الباطني ، والحيوية الحسية ، والنشاط الروحي ، والتفتح العقلي ، والحركة الجسدية ، لان الله سبحانه ، وهو أدرى بخلقه ، جعل عبادته التي هي هدف الخلقية جمعاء . مفتاح هذا المصير الذي يطمع اليه كل الانسان . واي انسان في الارض لا يطمح لان يكون متوحدا منسجما ، حيويا ، نشيطا وحركيا ؟

« ان العبادة في الاسلام لا تعني – كما هو الحال في كثير من الاديان والعقائد – حوارا جزئيا مع الله سبحانه ، في ساعات معينة من الليل او النهار ، حوارا يعبر عن نفسه باداء حركات محددة ، واستعادة تعابير وصلوات مكتوبة سلفا ، وهدوءً جسديا موقوتا بزمن هذا الحوار . وما ان تم هذه العبادة الجزئية ، او الصلاة التي لا تعدو أن تكون (صلة وقتية) ، تسودها الآلية والكسل الروحي في معظم الاحيان ، حتى ينقلب الانسان الى تيار الحياة الهادر الصاخب لكي (يحرك) مكوناته التي جمدتها لحظات الصلاة ، ولكي ينطلق متعاملا مع الاخرين بشخصيته الثانية : الشخصية الدنيوية العملية الحركية . اما في الاسلام فان كل فاعليات الانسان تبدو عبادة لله ، ما دام ذلك الانسان قد وضع الله نصب عينيه . .وكلما كان الله سبحانه اكثر تجليا للانسان خلال احدى ممارساته ، كلما جاءت تلك (الممارسة) أكثر انسجاما مع مفهوم العبادة الشامل العميق .. وهذا التجلي ، أو (الاحسان) بلغة الرسول (ص)، لا يتحقق الا بالصبر والمران والدأب لكي ما يلبث أن تجيء ثماره حلوة كالرحيق المختوم .. هنالك حيث تتوازن تجربتا الأخذ والعطاء » (٣٣) .

---

(٣٣) انظر : الهامش السابق .

(٢)

إن موقف القرآن الكريم من المسألة الحضارية في جانبها الانساني يبدأ بخلق آدم ، وفي الظروف والدلالات والرموز والارهاصات التي رافقته وأعقبته (واذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الأرض خليفة . قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟ قال : اني أعلم ما لا تعلمون . وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال: انبئوني بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين ؟ قالوا : سبحانك ، لا علم لنا الا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم . قال: يا آدم انبئهم بأسمائهم. فلما أنبأهم بأسمائهم قال: ألم أقل لكم اني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ؛ واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ، فسجدوا الا ابليس أبى واستكبر وكان من الكافرين ، وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ، وكلا منها رغدا حيث شئتما ولاتقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين . فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه ، وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ، ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين . فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه انه هو التواب الرحيم . قلنا اهبطوا منها جميعا ؛ فاما يأتيكم مني هدىً ، فمن فبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) (١) .

تلك هي الخطوط العريضة ، الواضحة ، لمسألة الوجود البشري في العالم .. الصورة المتماسكة البيّنة التي تساقطت عندها قرنا بعد قرن عشرات المحاولات التفسيرية التي تطرفت باتجاه الخيال اليهودي (الاسرائيليات) أو التبرير العقلي المتوتّر .. وبقيت الصورة القرآنية الخالدة على وضوحها وبيانها .. اننا — من خلال هذا العرض المركز — نلتقي بقواعد أساسية ومبادىء كلية ، تتجاوز الجزئيات والتفاصيل وتلقي ضوءها الشامل على كل ما يهمنا في المسألةالحضارية

(١) البقرة ٣٠ — ٣٩ .

من خلال الموقف القرآني : خلافة الانسان عن الله في الأرض ومنحه المقدرة على التعلم والفعل والاستيعاب، وتكريمه الأقصى حتى بسجود الملائكة له .... مجابهته بابليس وبدء (الصراع) بين الطرفين و (الهبوط) الزمني (الموقوت) إلى الأرض كأول تجربة من تجارب هذا الصراع .. (تعليق) الدور البشري في الأرض على تلقّي (الهدى) من الله وحده ، وتحديد المصير الذي سيؤول اليه موقف الانسان (الحرّ) ازاء هذا الهدى في الارض والسماء .

تلك هي المبادىء الكبرى الأساسية التي يقدمها لنا هذا المقطع القرآني الخطير والتي تعيننا على تفهم الموقف الاسلامي من المسألة الحضارية بأبعادها الشاملة وهي مبادىء تملك من الوضوح والصلابة والاستمرارية والتماسك ما تبدو ازاءه — غامضة مفككة مضطربة — كل محاولات التفسير الوضعي لنشأة التاريخ البشري وبدء الخليقة وأصول الحضارات . لأنها تكل أمر هذه اللحظة الفاصلة للصدفة العمياء ، أو تطور وسائل الانتاج المادية في الخارج ، أو محاولة العقل الكلي ، الغامض غير المحدّد ، لأن يعبّر عن نفسه من خلال العالم ويقطع الطريق الطويل من أجل التجلّي !! أو رغبة الطبيعة في تنشئة خلائقها وترقيتهم عن طريق منحهم — غير المبرّر — لحياة لا تمتلكها هي نفسها ، الأمر الذي يشكل تناقضا فاضحا ازاء تحديد مصدر هذه الحياة .. ولنبدأ من ثم بتحليل هذه المبادىء القرآنية من خلال آيات ومقاطع أخرى نلتقي بها في القرآن الكريم نفسه :

لقد أراد الله للانسان أن يكون خليفته في الأرض ، فمنحه القدرة العقلية على التعلم والمقدرة الجسدية على التنفيذ والعمل والابداع ، والارادة (الحرة) لاختيار أسلوب الحياة التي يقوده اليها فكره ودوافعه النفسية والجسدية .. ولكي لا يحسّ الانسان (بالدونية) ولا تدور في خاطره أية فكرة عن (سلبية) دوره في العالم ، رفعت مكانته الى أعلى مصاف وطُلب من الملائكة أن يسجدوا له .. وتلك هي أسس تقود ولا ريب الى تصوّر دور الانسان في العالم كقوة فاعلة ، مفكرة ، مريدة ، منفذة ، مستقلة مفضّلة .. الأمور التي لا بد منها لأي

ابداع حضاري على الأرض . فاذا ما أضفنا الى هذا ما سبق وأن أشرنا اليه من أن العالم قد مُهد تمهيدا للدور البشري على أرضيته . وما سنشير اليه فيما بعد من أبعاد (الصراع) التي لا بدّ منها (للحركة التاريخية) ومن خطورة التعاليم التي كانت تتنزل حينا بعد حين لكي (تضبط) و (تنظم) حركة الانسان في الأرض ، أدركنا كم هي عميقة شاملة متكاملة ، الأسس التي منحت للبشرية لكي تعتمدها في ممارسة خلافتها العمرانية ، أو الحضارية في العالم .

إن مسألة (الاستخلاف) تتكرر أكثر من مرة في القرآن الكريم :

(هو الذي جعلكم خلائف في الأرض ، فمن كفر فعليه كفره ، ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم الا مقتا ، ولا يزيد الكافرين كفرهم الا خسارا) (٢) .

(وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ، ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم ان ربك سريع العقاب وانه لغفور رحيم) (٣) .

(واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون) (٤) .

(قال : عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون) (٥) .

(ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون) (٦) .

(فكذبوه فنجيناه ومن معه في الفلك ، وجعلناهم خلائف وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذرين) (٧) .

---

(٢) فاطر ٣٩ .
(٣) الأنعام ١٦٥ .
(٤) الأعراف ٦٩ .
(٥) الأعراف ١٢٩ .
(٦) يونس ١٤ .
(٧) يونس ٧٣ .

(ويجعلكم خلفاء الأرض ، أإله مع الله ؟ قليلا ما تذكرون)[٨] .

(وعد الله الذين آمنوا منكم ، وعملوا الصالحات ، ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون)[٩] .

ومسألة الاستخلاف تبدو خلال هذه الآيات مرتبطة بالخيط الطويل العادل من طرفيه : العمل والابداع ومجانبة الإفساد في الأرض ، وتلقّي القيم والتعاليم والشرائع عن الله والالتزام الكامل بها خلال ممارسة الجهد البشري في العالم .. والعلاقة بين هذين الطرفين علاقة أساسية متبادلة ، بحيث أن افتقاد أي منهما سيؤول الى الخراب والضياع في الدنيا والآخرة ، ويقود الى عملية استبدال للجماعة البشرية بغيرها ممن تقدر على الإمساك بالخيط من طرفيه : العمل والجهد والابداع ، والتلقي الدائم عن الله لضبط وتوجيه هذا العمل والجهد والابداع في مسالكه الصحية التي تجعل الانسان يقف دائما بمواجهة خالقه كخليفة مفوضين عنه لإعمار العالم : (قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره ، هو الذي أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها)[١٠] .

ويبلغ من تأكيد القرآن على العمل والجهد البشري لإعمار العالم على عين الله وتوجيهه ، أن ترد اللفظة بتصريفاتها المختلفة فيما يزيد على الثلاثمائة والخمسين موضعا ، وهي كلها تشير — سلبا وإيجابا — إلى أن المحور الأساسي لوجود الانسان — فردا وجماعة — على الأرض هو (العمل) الذي يتخذ مقياسا عادلاً لتحديد المصير في الدنيا والآخرة ، وهو (موقف) ينسجم تماما مع فكرتيْ (الاستخلاف) و (الاستعمار) الأرضي .. إن القرآن الكريم يحدثنا أن مسألة خلق الموت والحياة أساساً انما جاءت لابتلاء بني آدم ، أيهم أحسن عملا ؟ (الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور)[١١] .

---

(٨) النمل ٦٢ .
(٩) النور ٥٥ .
(١٠) هود ٦١ .
(١١) الملك ٢ .

كما يحدثنا في سورة العصر أن موقف الانسان في العالم سيؤول الى الخسران بمجرد افتقار شرطيه الأساسيين (الايمان ، والعمل الصالح) .. ويصدر أمره الحاسم الى الأمة المسلمة أن تلتزم دورها الايجابي الفعّال في قلب العالم (ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون . ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم) [١٢] . وفي مكان آخر يصف هذه الأمة بأنها (خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) [١٣] .

وفي مقابل هذا يندّد القرآن بكل عمل أو نشاط خاطىء من شأنه أن يؤول إلى الفساد في الأرض والى هدم وتدمير المكتسبات التي يصنعها العمل الصالح بالصبر والدأب والمثابرة .. وهو من موقفه هذا يسعى إلى حماية منجزات الانسان الحضارية ووقف كل ما يعوق مسيرتها ونموّها ، وملاحقة أية محاولة لإنزال الدمار بها من الداخل تحت أي شعار كانت .. وهذه الحماية الحضارية لا تنصبّ — كما هو الحال في كثير من التجارب الوضعية — على الجوانب المادية من الانجاز البشري ، والتي يصطلح عليها أحياناً باسم (المدنية) ، تلك التي تواصل تصاعدها الدائم ، كماً ونوعاً ، بغض النظر عن منحنيات الموقف الحضاري بمفهومه الانساني الشامل ، لأن القاعدة التي يتحرك عليها هذا التصاعد، مادية صرفة ، تسعى إلى تجميع كافة المنجزات البشرية في هذه الدائرة وتسليمها للأمة الأنشط والأقوى لمواصلة تصعيدها ، الأمر الذي يجعلنا نعود فنربط نموّها ، لا ديمومتها ، بالموقف الحضاري الشامل الذي تتخذه أمة من الأمم على كل المستويات ...

.. إن هذا مسألة ثانوية وهو يجيء دائماً في المرتبة التالية ، وأحياناً كنتيجة لقاعدة تسبقه وتفوقه أهمية تلك هي المنجزات الفكرية والأخلاقية والروحية والنفسية بمفهومها الانساني الشامل ، من أجل الصمود في المواقع التي بلغهـــا

---

(١٢) آل عمران ١٠٤ — ١٠٥ .   (١٣) آل عمران ١١٠ .

الانسان وهو يواصل طريقه لإعمار العالم ، عبر سلسلة طويلة من كفاح مبعوثي الله إلى بني آدم ، ومن أجل ألاّ تصاب هذه المنجزات (الأساسية) بنكسة أو كارثة ترجع بحركة التاريخ البشري إلى الوراء وفقاً للمقاييس الانسانية أو مهما بقي التقدم المادي الصرف على صعوده وغناه ..

الاّ أن هذا لا يعني أبداً أن أي موقف (سلبي) ازاء حماية الانجاز المادي من الدمار يمكن أن يغيّره القرآن .. لأن الاصلاح والاعمار المنوطان بالاستخلاف مسائل تتداخل فيها كل الفاعليات الحضارية مادية وأخلاقية وروحية ؛ وان أي ضرر أو إفساد يلحق بأحدهما ينعكس – بشكل أو بآخر – على الجوانب الأخرى ، وهذا واضح بيّن في أكثر من آية (ولا تفسدوا في الأرض بعد اصلاحها . . .) (١٤) .

(قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم ، فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ، ذلك خير ؟ إن كنتم مؤمنين) (١٥) .

(.. واصلح ولا تتبع سبيل المفسدين) (١٦) .

(ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون) (١٧) .

(أفمن اسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم ، والله لا يهدي القوم الظالمين . لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم الاّ أن تقطّع قلوبهم والله عليم حكيم) (١٨) .

---

(١٤) الأعراف ٥٦ .
(١٥) الأعراف ٨٥ .
(١٦) الأعراف ١٤٢ .
(١٧) الروم ٤١ ..
(١٨) التوبة ١٠٩ – ١١٠ .

(والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار) (١٩) .

(ولا تطيعوا أمر المسرفين . الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون) (٢٠) .

(يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالا طيبا ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدوّ مبين . انما يأ مركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون) (٢١) .

(كالذين من قبلكم كانوا اشد منكم قوة واكثر اموالا واولادا ، فاستمتعوا بخلاقهم فاستمتعتم بخلاقكم ، كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم ، وخضتم كالذين خاضوا ، اولئك حبطت اعمالهم في الدنيا والآخرة واولئك هم الخاسرون) (٢٢) .

(الذين يصدّون عن سبيل الله ويبغونها عوجا وهم بالآخرة هم كافرون) (٢٣)

(وما اريد ان اخالفكم الى ما انهاكم عنه ، ان اريد الاّ الاصلاح ما استطعت . وما توفيقي الا بالله ...) (٢٤) .

(وليزيدن كثيرا منهم ما انزل اليك من ربك طغيانا وكفرا . والقينا بينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيامة، كلما أوقدوا ناراً للحرب اطفأها الله، ويسعون في الارض فسادا والله لا يحب المفسدين) (٢٥) .

والقرآن الكريم لا يكتفي بتقديم هذه الصور الكالحة عن الإفساد الروحي والمادي وعما يؤول اليه من دمار لحضارة الانسان ، ولرقيه وتقدمه وسعادته ، ومن عرقلة لدوره في العالم كخليفة عن الله فيه ، ولكنه يطلب من الجماعة المؤمنة ان (تتحرك) لوقفه باسرع ما تستطيع وبأقصى ما تطيق ، لئلا يتحول

---

(١٩) الرعد ٢٥ .
(٢٠) الشعراء ١٥١ – ١٥٢ .
(٢١) البقرة ١٦٨ – ١٦٩ .
(٢٢) التوبة ٦٩ .
(٢٣) هود ١٩ .
(٢٤) هود ٨٨ .
(٢٥) المائدة ٦٤ .

الفساد الى فتنة عمياء لا ترحم احدا ولا تبقي وهي تدوّم فوق رؤوس الجماعة كلها ظالما أو مظلوما :

(فلولا كان من القرون من قبلكم اولوا بقية ينهون عن الفساد في الارض ، الا قليلا ممن انجينا منهم ، واتبع الذين ظلموا ما اترفوا فيه وكانوا مجرمين . وما كان ربك ليهلك القرى بظلم واهلها مصلحون) [٢٦] .

(والذين كفروا بعضهم اولياء بعض ، الا تفعلوه تكن فتنة في الارض وفساد كبير ...) [٢٧] .

(واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا ان الله شديد العقاب) [٢٨] .

إن القرآن يرفض ، في نظرته للمسألة الحضارية ، اشد ما يرفض ، مواقف التجزئة والفصل وإقامة الجدران بين مساحات التجربة البشرية ، ويرى فيها وحدة حيوية تسري فيها روح واحدة وتغذيها دماء واحدة .. إن تجزيئها وعزل بعض جوانبها — خلال العمل — عن بعض ، ليس خطأ فحسب ولكنها مسألة تكاد تكون مستحيلة ، اذا ما أردنا — مسبقاً — ان نصل الى نتائج صحيحة .

ومن خلال تحقق الشرطين السالفين : الإصلاح ووقف الفساد ومجابهته على كل المستويات ، واستنادا الى التعاليم الالهية التي يجيء بها الانبياء حينا بعد حين ، تمارس الجماعة البشرية المؤمنة خلافتها في الارض ، وتواصل (الحضارة) تقدمها ونموّها من خلال ارادة الانسان ، وموقفه الفوقي على الكائنات ، وقدراته التي منحه الله اياها على التصوّر والتخيّل والتخطيط والتنفيذ والعقل والابتكار والابداع .. قدرات على مستوى العقل والروح والعاطفة والوجدان والجسد على السواء .. وليس ثمة شيء في العالم أو قوة في الكون ، غير قوة الله وحده ، بقادرة على ان تصدّ الانسان عن اهدافه ومطامحه التي قرر ان يسعى اليها .

---

(٢٦) هود ١١٦ — ١١٧ . (٢٧) الأنفال ٧٣ . (٢٨) الأنفال ٢٥ .

إننا هنا بازاء علاقة (تغاير) نوعي حاسم بين الجماعة البشرية المريدة المدبرة الفاعلة ، وبين كتلة العالم والطبيعة التي لا تملك قدرة ذاتية ولا فعلا مرسوما لمجابهة الانسان .. انها اساسا ، وفق المعطيات القرآنية ، قد سخرّت له تسخيرا . وان الله سبحانه قد حدّد أبعادها وقوانينها ونظمها واحجامها بما يتلاءم والمهمة الأساسية لخلافة الانسان في العالم ، وقدرته على التعامل مع الطبيعة تعاملا ايجابيا فاعلاً .

وإذا ما اردنا أن نعتمد اصطلاحات (توينبي) ومقاييسه الحضارية ، في مسألة النموّ الحضاري هذه ، فاننا سنرى في العالم (تحدّيا مناسبا) للانسان ، ليس (معجزا) ولا هو دون الحدّ المطلوب لاثارة التوتر البشري للردّ .. وكأن ارادة الله سبحانه قد شاءت ان تقف به عند هذا الحدّ لكي يحقق المدى الأقصى من الحوار الخلاّق بينه وبين خليفته في الارض ، فلم يشأ ان يمهد العالم تمهيدا كاملا ويكشف للانسان عن قوانينه واسراره بالكلية لأن هذا نقيض عملية الاستخلاف والتحضرّ والإبداع التي تتطلب مقاومة وتحديا واستجابة ودأبا وإبداعا ، ولأنه يقود الأنسان الى مواقع السلبية المطلقة ويسلمه الى كسل لا تقرّه مهمة الانسان على الارض أساساً .

« .. ترى .. لو أعطي الانسان ، يوم خلقه ، المفتاح الذي يدخل به مباشرة الى ساحة الطبيعة ، فيدرك قوانينها دون عناء ، ويقفز الى الحضارة الخارجية بلا تدرج أو تطور ، أكان يشهد التاريخ البشري هذه الجهود العظيمة ، وتلك المحـــاولات الدائبة ، وذلك التشبّث والسعي صوب الكشف والتحضير ؟ اكان يمكن أن يكون للبشرية تاريخ اساساً ؟ وما هو دور العقل اذن اذا كان بامكان العين ان ترى القانون الاكبر ، والاذن ان تسمعه ، واليد أن تلمسه ؟ ما هو — وهذا هو الاهم — دور الارادة الانسانية التي ركزها الله في الانسان ، والطاقات التي جهزه بها كي يكون للانسان امكانية التصدّي للغموض الطبيعي والحواجز الطبيعية ؟ ولماذا اذن جعل الله سبحانه في الارض هذه المشاكل والتعقيدات والصعوبات الطبيعية؟ أفيمكن، دون أن يستثير الله سبحانه عنصر التحدي

الارادي بين الانسان والطبيعة . ان تكون هناك محاولة جادة لاستخدام العقل والارادة ، والتغلّب على الغموض والتعقيد ، ومن ثم التقدم والتحضرّ ؟ ثم هل بمقدورنا ان نجد ثمة حضارة واحدة في تاريخ البشرية لم يسهم في بعثها الى الوجود هذا التحدي الأبدي بين الطبيعه والانسان ؟

ان أخلاقية الوجود البشري على الأرض تقتضي هذا الحوار الفعال بين الانسان والطبيعة ... هو يسأل وهي تتمنّع على الاجابة ، وهو يسعى اليها متسائلا قلقا ، وهي ترفض أن تفتح له أحضانها وتلقي اليه بكنوزها .. معنى هذا ان على الانسان ان يرفض الكسل والقعود ، ان يتخلى عن السعي الهادىء المطمئن الى رزقه وتأمين حياته ، وإحاطة وجوده على الارض بالضمانات .. إن عليه – كما اراد له الله سبحانه – ان يمشي ويتحرك ، ان يجد ويكد ، ان يستخدم كل الطاقات التي وهبها اياه من اجل تحقيق هذا الهدف وهو أن تردّ الطبيعة على جوابه وتسلم اليه القياد ..

في القرآن الكريم مئات الآيات والاشارات تنفخ في الانسان هذا المعنى الحضاري العظيم . وتعلمه أن حواره مع الطبيعة لن يثمر إلاّ بالسعي والكدح والحركة . من أجل هذا ايضا كان الإسلام – خاتم الرسالات ومصدّقها – دعوة حركية على هذا النطاق – كما هو دعوة حركية على النطاق الأكبر : نطاق العقيدة والدين والمنهج – حركة الانسان والشعوب والامم من الجهل والتخلف الى العلم والتحضرّ ، من الظلام الى النور ، ومن النظرة المسترخية الكسولة للطبيعة والاشياء ، الى التمعن المتوتر النشيط للطبيعة والاشياء .. هذه الحركة التي يطلب القرآن ان تكون متفجرة ابدا لا تكلّ ولا تملّ .. ثم يطلب منها – وهذا هو الاعجاز العظيم – الا تقصر سعيها على مستوى الأرض ، ويعلمها أن وطن الانسان ليس هو الارض فحسب ، بل الكون كله !! وكما انه يدعوه للحركة العقائدية في نطاق الكون كله ، فكذلك يطلب أن تكون حركته (العقلية) في نطاق الكون كله ، فالارض جزء من الكون ، والناموس الذي يحكم الأرض هو نفسه الذي يحكم الكون ، والله سبحانه خالق القوانين

والاوضاع والانسان (وهو الذي في السماء اله وفي الأرض اله) ! ومن ثم فإن التقاء بين الحركتين : حركة العقل وحركة الوجدان : حركة الحسّ و حركة الروح ، حركة الذهن وحركة القلب ، هذا اللقاء القائم على التوافق والتوحدّ والانسجام سيكون محتما في المدى القريب والبعيد لأن كلتا الحركتين ستطلع الانسان على الملكوت وتقوده الى الله ... » [٢٩] .

إن الله سبحانه لم يشأ — من جهة أخرى — ان يجعل العالم على درجه من التعقيد والصعوبة الطبيعية والانغلاق والغموض يعجز معها الانسان عن الاستجابة والابداع . الامر الذي يتنافى — ايضا — ومهمته الحضارية التي أنيطت به كخليفة لله على الارض جاء لإعمار عالم غير مقفل ولا مسدود :

(ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء انه بعباده خبير بصير . وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الولي الحميد . ومن آياته خلق السماوات والأرض ، وما بث فيها من دابة ، وهو على جمعهم — اذا يشاء — قدير . وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت ايديكم ويعفو عن كثير) [٣٠] .

(الذي جعل لكم الأرض مهدا وجعل لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون . والذي نزّل من السماء ماء بقدر فانشرنا به بلدة ميتا كذلك تخرجون . والذي خلق الازواج كلها وجعل لكم من الفلك والانعام ما تركبون . لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم اذا استويتم عليه ، وتقولوا : سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين) [٣١] .

والحق ان الآيات الخاصة بمسألة التسخير (المتوازن ، المناسب) هذا ، منبثة في مواضع من القرآن كثيرة لا تعدّ ولا تحصى ..

---

(٢٩) أنظر بالتفصيل : فصل (خطوات في مواقع العلم والدين) من كتاب (تهافت العلمانية) للمؤلف .
(٣٠) الشورى ٢٧ — ٣٠ . (٣١) الزخرف ١٠ — ١٣ .

إنه الحدّ (الوسط) الذي يتحدى الانسان الى نقطة التوتر والقدرة على الاستجابة والفعل والاعمار ، ويتجاوز التكشّف الكامل أو الانغلاق الكامل اللذين يستحيل معهما الفعل الانساني .

وثمة سؤال ملحّ يفرض نفسه هنا ، نظرا لا رتباطه الوثيق بالمسألة التي نناقشها ، وهو : لماذا ترك الانسان — على المستوى الطبيعي — يجهد بنفسه ويبتكر ويكشف ويطوّر بينما ألزم — على المستوى العقائدي الديني — بالاعتماد الكليّ على تعاليم السماء ؛ هل بمقدور الإنسان أن يبتكر بنفسه (المنهج) أو (الدين) الذي يقوده عبر الطريق ؛ ما هو السبب — بعبارة اخرى — في تعليق هداية الانسان الشاملة على نزول الاديان والتزامه بتعاليمها وما هو الفرق بين القانون الطبيعي والقانون الديني الاخلاقي ؛ ولماذا لم يكشف الله عن الاول كشفا كليا بينما قدم التعاليم النهائية الحاسمة عن القانون الثاني ؟

« في البداية يجب أن ندرك ، انه في المدى البعيد ، مدى علم الله الذي تنقطع دونه الاعناق ، في هذه الحياة الدنيا الاّ من ارتضى من رسول ، في مدى هذا العلم الالهي تنتفي هذه الثنائية بين القانونين : قانون الطبيعة وقانون الدين ، تذوب الحواجز وتتلاشى الفوارق ، ويلتقي كلا القانونين في مدى صنع الله وارادته ونواميسه الكبرى التي تسير ملكوت السماوات والارض بما عليها من جماد وحيوان . إن المادة نفسها — التي يرتكز عليها القانون الطبيعي — قد حطمها اليوم العلم نفسه .. لم تعد العينه الصلبه من المادة هي اساس الطبيعة . لقد كشف لنا العلم الحديث عن جانب خطير من القانون الطبيعي ، وعلمنا أن اساس البنية الطبيعية هي الحركة وليست المادة ، الذرات باشكالها المتناهيةفي الصغر تتحرك وفق مسارات معينة فتضفي الشكل المادي الخارجي للاشياء ، وهذه الذرات تتشكل هي الأخرى وفق حركة معجزة في كيانها الداخلي .. لكأنه تسبيح ابدي لكل قوى الطبيعه لربّ الملكوت (وإن من شيء الا يسبح بحمده ، ولكن لا تفقهون تسبيحهم) [٣٢] ، ولكأنه ايماء عجيب للانسان

---

(٣٢) الاسراء ٤٤ .

المعاصر بزيف هذه الثنائية التي قسمت خلق الله الى قسمين واقامت بينهما جدارا من التباعد والصمت والغموض . إن الحركة — بمعناها الشامل — هي أساس الوجود المادي تماما كما هي أساس الوجود الحيوي .. هذا ما كشف عنه العلم اخيرا ، وما هذا الكشف إلا جانب ضئيل مما يمكن أن يكشف عنه المستقبل القريب والبعيد .

ومهما يكن من أمر فإن السؤال يبقى على اهميته الفائقة في حياتنا الراهنة .. وجوابا عليه لا بدّ أن نتمعن قليلا في دور الانسان نفسه في هذا العالم ، الانسان بارادته وطاقاته وامكاناته ، الانسان بما هو إنسان .. ترى لو تركت للانسان حرية الكشف عن منهج الحياة بمفهومها الشامل (المنهج الديني) بنفسه ، اكان يمكن أن يصل الى بغيته ؟ اكان من السهل عليه تحقيق هدفه المنشود ؟ اذن لماذا لم تستطع المذاهب والمحاولات الوضعيه طيلة الاف السنين من عمر البشرية ان تحقق هذا الهدف ؟ اليس من العبث والتناقض ان يترك الانسان هكذا؟ يتعثر طوال حياته على الأرض ولا يجد من يهديه سواء السبيل ؟ ان يظل اسير جهله وتخبطه اللذين لا يرتفع من وهدة حتى يسقطانه في وهدة اعمق منها وابعد غورا؟ اليس من العبث والتضييع ان يهدر الانسان طاقاته الفاعلة في سبيل البحث عن المنهج والقيم الكبرى ، وهل بامكان الانسان اساساً أن يصل الى المنهج الامثل ، ويحدد — بموضوعية تامة — قيمه العليا التي يتحرك على ضوئها وبالتزاماتها ؟

في مجـال الطبيعة والاشياء لم يشأ الله سبحانه ان يكشف للانسان عن قوانينها ، لأن هذا يعني اهمالا لطاقات الانسان الخلاّقة وقدرتها على الفعل والكشف والابتكار . ولو حدث وان وجد الانسان نفسه فجأة امام تكشّف النواميس الطبيعية على حقيقتها ، لألغيت — اذن — وبشكل محتّم — كما سبق وان بينّا — جل قدرته ومحاولاته الإبداعية ، ولأسلم نفسه لكسل فكري واتكالية لم يرد الله للانسان ان يقع في إسارها ، اما العقيدة والمنهج والقيم الخلقية ، فهل كان من المنطق أن تظل غامضة ، وان يسعى الانسان بنفسه للكشف عنها ؟ إن هذه القيم وتلك العقيدة وذلك المنهج ، ما داما يرتبطان اساساً بالعالم الأوسع ،

ويمتدان الى ما وراء الحسّ الظاهر للعيان . ما داما ينأيان دائما عن رؤية الانسان المباشر وحركته النسبية ، وحريته المحدودة ، ونسبيّته الحسّية . فليس من السهل عليه — اذن — ان يترك وحده للسعي وراء اهداف لم يهيّأ للكشف عنها .

ان تجربة (الخطأ والصواب) تغدو مجدية في مجال التعامل مع الطبيعة لأنها ستعلّم الانسان دوما طريقة جديدة ، أو تمنحه ابتكارا جديدا ؛ وما منجزات الغرب التقنيّة المعاصرة سوى (تراث) بشري اسهمت في صنعه وبنائه وتطويره معظم امم الارض وشعوبها بعد أن مارست كثيرا من تجارب الخطأ والصواب وما زال العلم الى الآن ينفي اليوم — بتجربيته — ما اثبته بالامس ، ويثبت ما سوف ينفيه غدا ؛ ولكن هذا النفي والاثبات وهذه الظنّية التي تحكم ميادين النشاط العلمي . لم تؤثر في يوم من الأيام على التطور المستمر للانجازات (المدنيّة) ، بل ان هذه — كما سبق وان ذكرنا — في صعود مستمر نحو الأكثر والأحسن والارقى . الا اذا جوبهت بحرب عالمية شاملة لا تبقي ولا تذر ، وهذا أمر مستبعد الحدوث على الأقل في القرون القليلة التالية ، او اذا أصيبت بعض أنحاء العالم المتقدم بنكسة جغرافية شاملة كما حدث مثلا بالنسبة لقارة (اطلانطا) التي يقال — ظنا — انها بلغت شأوا كبيرا من التقدم والتحضرّ ، وهذا امر احتمالي بعيد هو الآخر ...

اما في المجال العقيدي والاخلاقي والديني فلا يمكن للانسان ان يمارس تجربة الخطأ والصواب لأن هذه ستكون على حساب كينونته ووقته وجهده ومصيره في نهاية الأمر ؛ ولأنها — وهذا هو الأهم — لن تقدم له (الصواب) المطلق الذي لا خطأ بعده في يوم من الأيام ، ذلك أنه لا يملك (الوسائل) التي تمكنه من بلوغ هذا الصواب وتمحيصه على السواء . ثم ان عملية النفي والاثبات هنا ليست سوى عملية سلبية ، اذ أن (نفياً) كهذا سيوقع الامم والشعوب في فوضى لا حدّ لها ، وسيصيب الانسان نفسه بمشاكل ذاتية وقلق وتمزق داخلي يشلاّنه عن المضي في طريق الإبداع والتطوّر الحضاري .

لقد اعطى الله الانسان امكانيات خلاّقة وقدرات فذّة ورؤية عظيمة

واسعة الامداء ؛ لكن هذا وحده لا يكفي ؛ ان امكاناته وقدراته ورؤاه لها ارضية واسعة للسعي والحركة ، وان تقليص هذه الأرضية هي إهدار لطاقات الانسان أو تجميدها وهي — بمعنى أوسع — احتقار للارادة الانسانية . لكن هناك مدى أوسع بكثير من هذه الارضية ، ولو ترك الانسان وحده لظل يتحرك كالأعمى ؛ يقوم ويسقط ، الى أن يأتي يوم يسقط فيه في الهوّة التي لا قيام بعدها . ولقد حدث هذا فعلا لكل الناس والامم والشعوب التي تعبّدها (الوضعيون) من دون الله ، قالوا لها إن بامكانهم اعطاءها (العقيدة) والمنهج والقيم ؛ فسارت وراءهم رغباً ورهبا ؛ وتلقت عنهم دينها وقيمها ومناهجها ، بالأحرى عبدتهم من دون الله .. ولكن ما لبث أن سقط الأرباب والعبيد على السواء ... » (٣٣) .

ونعود ثانية الى مسألة (التسخير) .. ان هنالك آيات ومقاطع قرآنية عديدة تحدّثنا عن هذا التسخير للعالم والطبيعة لخدمة الدور الذي انيط بالانسان في الارض ، وهي تمنحنا التصوّر الايجابي لدور الانسان الحضاري ينأى كلية عن التصورات السالبة لعديد من التفاسير الوضعية التي جرّدت الانسان من كثير من قدراته الفاعلة وحريته في حواره مع كتلة العالم ، وتطرف بعضها فأخضعه إخضاعا كاملا لمشيئة هذه الكتلة وارادة قوانينها الداينامية الخاصة التي تجيء بمثابة أمر لارادّ له ، وليس بمقدور الانسان الا أن يخضع ويساير ويتقبل هذا الذي تأمر به .

وسواء التزم التفسير الوضعي المنطق الديالكتيكي على مستوى الفكر الكلي غير المحدد ؛ كما فصل هيجل ، أو على مستوى المادة وتبدل وسائل الانتاج وظروفه (الخارجية) كما فعل ماركس وانجلز ، فان الإنسان يغدو تابعا وليس متبوعا ، وأن الانجاز الحضاري يجيء وكأن الانسان جزء منه أو مساحة من

---

(٣٣) أنظر بالتفصيل عن هذه المسألة الفصول ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ من كتاب (تهافت العلمانية) للمؤلف .

مكوناته فحسب ، وانه ليس أمامه الا ان يتشكّل وفق مقتضيات مسيرة اكبر حجما من ارادته واوسع مدى من قدراته ومطامحه ونزوعاته الذاتية والجماعية على السواء .

اننا نلتقي من خلال القرآن بصيغة اخرى للعلاقة بين الانسان والعالم تختلف من اساسها .. صيغة (السيّد الفاعل المريد) الذي سُخرت وأخضعت له مسبقا كتلة العالم والطبيعة لتلبية متطلبات خلافته في الارض وإعماره للعالم على عين الله (وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بامره وسخر لكم الأنهار ، وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار) [٣٤] .

(وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر) [٣٥] .

(وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا) [٣٦] .

(ألم تر ان الله سخر لكم ما في الارض ؟) [٣٧] .

(ولئن سألتهم من خلق السماوات والارض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله) [٣٨] .

(الم تروا ان الله سخر لكم ما في السماوات وما في الارض ؟) [٣٩] .

(وسخرنا مع داود الجبال يسبّحن والطير) [٤٠] .

(فسخرنا له الريح تجري بامره رخاء حيث اصاب) [٤١] .

* * *

(٣٤) ابراهيم ٣٢ — ٣٣ .
(٣٥) النحل ١٢ .
(٣٦) النحل ١٤ .
(٣٧) الحج ٦٥ .
(٣٨) العنكبوت ٦١ .
(٣٩) لقمان ٢٠ .
(٤٠) الأنبياء ٧٩ .
(٤١) ص ٣٦ .

من منشورات
دار القلم – الكويت

المكتبة الاسلامية :

علم أصول الفقه ، عبد الوهاب خلاف
دراسات اسلامية ، د . محمد عبد الله دراز
ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، أبو الحسن النّدوي
النبأ العظيم ، د . محمد عبد الله دراز
الدين ، د . محمد عبد الله دراز
الإيمان ، د . حسن التّرابي

المكتبة الجامعية :

مختبر اللغة ، علي القاسمي
الاتجاه المعاصر في تدريس العلوم . د . فتحي الديب
تدريس اللغة العربية بالمرحلة الابتدائية . د . محمد صلاح الدين مجاور
مناهج البحث العلمي في التّربية وعلم النفس . د . محمد خليفة بركات
المنهج والفروق الفردية ، د . فتحي الديب
التّربية المعاصرة ، د . محمود عبد الرزاق شفشق وآخرون
التعليم المبرمج ، جري بوكزتار (معرب)
بيئات نقد الشعر عند العرب ، د . اسماعيل الصيفي

الثقافة العامة :

حوار مع الشيوعيين . عبد الحليم خفاجي
ما هي القاديانية ، أبو الأعلى المودودي

خواطر حول أزمة الخلق المسلم المعاصر

عبد الحليم محمد أحمد أبو شقة *

المقدمة :

الحاسة الخلقية امر فطري جبل عليه الانسان منذ خلق « ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها » فهي تعني ادراك للخير وللشر وانفعال أيضا بالخير والشر ثم نزوع لفعل الخير والشر . وهي نبتة ضعيفة بحاجة للرعاية لتنمو وتسمو ؛ ولذا بعث الله النبيين يركزون في النفوس مكارم الأخلاق ويثبتون في الأرض معالم الخير . وهكذا ما ختمت الرسالات السماوية حتى كانت شجرة الأخلاق باسقة . وصدق رسول الله « إنما بعث لأتمم مكارم الأخلاق » . وقد لقيت تلك الحاسة الرعاية الإلهية بطريقين يتمم أحدهما الآخر طريق التعليم

(*) مدير دار القلم للنشر والتوزيع . الكويت .

والتوضيح مع الحض والتشجيع وطريق الحساب والجزاء وهكذا كانت الأخلاق عندنا مع أساسها الفطري بإلزام وجزاء كأكمل ما يكون الالزام والجزاء ، إلزام ذاتي وخارجي وجزاء معنوي ومادي .

والعقيدة تنمي الأخلاق بالحب قبل الخوف ، بحب الله والتقرب اليه بما يحب والله يحب السمو . اذن فليحب الإنسان الكمال وفعل المكرمات . أي أن العقيدة تنمي النزعة الى السمو وهي نزعة لها أصل فطري . وبعد هذا الحشد من القوى الذاتية الداخلية التي تنمي الاخلاق يأتي جانب الجزاء من ثواب وعقاب (١) .

ثم إن العبادة تنمي العقيدة وتنمي الأخلاق معا . إنها تفتح الآفاق الرحيبة أمام النفس ، إنها تذكر الانسان بمعالي الأمور وتحض عليها . إنها تحبب اليه السمو وتكره اليه الهبوط والإخلاد الى الأرض . إنها تضع الأنسان في محراب الإيمان فينهل من النبع الخالد . إنها المصنع الدائم للإنسان حيث يشحن العقل والقلب بالنور . إنها مدرسة العبودية الخالصة لله يتخرج منها عباد الله لا يعرفون الخضوع لغير الله فيعمرون الدنيا بالحق والخير .

أخلاق الفكر :

وهذه في مرتبة عالية من النظام الخلقي حيث يقوم الفكر بدور كبير في حياة الإنسان ، فإذا استقام الفكر ساعد ذلك على استقامة حياة الإنسان . وإذا كانت قوة الفكر « أي الذكاء » أمرا فطريا فإن تحرر الفكر وحب الحقيقه أمر فطري ومكتسب.. وتحري الحق عبارة عن مزيج من التحرر الفكري «... قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون » ومن حب الحقيقة « .... إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئا » .

ومن التحرر الفكري ومن حب الحقيقة معا يتكون للفكر خلقه الأول والأساسي . فالتحرر يكفل للفكر أن يعمل بكامل قواه التي أودعها الله فيه دون

---

(١) أنظر « الدستور الأخلاقي في القرآن » للدكتور محمد عبدالله دراز .

أي ضغوط . وحب الحقيقة يدفع الفكر للسعي الحثيث كي يدرك الأمور كل الأمور على حقيقتها . أمور الغيب وأمور الهدى وأمور الواقع لا يقعده خمول أو رضا مهين عن السعي الحثيث والبحث المتصل . وصدق القائل : إن الفكر في جانب من جوانبه خلق أي أن قوى الفكر عندما تكون أمينة لوظيفتها – وهذا شرطها الأساسي – تغدو خلقا . وان الخلق هو في جانب من جوانبه فكر إذ يقوم على أساس من الادراك الصحيح للقيم الدينية . وهذا الادراك الصحيح من عمل الفكر .

والتوحيد وهو أول وأسمى درجات العقيدة لا سبيل أن يدركه غير العقل المتحرر اليقظ المتأمل .

وتحري الحق – كخلق أول للفكر – هو الأساس الذي تقوم عليه أخلاق فكرية أخرى مثل :

حسن الحوار : « .... وجادلهم بالتي هي أحسن ... »
التسامح الفكري : « ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك ولذلك خلقهم »
التسامح الديني : « لا إكراه في الدين . »

الأخلاق المركبة :

قد نعجب أحيانا من صدور نوعين من السلوك من شخصين نراهما متماثلين في خلق من الأخلاق . ولكن هذا العجب يزول إذا أدركنا أن بعض الأخلاق أو بعض أنماط السلوك انما يتشكل من خلقين أو أكثر . ولكي يصدر سلوك واحد من شخصين يستلزم تماثلهما في جميع الأخلاق المكونة لهذا السلوك ، ولا يكفي التماثل في خلق واحد .

ومن أمثلة الأخلاق المركبة :

التقوى + ايجابية = ثورة على المنكر
التقوى + سلبية = صمت عن المنكر

الورع	+	تحرر فكري	=	اجتهاد محكم
الورع	+	تقديس للسلف	=	تقليد وجمود
الاخلاص لله	+	تسامح	=	تعاون
الاخلاص لله	+	تعصب	=	طائفية
العفة	+	ايجابية	=	نشاط محتشم
العفة	+	سلبية	=	عزلة خاملة
المحبة	+	يقظة	=	تعاون
المحبة	+	بلادة	=	مجرد عاطفة أو دعاء

وحدة البناء الخلقي :

في أية مؤسسة أو في أي مجال ينبغي أن تتكامل وتتساند مجموعة من الأخلاق ، حتى تنهض المؤسسة كلها (أو المجال كله) في وحدة متسقة ، والا صلحت جوانب وفسدت جوانب أخرى ، وربما اختلت جميع الجوانب .

فمثلا في مؤسسة كالجامعة :

- حب العلم وتقديره ... خلق
- والجد في التحصيل .. خلق
- ونبل الهدف من التعليم .. خلق
- واختيار التخصص حسب القدرة .. خلق
- واختيار التخصص حسب تلبيته لحاجة المجتمع .. خلق
- والاهتمام برسالة الجامعة العلمية والاجتماعية .. خلق
- والاهتمام برسالة الجامعة الوطنية .. خلق
- والأمانة في الأبحاث والامتحانات .. خلق
- والحوار المهذب مع المخالفين .. خلق
- وتدعيم الروح الجامعية بصفة عامة .. خلق

* والاحتشام في الزي .. خلق
* والاختلاط الجاد الهادف .. خلق

فلم يرفع الاسلاميون — عادة — لواء خلق واحد ويصرخون به بالليل والنهار ويدعون بقية الأخلاق دون تقدير او دون ممارسة أو دون دعوة لها أو دون حرب في سبيل تدعيمها ان كان لا بد من حرب ؟

ان حرصنا على وحدة البناء الخلقي يعني الوعي الكامل للمجال الذي نعمل فيه أو للمشكلة التي نعالجها . كما يعني صحة الاتجاه نحو الاصلاح الجذري لا الشكلي أو الترقيعي .

وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق »

(حديث صحيح ورد تحت رقم ٤٥ في سلسلة الأحاديث الصحيحة جـ ١ للشيخ ناصر الدين الألباني)

الاتجاهات الفكرية وأثرها في الأخلاق [١] :

أولا : الـ العقلية العلمية :

هناك عدة مظاهر للسلوك (أو الخلق) البدائي . ونقصد هنا سلوك من لا يملك عقلية علمية ولو حمل أعلى الشهادات . ومن هذه المظاهر :

(أ) — الحذر المفرط .
(ب) — التردد بين الثقة المفرطة بالنفس وبين الشعور بالعجز المقعد .
(جـ) — رفض الشعور بالعجز رغم صدمة الخيبة وإلقاء المسئولية على الغير .

---

(١) انظر كتاب « حتى يغيروا ما بأنفسهم — بحث في سنن تغيير النفس والمجتمع » تأليف جودت سعيد . مطبعة العلم . لبنان . دون تحديد الناشر .

(د) — التردد بين الثقة المفرطة بالغير وبين سرعة سحب الثقة به بل والحقد عليه أيضا .

فإذا تأملنا وجدنا كل هذه الصور السلبية ناتجة من عدم (أو ضعف) الوعي بقوانين المادة وقوانين الاجتماع . والجهل بأن هذه القوانين وتلك تحكم المادة والانسان على السواء .

أما السلوك المنهجي السوي ونقصد هنا سلوك من يملك عقلية علمية ولو كان بدويا أو فلاحا يعيش في أعماق الريف : فيتسم بمظاهر تباين تلك تمام المباينة ، ذلك أن الفرد في هذه الحالة يدرك أن قضايا المجتمع تخضع لقوانين كما تخضع المادة . فمثلا في قضية الإصلاح وتغيير الواقع الفاسد يعلم أن هناك قانونا أو مجموعة قوانين تحكم تغيير الواقع الى ما هو أفضل . والآية الكريمة « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » تشير الى قانون أساسي في هذه القضية ومن هنا نجد أن العقلية العلمية توفر لصاحبها مميزات خلقية طيبة مثل الثقة المعتدلة بالنفس وبالغير حيث يعرف حقيقة قدراته وقدرات الغير في إطار تلك القوانين الاجتماعية ، ومثل الصدق مع النفس ومع الغير حيث الفرد هنا لا يفاجأ بالعجز (كما في حال السلوك البدائي) إنما هو يدرك ضعفه ويسعى بجد لاستكمال ما ينقصه دونما حاجة الى القاء المسئولية على الغير . ثم إنه بمنأى عن الحذر المفرط فإدراكه أن لله في خلقه سننا (قوانين) تجعله يتعامل مع معلوم أو مع قابل لأن يكون معلوما . فلا داعي اذن للحذر المفرط ، إنما إحسان التقدير في حال الأمر المعلوم ومزيد من النظر والبحث في حال الأمر المجهول .

ثانياً : أثر الغيب الخرافي :

والغيب الخرافي هو كل تصور للغيب منحرف عن الغيب الالهي العلمي ، الالهي ما كان مصدره الله جل وعلا ، والعلمي ما كان قطعي الورود قطعي الدلالـــة .

وهذه بعض الأمثلة لأثر الغيب الخرافي :

(أ) إن تصور القدرة الإلهية والإرادة الإلهية تصورا منحرفا يشل قدرة الانسان على تغيير نفسه رغم صريح قوله تعالى : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » . ان نزع سلطان التغيير من يد الانسان وتصور أن هذا السلطان لله وحده ، افتئات على الله حيث هو سبحانه الذي منح هذا السلطان للإنسان . ولكن الغيبيين الخرافيين يحسبون أن عملهم ذلك من كمال الايمان بالله وقدرة الله . والحقيقة أنهم يسيئون الظن بالله ولا يحسنون . وهل ننتظر من أصحاب هذا التصور الخرافي الا أن يصابوا بالعجز والكسل والجبن والتواكل . إن هذه الصفات من خصائص المؤمنين الخرافيين أما المؤمنون العلميون — حيث يدركون العلاقة بين قدرة الله وقدرة الانسان — ... فهم ذوو مضاء وعزم وإقدام.

(ب) — إن تصور اليوم الآخر (أي معنى الحساب) في حالة اكتمال رسوخه وعلى الوجه الشرعي الصحيح يؤدي الى الشجاعة والاستقامة والتعمير الجاد للحياة . وإذا رسخ على وجه غير صحيح فيمكن أن يؤدي الى اعتزال الدنيا والتفرغ للعبادة .

(ج) — فكرة « الرزق واحد » ومقدر منذ الأزل في حال رسوخها على وجه صحيح تؤدي إلى الإجمال في الطلب وعدم الإسفاف هذا من ناحية كما تؤدي الى البذل بسخاء في وجوه الخير . وإذا رسخت على وجه غير صحيح تؤدي الى الكسل والتواكل .

خطورة الانحراف الخلقي الفكري :

إذا قارنا بين الانحراف الخلقي الفكري (أي الانحراف عن الهوى ولو مع حسن النية) وبين الوقوع في معصية عابرة (أي الضعف عن تطبيق الهدى) نجد أن نهج الرسول صلى الله عليه وسلم التشديد في الأمر الأول والترفق في الأمر الثاني .

ومن أمثلة التشديد في الأمر الأول :

(أ) — قوله ﷺ « أفتان أنت يا معاذ » !! حين أطال على الناس في صلاة العشاء ، وقوله ﷺ « يا أيها الناس ان منكم منفرين فأيكم أمّ بالناس فليوجز » ... قال الراوي فما رأيت النبي ﷺ قط أشد غضباً في موعظة منه يومئذ (رواها الشيخان) وهذا يعني ضرورة الرفق بالناس .

(ب) — قوله صلى الله عليه وسلم « من ترك سنتي فليس مني » (رواه الشيخان) يوم جابه الثلاثة الذين غالوا في العبادة . وهذا يعني ضرورة الاعتدال وممارسة الحياة الطيبة .

(ج) — وقوله ﷺ :« يا أسامة أقتلته بعدما قال لا إله إلا الله » قلت كان متعوذا فما زال يكررها حتى تمنيت اني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم . (رواه الشيخان) وزاد مسلم قوله ﷺ « أفلا شققت عن قلبه !!» ... وهذا يعني ضرورة التحري والتبين خاصة في الدماء ، واجراء أحكام الناس على الظاهر .

(د) — قوله ﷺ « لو دخلوها ما خرجوا منها أبدا » رواه الشيخان ، انظر قصة الأمير الذي أمر صاحبيه أن يرميا أنفسهما في النار ، وهذا يعني ضرورة الوعي واليقظة وأن الطاعة في المعروف .

ومن أمثلة الرفق في الأمر الثاني :

(أ) — قوله ﷺ « أليس قد صليت معنا » انظر قصة الرجل الذي قارف معصية دون الزنا وجاء مثقلا بوطأة الشعور بالذنب (رواه الشيخان)

(ب) — قوله ﷺ « رأيت شابا وشابة فخشيت الشيطان عليهما » أنظر قصة ابعاد نظر الفضل بن العباس وكان ينظر الى امرأة جميلة في موسم الحج . (القصة رواها الشيخان وجملة رأيت شابا وشابة ..من رواية حسنة صحيحة عند

الترمذي حسب تحقيق الشيخ ناصر الدين الألباني في كتاب حجاب المرأة المسلمة) .

(جـ) — وأخيرا قوله ﷺ « وإن زنى وإن سرق ... وإن زنى وإن سرق على رغم أنف أبي ذر » انظر الحديث « ما من عبد قال لا اله الا الله ثم مات على ذلك الا دخل الجنة » رواه الشيخان .

إن الانحراف الخلقي الفكري أمر خطير لأنه قد يثمر نهجا عاما يطبع حياة الفرد أو حياة الجماعة . ولأنه عادة لا يلفت الانتباه حيث يتلبس بمسحة دينية نتيجة النية الحسنة . بينما انحراف السلوك الشخصي أقل خطراً لأن كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون . ولأن الخطايا المعروفة تعلن عن نفسها فينكرها الفرد ويتوب منها ، وان لم ينكرها هو أنكرها الناس .

بين أخلاق النهوض وأخلاق الجمود :

قد يتساءل البعض كيف قامت الحضارة الحديثة وتفوقت وسادت ، مع وجود الانحرافات الخلقية مثل تلك المتصلة بالجنس وتناول الخمر والقمار.. لكن إذا تأملنا الأخلاق وجدناها عبارة عن مجموعة متكاملة من القيم تغطي جوانب الحياة كلها فكرية — سلوكية — شخصية — اجتماعية . والذي يحدث عادة في الأمم أن تبرز بعض القيم وتسود وتضعف قيم أخرى . والأمة تنهض وتتقدم بغلبة تأثير مجموعة معينة من القيم مثل الثقة بالنفس والطموح والجد والاتقان واليقظة والنظام والبسالة والاستهانة بالموت فإذا برزت هذه القيم وسادت امتد دورها إلى التخفيف من ظهور أثر بعض الانحرافات الخلقية كالزنا والخمر والقمار . ولكن مع مضي الزمن ومع تدخل بعض العوامل الخارجية كظروف حرب أو ترف أو فقر شديد أو فراغ روحي ، قد يقع عند ذلك اسراف في (الخمر والميسر والزنا) مما يحطم من أخلاق النهوض ويهدد تماسك المجتمع ويضعف من قوته .

ان أخلاق القوة كالعـــزم والشجاعة والمغامرة والطمـــوح والنظام والصبر والغيرية يقابلها أخـــلاق الضعف كالسلبية والجبن والخوف والتواكل والرضى بالدون والأنانية . وإن أخلاق الحق والخير مثل الاخلاص لله والتعفف عن المحرمات من زنا وخمر وميسر ... والتوبة والتواضع والحياء والعدل مع الصديق والعدو يقابلها أخلاق الباطل والشر كالتبذل وشرب الخمر ولعب الميسر والزنا والتهالك على الدنيا والظلم لغير الصديق .

وفي مجال نهوض الأمم وتقدمها المادي أو ضعفها وانحلالها لا يضير مع أخلاق القوة وجود بعض أخلاق الباطل والشر كما أنه في مجال انحلال الأمة وسقوطها لا يفيد مع أخلاق الضعف وجود أخلاق الحق والخير ليكون نهوض وتقدم .

ان أخلاق الحق والخير تضاف الى القوة فتزينها . كما أن أخلاق الباطل والشر تضاف الى القوة فتقبحها ، ولكن أخلاق الحق والخير إذا أضيفت إلى الضعف تميع ويضيع أثرها وتصبح باهتة أي أنها تخفق في جبر الضعف بينما ينجح الضعف في تمييع الحق والخير بل ومحقهما أحيانا .

وقد تعرض الأستاذ أبو الأعلى المودودي لهذا الموضوع في كتابه القيم « الأسس الأخلاقية للحركة الاسلامية» ونحن ننقل هنا مع الاختصار فقرات من ص ٢٠ — ٢١ : « .... ان هناك أخلاقا أساسية انسانية لا يمكن أن ينجح الانسان في هذا العالم — سواء أكان مؤمنا أو كافرا أو صالحا أو طالحا — إلا إذا تحلى بها مثل قوة الإرادة والصبر والثبات والهمة والشدة والبأس والولوع بالغاية والاستعداد للتضحية بكل شيء في سبيلها والحزم والحيطة وإدراك العواقب وحب النظام والاحساس بالمسئولية والامتلاك للعواطف والرغبات النفسية ..... » « .... على أن هذه الثروة لا تنقلب الى قوة جماعية عظيمة محكمة فعالة في الأمر الواقع إلا إذا ساعدتها جملة من الصفات الخلقية مثل الاتفاق على غاية مشتركة كانت أحب اليهم من أغراضهم الشخصية وكان زعماؤهم عندهم الاخلاص وحسن التدبير .... »

ثم ذكر أن الاسلام مع تقديره تلك الأخلاق الأساسية حض على مجموعة من الأخلاق أطلق عليها الأستاذ الفاضل « الأخلاق الإسلامية » وقد بين أن لهذه المجموعة دورا خاصا وهو :

١ ــ توجيه الأخلاق الأساسية الانسانية وجهة الخير [والاستعمار الغربي الحديث مثال جيد يوضح كيف يمكن توجيه الأخلاق الأساسية وجهة الشر] .

٢ ــ توطيد الأخلاق الأساسية وتوسيع مجال تطبيقها .

٣ ــ الأخلاق الأساسية هي الطبقة الأولى من البناء ثم يشيد الإسلام عليها طبقة ثانية من الأخلاق الفاضلة حتى ليرتقي بها الانسان إلى درجات الشرف والكمال .... والإسلام هنا ــ أي في مجال الأخلاق الاسلامية ــ يطهر قلب الانسان من الأثرة والظلم والوقاحة والخلاعة وينمي في نفسه تقوى الله ويجعله جوادا ودودا ناصحا أمينا عادلا صادقا لخلائق الله جميعا في كل حال كما يجعله فوق ذلك مفتاحا للخير مغلاقا للشر في أرض الله كافة .... »

ونكتفي بهذا القدر من كلام الأستاذ المودودي ــ وهو كلام نفيس ــ لنقول :

كأن المسلمين اليوم لا يدركون من معنى الأخلاق إلا بعض تلك التي أطلق عليها « الأخلاق الاسلامية » وقد نسوا أنه إذا انعدمت الأخلاق الأساسية الانسانية أو اضمحلت اضمحلالا كبيرا فما الذي ستوجهه الأخلاق الاسلامية وجهة الخير ؟!

أو ماذا يفيد أن توجه قوة هزيلة وجهة الخير ؟ ثم كيف توسع الأخلاق الاسلامية مجال تطبيق الأخلاق الأساسية وهذه الأخيرة غير موجودة أصلا ! !

ثم كيف نبني الطبقة الثانية من البناء دون توفر الطبقة الأولى الأساسية ؟ إلا إذا كنا نبني في الهواء أو على الرمال ! .

تشويه « المثالية » للأخلاق :

كما يكون تشويه الخلقة بعد أن سواها الله في أحسن تقويم ويزعم المشوهون أنهم انما يقصدون التجميل والتحسين كذلك يقع التشويه لمكارم الأخلاق بعد أن أتمها رسول الله ﷺ ويزعم المشوهون أنهم يقصدون السمو والكمال .

ان تشويه المثالية ليس بعدم التطبيق فعدم التطبيق عجز انما التشويه هنا يعني تحريف الخلق عن أصله الانساني الحياتي الواقعي « وهو الأصل الشرعي » والتهويم به في صور خيالية «مثالية » ترمي به بعيدا عن أرض الواقع وعن حياة الناس المادية الفاضلة مع الزعم أن المقصود بهذا الابعاد هو بلوغ أقصى درجات السمو وأقصى درجات الكمال .

ومن الأمثلة على ذلك :

أولا : العفة الانسانية (في مجال الجنس) تعني ممارسة الجنس أكمل ممارسة وأحلاها عن طريق طيب مشروع .

أما العفة المثالية فتعني احتقار الجنس أو التقليل من شأنه والتضييق عليه .

والأمر المؤسف أننا نجد بعض الكتاب حين يعرضون لأمر الزواج في الاسلام ، يلحون على أن القصد منه هو النسل وحفظ النوع ، أما أن يكون للاستمتاع فهو أمر شبه منكر أو غريب على خلق المسلم . وينسون حديث جابر بن عبدالله قال : تزوجت فقال لي رسول الله ﷺ : ما تزوجت ؟ فقلت : تزوجت ثيبا فقال : ما لك وللعذارى ولعابها . وفي رواية أخرى : هلا جارية تلاعبها وتلاعبك . (رواه الشيخان) .

كذلك نرى كثيرا من الكتاب حين يعرضون لزوجات الرسول يلحون على الدواعي السياسية والاجتماعية والتشريعية ويكادون يستبعدون قصد الاستمتاع وكأن لا وجود له ، بل كأنه أمر مشين لا يليق بالرسول الكريم رغم الدلائل الكثيرة التي تشير إلى حب الرسول للنساء مثل :

• قوله تعالى « لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن » .

• حديث عمرو بن العاص قلت لرسول الله ﷺ : أي الناس أحب اليك ؟ قال : عائشة . فقلت : من الرجال قال : أبوها قلت ثم من قال : عمر بن الخطاب ... (رواه الشيخان) .

• وفي حديث أنس أن رسول الله ﷺ كان يطوف على نسائه في الليلة الواحدة وله يومئذ تسع نسوة . (رواه الشيخان) وزاد مسلم : بغُسْلٍ واحد .

• وحديث عائشة : كنت أغار على اللاتي وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ وأقول أتهب المرأة نفسها ؟

فلما أنزل الله تعالى « ترجى من تشاء منهن وتؤوى اليك من تشاء ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك » قلت : ما أرى ربك الا يسارع في هواك (رواه الشيخان) .

خلاصة الأمر إن شئنا خلاص خلق العفة من تشويه « المثالية » فعلينا تكريم الجنس للاستمتاع بالحياة ولحفظ الحياة وصيانة الجنس من الانحسار ومن الابتذال سواء . وأنعم بها من آداب الشريعة السمحاء .

ثانيا : الزهد الانساني يعني عدم الطمع والأخذ من الدنيا حسب الحاجة حاجة الفرد وحاجة الجماعة وحاجة تعمير الدنيا والاستخلاف في الأرض .

أما الزهد المثالي فيعني احتقار الحياة واجتناب متعها .

والله سبحانه وتعالى يقول « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعبـاده والطيبات من الرزق ... » والرسول ﷺ يقول « ... ان هذا المال حلوة من أخذه بحقه ووضعه في حقه فنعم المعونة هو ... » (رواه الشيخان) .

ولنلق نظرة على آثار كل من الزهدين :

الزهد الانساني	الزهد المثالي
– السعي للكسب مع الجد في السعي يتبعه بـذل في سبيل الله .	– عدم السعي للكسب أو عدم الجد في السعي يتبعه عجز عن البذل في سبيل الله .
« لا حسد إلا في اثنتين : رجل آتاه الله مالا فسلطه على ملكته في الحق .. »	
– الاجمال في الطلب مع الاحتفاظ بالسخاء في البذل .	– الإهمال في الطلب والعجز عن البذل .
« ... فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه » ..	
– الرضا بما قسم الله بعد السعي الجاد مع ضرورة البذل	– الرضا بالعدم دون سعي والعجز عن البذل .
« على كل مسلم صدقة » .قالوا فإن لم يجد قال : « فليعمل بيديه فينفع نفسه ويتصدق » ... قال ابن مسعود : لما أمرنا بالصدقة كنا نتحامل (أي يحمل بعضنا لبعض بالأجرة) والأحاديث جميعها رواها الشيخان .	

ثالثاً : التعبد الانساني يعني لحظات من التعبد بالشعائر مع دوام التعبد بممارسة الحياة ممارسة جادة خيرة تبتغي رضاء الله .

أما التعبد المثالي فيعني التفرغ الكامل – أو شبه الكامل – للشعائر . وانظر قول الرسول للثلاثة الذين تقالوا عبادته : اني لأخشاكم لله وأتقاكم له لكني

أصوم وأفطر وأصلي وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنّتي فليس مني (رواه الشيخان) .

وأحسب أنه يمكننا أن نضيف من باب المماثلة :

« وأقود الجيوش وأسوس الدولة وأقضي بين الناس و ... و ... و ... »

الأسر التاريخي للأخلاق :

ونعرض هنا لمثالين اثنين يوضحان مدى تأثير الصور التطبيقية التاريخية على القيم الخلقية الرفيعة ، حتى لتكبلها بأغلال ثقيلة تعوقها عن توجيه الحياة (المتطورة) وجهة الخير دائماً :

المثال الأول :

التسامح مع أهل الذمة : في ظل ظروف الفتوح وما تلاها كان خلق التسامح يأخذ صورا محدودة ، مثل عدم الاكراه على الدين الجديد ومثل عدم العدوان على ممتلكاتهم وأعراضهم . وهذه الصور لم تمنع :

* التمايز في الزي والسكن .
* عدم استعمالهم في وظائف الدولة .
* الحذر والشك وما يتبعهما من بعض اجراءات التضييق .

كل هذا كان له مسوغاته التاريخية حيث كانت العلاقة الأساسية هي علاقة بين غاز ومغزو .

وعند زوال الظروف الموجبة بدأ الحكام يخففون هذه الضغوط ويستعملونهم في الوظائف الكبيرة ، ويأمنون لهم ولكن ظل فريق من الناس ينكر الصور المستحدثة ويتمسك بالصور التطبيقية القديمة على أنها الوضع الأمثل ، الوضع الشرعي الصحيح وأن المستحدث انما هو ابتداع وخضوع للأهواء .

فإذا بلغنا عصرنا الحاضر وجدنا التسامح قد اكتسب صورا جديدة : مشاركة في التعليم، مشاركة في الجيش، مشاركة في المجالس النيابية، مشاركة في الضرائب، ويظل فريق من المسلمين لا يرى في هذه الصور تسامحا دينيا أصيلا ويحسب أن كل ذلك مخالفة لتعاليم الدين وانهزامية أمام المفاهيم الأوربية الغازية . لماذا ؟ . هل لأن هذه الصور تتنافى مع أخلاق الاسلام الداعية الى التسامح بل الى البر والاقساط لقوله تعالى « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين » . أم لأن هذه الصور تغاير تلك الصور التي طبقها السلف في العهود الأولى ؟

المثال الثاني :

العفة : ارتبطت العفة قديما بقرار المرأة في بيتها فلا تغادره الا للضرورة القصوى ... حتى قيل في وصف المرأة الصالحة أن لها ثلاث خرجات في حياتها كلها مرة من رحم أمها الى الدنيا ومرة من بيت أبيها الى بيت زوجها والثالثة من بيت زوجها الى القبر . إذا أحصينا احتياجات المرأة خارج بيتها نجدها تتصل بالمجالات الآتية : الصلاة — التعليم — التطبيب — زيارة الأقارب والأصدقاء — الترويح والنزهة — شراء الحاجيات من السوق .

— فالصلاة منعت منها المرأة بصورة قاطعة بحجة أمن الفتنة (حتى صلاة العيدين حيث عزم رسول الله على النساء جميعا بالخروج) .

— والتعليم اقتصر على الرجال دون النساء وذلك بتأثير حرمانها من غشيان المسجد وهو مكان التعليم فضلا عن النظر الى التعليم كأمر خاص بالرجال حيث هم الذين يخوضون مجالات الحياة المختلفة وأما القدر الضئيل جدا الذي تحتاجه المرأة من أمور دينها فتتعلمه من أبيها أو ممن يتولى أمرها من الرجال . ولا ننس أنه شاع الحديث الموضوع :

« لا تعلموهن الكتابة » ..

— أما التطبيب الذي يمارسه رجل متخصص فكان محدودا جدا حيث الغالب الأعم هو استعمال الوصفات الشعبية وعند الضرورة يأتي الطبيب الى البيت .

— وأما الزيارات فكانت محدودة أيضاً نتيجة سكن العائلة الكبيرة في بيت واحد أو في حي واحد .. فضلا عن صعوبة المواصلات لزيارة من يسكن بعيدا عن الحي .

— وكذلك الترويح والنزهة كانت محدودة جدا وتنحصر تقريبا في النزهات الحلوية التي كانت تحدث مرة أو مرتين في العام ... مع استمرار انكار العلماء ما في النزهات من تبرج وخلع برقع الحياء مما كان يدعو الصالحين إلى اجتناب النزهات كلية .

— وأخيرا شراء الحاجيات من السوق وهذه كان يقوم بها عـــادة الرجال من الأقارب أو العبيد (والاماء أحيانا) . وكان يتحرج الرجل من أن يظهر في الطريق العام يسير بجوار امرأة سواء كانت زوجته أو ابنته أو أخته فكان يسبقها بخطوات حتى لا يحس أحد بأن تلك المرأة تسير في صحبته . وربما فرض العرف أن تخرج النساء في غبش الليل حتى يكون أستر لهن .

خلاصة الأمر أن عفة المرأة ارتبطت قديما بقرارها في بيتها ... فظلت هذه الصورة عالقة في ذهن المسلم المعاصر رغم أن ظروف الحياة المعاصرة اقتضت تعليم المرأة كما اقتضت أن تعمل المرأة في بعض مجالات الحياة خاصة التطبيب والتمريض والتعليم فضلا عن حاجتها للعلاج والتردد على عيادات الأطباء أو المستشفيات وحاجتها الى الزيارات والى الترويح النظيف وشراء الحاجيات من السوق كل هذا يؤدي الى كثرة خروج المرأة المسلمة من بيتها ...

الا أن المسلم المعاصر نتيجة ارتباط خلق العفة بالصورة التطبيقية التاريخية نراه لا يزال لا ينظر بارتياح الى خروج المرأة ويعتبر ذلك جارحا لعفتها ويتمنى لو تعود الحياة سيرتها القديمة حتى تقر المرأة في بيتها . كما نراه يعتبر ركوب المرأة دراجة أو قيادتها سيارة وإن تزيت بزي سابغ — جارحا لعفتها . ذلك أننا

ورثنا فيما ورثنا ركوب المرأة في هودج . ولم يشفع في كسر هذا الارث — مع الأسف — ما كان عليه النساء على عهد رسول الله ﷺ من ركوب الجمال والخيل والحمير إلى جانب الهودج (أي مواصلات ذلك العصر) . وكان رسول الله يردف أحيانا — زوجه خلفه (من حديث رواه الشيخان) . بل أكثر من ذلك أناخ يوماً راحلته ودعا أسماء بنت أبي بكر زوج الزبير ليحملها خلفه حين رآها تسير مرهقة في الطريق . (من حديث رواه الشيخان) .

أزمات خلقية موروثة [1] :

وسنقتصر هنا على عرض ظاهرتين بارزتين توضحان أثر عصور الانحطاط الطويلة :

الظاهرة الأولى هي تلك النظرة الشوهاء إلى « الصلاح » فالمرء الصالح هو من لا يزني ولا يسرق ولا يشرب الخمر ولا يقامر .... وأصبحنا كأننا في غفلة كاملة عن أخلاق الحياة الفاضلة الراقية .. وكأن الفضيلة والرقي هو مجرد اجتناب تلك المحرمات . وكأن ما وراء تلك المحرمات من أخلاق كالجد واليقظة والنظام والتعاون ، لا تساوي شيئاً ! لماذا ؟ لأنها أمور يمارسها المؤمن والكافر والطائع والفاسق إذن ليست هي الأخلاق التي تميز المؤمن والتي ينبغي أن نحرص عليها ونقيس الرجال بها . والا تساوى الرجال مؤمنهم وكافرهم طائعهم وفاسقهم . بل ربما تقدم الكافرون والفاسقون لاتقانهم ممارسة تلك الأخلاق الدنيوية المادية وقد نردد « يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون » . ونعزي أنفسنا قائلين : إذا كان لهم الدنيا فلنا الآخرة .

إذا رأينا الكفار والفساق قد صلحت دنياهم وتقدموا وفسدت دنيانا وتخلفنا قلنا : إنما تخلفنا وتأخرنا لأننا وقعنا في المعاصي وارتكبنا المحرمات ولا سبيل

---

(١) انظر كتاب مالك بن نبي « وجهة العالم الاسلامي » .

للنهوض والتقدم بغير الرجوع الى الله وحظيرة الدين أي بتجنب المحرمات . السبيل القويم هو إغلاق الحانات ودور السينما والملاهي والقمار ومنع الرقص والغناء عندها سوف ينصرنا الله لأننا نصرنا دينه وأتممنا شرعه ! وكأن دين الله هو هذه الكبائر الثلاث الزنا والخمر والقمار وكأن شرع الله هو تحريم الثلاث الموبقات فحسب وهكذا نظل نفرح بتلك الأخلاق السلبية بل نتلهى بها ونحسب أنفسنا نقاوم الشيطان الوسواس الخناس . وأكثر من ذلك أننا نرفع أقدار الرجال بل نضعهم في رتبة تشبه التقديس . إذا هم زهدوا في هذه الدنيا واعتزلوا الحياة وحفظوا بطونهم وفروجهم من الحرام .

ونزيدهم رفعة إذا نقلوا عنهم أنهم لم يكتفوا بتجنب المحرمات بل ترفعوا عن تسعة أعشار الحلال مخافة الوقوع في الحرام . وهكذا اختلت موازين الأخلاق عندنا فرجحت كفة السلبيات وشالت كفة الايجابيات .

وقد يقول قائل : أنت تهون من أمر هذه المحرمات وأرد عليه : إنما أشنع من أمر الغفلة عن دين الله وأفضح من يكاد يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض ودين الله كل لا يتجزأ . فالله الذي أنزل في كتابه : « انما الخمر والميسر » ... هو الذي أنزل

« وقل اعملوا » ...

« المؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف » ...

« ان الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا ... »

« وأمرهم شورى بينهم » ...

« لايجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى » ...

ورسول الله الذي قال في سنته : العين تزني .... الخمر أم الكبائر هو الذي قال : لا يكن أحدكم إمعة ... ان الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه .. سيد الشهداء حمزة ....

إن الالتفات الى النواهي دون الأوامر ، قد يسوغه أن النواهي محرمات

وعقوبتها شديدة والعذاب يرد دائما للعاصين والمفهوم المتبادر للمعصية هو ارتكاب المحرمات . كما يسوغه النظرة الشائعة للدين على أنه مجموعة قيود ومجموعة محرمات . أي أن مهمة الدين هي التحريم ليكف الناس عن الانطلاق والانفلات والتجاوز .

القرآن يقرر « قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ... » والحديث النبوي الشريف « ألا إن لكل ملك حمى وإن حمى الله في أرضه محارمه ... » رواه البخاري ، فكأنما جاء الدين ليحمي هذا الحمى أي ليقرر ويرسخ خطر هذه المحارم كما يقرر أن من ترك المحارم فقد نجا .

وهذه النظرة الشائعة هي نظرة ساذجة للمحارم وهي أيضاً نظرة منحرفة . فالنظرة الصحيحة العميقة تكشف أن كل أمر أمرنا به وقصرنا فيه أو تخلينا عنه سنحاسب عليه ، أي يصبح التقصير أو التخلي التام عن هذا الفعل الصالح من المحرمات . على أن الدين حين يقرر ويرسخ هذه المحارم « الزنى والخمر والميسر » انما يقرر الحد الأدنى من الاستقامة الفردية كما يقرر ضوابط أولية لاستقامة الحياة . وطبعا بناء الأمم له وسائل غير مجرد استقامة الأفراد على الحد الأدنى كما أن عامل بناء الأمم غير مجرد الضوابط الأولية .

وإذا تأملنا قول رسول الله ﷺ « إذا نهيتكم عن أمر فانتهوا — أي أمرا قاطعا هو الامتناع والكل تقريبا يستطيع الامتناع . ثم إذا تأملنا قوله « وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم » أي حسب القدرة والقدرات تتفاوت من أقصى درجات القوة إلى أقصى درجات الضعف .

هنا مجال الخيار ومجال الترقي . وحديث الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإنه لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الايمان » يعذر الانسان الضعيف إذا ركن الى الضعف ويصفه بضعف الإيمان. لكن أن يصبح الضعف سمتا عاماللأمة، أي أن تعيش على أضعف الايمان فهذا يعني أضعف الأمم ، أي في حالة من الجمود والتأخر والانحطاط . .

وهكذا نرى كيف يحدث الانحراف في الدين وفي غير الدين نتيجة عدم شمول النظرة ورؤية الصورة من جميع جوانبها . إنه ينبغي أن نأخذ الدين ككل بجميع جوانبه وجميع أوامره ونواهيه أما أخذ النواهي دون الأوامر فيؤدي الى اختلال في كيان الانسان فضلا عن اختلال كيان الأمة .

الظاهرة الثانية في الأخلاق الموروثة عن عصور الانحطاط هي شيوع خلق السلبية والفردية . ذلك أن التصوف المنحرف (ونعني به الإغراق في جانب من العبادة — تصورا وكيفا وكما — بعيدا عن النهج الاسلامي الأصيل الذي كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه) قد نشأ وترعرع بتأثير رد الفعل لمجتمع مترف كثرت فيه صور الفساد من ناحية ، وبتأثير الاحتكاك بفلسفات متطرفة غريبة عن الاسلام من ناحية ثانية . هذا التصوف المنحرف كون مدرسة متميزة بخصائص شتى . وقد أسرفت هذه المدرسة في الحض على الالتفات الى النفس والعبادة والذكر والزهد في الدنيا ، كما أسرفت في تصوير الاستبداد والظلم والاستغلال على أنه مجرد بلاء من الله جزاء فساد الجماهير وبعدها عن الدين . وأن العلاج الناجح هو تزكية النفس والعودة الى الله . وقد أفرزت هذه المدرسة ثلاث فئات في المجتمع المسلم :

(أ) — فئة قليلة طلقت الدنيا كلها وهربت من الدنيا كلها ودخلت جحورا ضيقة أسموها خوانق وربط وتكايا . وكان وراء هذا الهروب إما زهد أخرق زينه التصور الخاطىء والوهم الباطل ، واما زهد كاذب فرضه العجز لا العزم ، وإما زهد منافق طامع في الباطن وزاهد في الظاهر . وقد حملت هذه الفئة القليلة خصائص المدرسة الخلقية والعقلية في أوضح صورها وأشدها حدة سواء في تحكيم الهوى أو الوجد أو الذوق مع أقل قدر من العقل أو بدون عقل أو في هوس الكشف (أي كشف حجب الغيب) والإتيان بالكرامات (أي الخارقة لسنن الله وما اعتاده الناس) أو في الانصياع والاستسلام الكامل للشيخ حيث المريد بين يدي شيخه كالميت بين يدي مغسله .

(ب) — فئة كبيرة شملت معظم الناس اعتقدت أن الزهد هو الكمال وهو المثل الأعلى . إنها اعتقدت في الزهد وعجزت عن ممارسته فظلت تشعر بالنقيصة لعجزها عن بلوغ الكمال ، لم تطلق الدنيا ولم تهرب الى التكايا ولكنها مارست الحياة وهي تحمل لا شعوريا احتقارا للحياة . أي أنها لم تمارس الحياة كأكمل ما تكون الحياة وأجمل ما تكون الحياة ، ممارسة تعمير شامل وابداع كامل ، كما أراد الله حيث قال : « واستعمركم فيها » ... مارست الحياة على استحياء . والاستحياء لم ينف الطمع ولكنه نفى الابداع في جميع المجالات . ثم هربت هذه الفئة من جهاد المجتمع الى شيء قليل من جهاد النفس ، وشيء كبير من الانكفاء على الحياة الخاصة من أهل وأولاد ومال ، وتعايشت مع أوضاع المجتمع بما فيه من استبداد واستغلال وفساد ، دونما كلمة اعتراض أو انكار ، ودونما جهد جاد في الاصلاح .

وإذا كانت الفئة الأولى قد حملت خصائص تلك المدرسة المنحرفة في أوضح صورها وأشدها حدة ، فلم تعدم الفئة الثانية من رشحات تلك الخصائص سواء في الرفع من شأن القلب مقابل التهوين من شأن العقل (والمؤمن دليله قلبه لا عقله) أو في الاعتقاد بالكرامات بصورة مسرفة أو في اللجوء إلى الأولياء سواء في حياتهم أو بعد مماتهم مع الاستعداد العام لتقبل الخرافات عن دور الجن والعفاريت والخضوع للمشعوذين والدجالين ...

(ج) — فئة قليلة خدعت نفسها أو خدعت الناس ببعض أوراد الذكر وصحبة الشيخ . ومالأت أصحاب السلطان والمستبدين الظالمين المستغلين . وكانت أبواق دعاية لهم بين تسويغ لأعمالهم الفاضحة وبين ترويج وتضخيم لأعمال جزئية ظاهرها صالح خير كبناء مسجد .

وهكذا تركت الصوفية المنحرفة بصماتها واضحة على عامة الناس وكل الطبقات تقريباً ومن لم يتتلمذ على شيوخها فقد صاحب تلاميذهم (في الأسرة أو في العمل أو في الجوار ...) وكان تلاميذهم من جميع الطبقات : العلماء ،

وطلبة العلم . والحكام . وحاشية الحكام . والتجار . والصناع والفلاحون ... وكان السمت العام الذي حمله عامة الناس هو السلبية ازاء الحياة بدرجات متفاوتة . والسلبية الكاملة ازاء ما يدور في المجتمع ولا بأس بأقدار من النفاق إذا لم تكف السلبية في توفير السلامة والعافية .

قد يقال إن الإنسان في عامة الأحوال ضعيف وقابل للخضوع لحاجاته والعيش في حدود أسرته ، ولا يحتاج الى معلم في هذا المجال . قد يكون هذا صحيحا ولكن الأمر الخطر هنا هو إضفاء صبغة دينية على هذا الضعف ، أي تسويغه بمفاهيم الدين بدلا من أن يكون الدين عاملا في السمو بالانسان فيحمل لواء التغيير والاصلاح للمجتمع ، وليقول « لا » بكل فيه ، ويموت شهيداً في سبيل الله . كان ذلك دور الصوفية المنحرفة حتى كاد يموت ضمير الانسان الاجتماعي بل ضمير الأمة كلها . كادت الأمة تعيش عيش السائمة لا يهمها غير المرعى ولو كان أحط مرعى .

ويقول مالك بن نبي في كتابه وجهة العالم الاسلامي ص ٣٢ :

« .... حين يصبح الإيمان إيمانا جذبيا دون إشعاع ، أعني نزعة فردية ، فإن رسالته التاريخية تنتهي على الأرض ، إذ يصبح عاجزا عن دفع الحضارة وتحريكها ، إنه يصبح إيمان رهبان يقطعون صلاتهم بالحياة ويتخلون عن واجباتهم ومسئولياتهم كأولئك الذين لجأوا الى صوامع المرابطين منذ عهد ابن خلدون » .

وهكذا غلبت السلبية على الانسان المسلم المعاصر مشفوعة بأقدار من النفاق تزيد وتنقص . فإذا كان محيط المسلم المعاصر متزمتا متشددا مغلقا سايره دونما اقتناع أحيانا ، وربما لم يكتف بالمسايرة بل دافع ونافق . وإذا كان محيط المسلم المعاصر قد قطع شوطا في التقليد الأعمى للغرب سايره أيضا دونما اقتناع أحيانا ، وربما لم يكتف بالمسايرة بل دافع ونافق . يغلب على المسلم المسايرة وعدم الاعتراض حتى لو رأى ما يستحق الاعتراض وذلك نتيجة التحذير الموروث للإيجابية النشطة . وليست السلبية قاصرة على مجال السلوك بل تمتد إلى

التفكير والنظر والبحث . فقليلا ما يعمل الفرد عقله ويكد ذهنه في دراسة مشكلة ما وتتبع قضية من القضايا .

إذن هناك إرث طويل المدى في مجال الزهد والاحتقار (الخفي) للحياة وفي مجال ضعف اليقظة العقلية وفي مجال ضعف المروءة والشجاعة الأدبية، إرث يحمل المسحة الدينية **(ظلما وبغيا على الدين)** .

التجمعات الاسلامية المعاصرة وأزماتها الخلقية :

كلمة تمهيدية :

تردد الأمر طويلا بيني وبين السيد رئيس التحرير عندما عرضت عليه هذا الموضوع ، ذلك أن هناك دوافع تلح علي تدعوني للكتابة وأخرى تصد عنها . يدعوني للكتابة اني واحد ممن عاش عمره منذ عقل متنقلا بين أحضان بعض تلك الجماعات ، وعلى درجات متفاوتة من الصلة ببعضها الآخر ، وله أصدقاء حميمون ممن ينتسبون اليها . فواجب الوفاء والصدق مع رفاق الجهاد الطويل يقتضي أن أنصح لهم قبل النصح لغيرهم .. فضلا عن ذلك هو نوع من ممارسة النقد الذاتي لأني عشت هذه التجارب بين صفوف تلك الجماعات ووقعت في بعض الأخطاء منها الكبير ومنها الصغير .. لذلك كله أراني مدعوا لنصرتها تلك النصرة التي أمر بها رسول الله ﷺ حين قال « انصر أخاك ظالما أو مظلوما قيل يا رسول الله كيف ننصره إن كان ظالما قال أن ترده عن الظلم فذلك نصره » .

إن النصح عادة مرّ المذاق ولكن هو الدواء لا بد من تناوله رغم مرارته . إنما قد يخفف من ذلك أن الذي يقدمه صديق يريد الخير كل الخير لجماعات نذرت نفسها للاصلاح .

ومما يدعوني أيضا للكتابة ذاك الدور العظيم الذي تقوم به تلك الجماعات في

المجتمعات المسلمة المعاصرة فهي — رغم نقاط الضعف التي أسوقها في هذا المقال — تقوم بحمل لواء عزيز على كل مسلم غيور ، لواء الإصلاح والتغيير على أساس من الاسلام الحنيف .

أما ما يصد عن الكتابة في هذا الموضوع فهي عدة مخاوف . أولها أن يحملها البعض محمل التشهير والتجريح لتلك الجماعات. ثانيها أن يستغلها بعض الخصوم في النيل والكيد لتلك الجماعات . ثالثها أن بعض الجماعات الاسلامية تلقى العنت والتضييق في كثير من الأقطار وقد تجد في مثل هذه الكتابة نوعا من الطعن من صديق وهي في محنتها تنتظر منه المواساة والعون .

وخلال مناقشة تلك المخاوف اوضحت الآتي :

إن مخافة أن يحمل الكلام محمل التشهير أرجو أن تتلاشى إذا استحضر رفاق الجهاد أن النصح واجب شرعي وأن لا سبيل الى هذا النصح بغير الكتابة لأن الجماعات الإسلامية القائمة تمتد عبر العالم العربي كله . فضلا عن أن أمتنا تمتد من المحيط الى المحيط وفي كل يوم تنبعث جماعة من المسلمين راغبة في الاصلاح بصورة من الصور ... وقد تتبع جماعة في ماليزيا نهج أو بعض نهج جماعة في سوريا مثلا .

أما أن يستغل الخصوم ما أكتب للنيل والكيد ، فهذا بعيد أيضا إذ أنا لم أكشف أمرا دفينا في أعماق تلك الجماعات ، إنما هي مظاهر عامة يمكن أن يلحظها كثيرون بل إن بعضها ليعلو على السطح لدرجة صارخة ..

بقي موضوع العنت والاضطهاد الذي تلاقيه بعض الجماعات وهي تنتظر المواساة لا الطعن من صديق ، والحقيقة أننا يجب أن ننتبه لمعنى دقيق في هذا الموضوع وهو أن الجماعات الاسلامية وقد تصدت للعمل العام وأصبح لها تلك الشخصية المعنوية لم يعد أمر مواساتها يعني السكوت عن النقد الذاتي . فالنقد الذاتي حياة للجماعات وتجديد للحياة . خاصة وقد طال أمد التضييق والاضطهاد ولم يعد فترة محدودة يمكن أن يعمل لها حساب خاص وأن تراعى رعاية خاصة .

ثم ينبغي التفريق بين أسلوب مواساة الأفراد المضطهدين وبين أسلوب مواساة الجماعات حاملة اللواء . فالجماعات يمكن أن يكون من مواساتها التعرض لها بالنقد وتوجيه النصح مع تقرير الدور الخطير الذي تقوم به ، لأن ذلك يعني أنها لا تزال أمرا ذا شأن من الطبيعي أن يكون موضع اهتمام وحديث وحوار على صفحات المجلات .

وأخيرا ورد تساؤل : أما كان الأحرى إن كان ولا بد من النقد أن تذكر الايجابيات كما تذكر السلبيات ؟ وكان الجواب أن هذا صحيح تماما لولا أن الموضوع الأساسي للمقال هو أزمة الخلق المسلم المعاصر أي هو محاولة استعراض بعض صور خلقية سلبية أملا في الخلاص والعافية . ومن هنا يستحيل الحديث عن إيجابيات الجماعات أو غير الجماعات فلهذا مجال آخر . كما يستحيل تجنب الحديث عن الأزمات الخلقية عند الجماعات وهي عنصر أساسي في اطار أزمة الخلق المسلم المعاصر .

والآن ندخل في الموضوع :

نعرض هنا بعض أمراض خلقية ظهرت مع ظهور التجمعات الاسلامية المعاصرة وهذا لا ينفي أن لهذه التجمعات فضائل كثيرة وأن لها آثارا صالحة في المجتمع . ونحن إذا أردنا أن نقيم تلك الجماعات — في انصاف — فينبغي أن يكون هذا التقييم أولا بمنظور الفترة التي نشأت فيها تلك الجماعات ، وثانيا بمنظور الفترة التي تعيشها اليوم . ولكن لما كنا الآن بصدد استعراض بعض ظواهر مرضية تبدو على سطح تلك الجماعات في أيامنا هذه فنكتفي بالتأكيد على أن الجماعات الاسلامية قد حملت لواء الاصلاح في ظروف صعبة بل وسط (بحيرة آسنة تماما) واجتهدت كل جماعة في اصلاح جانب معين نذرت نفسها له معتقدة أنه مدخل الاصلاح العام .

وإني إذ أعي ذاك الدور الخطير الذي حملته تلك الجماعات — أيام نشأتها بصفة خاصة — أكن لها كل تقدير وإعزاز وانطلاقا من هذا التقدير والإعزاز

أقدم لها النصح خالصا آملا في مزيد من الرشد والسداد وتجنب العثرات وكل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون . ومن يعمل مجتهداً يخطىء ويصيب وقد يثاب في الحالين . ومن لا يعمل مخطىء غير مصيب وقد يأثم أبدا .

هذا والعمل الجماعي على أية حال من واجبات الدين حيث يأمر بالتعاون على البر والتقوى . ومن أساليب العصر حيث امتدت الجماعية إلى كل مجالات الحياة العلمية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية ....

وينبغي ملاحظة أن الأعراض المرضية التي سنتناولهاقد تظهر في جماعة دون أخرى وقد تتفاوت درجة ظهورها . كما أن بعض هذه الأمراض قد ينتشر بين فريق من الأعضاء وتنكره القيادة لكنه قائم على كل حال . أي أننا هنا نعالج ظواهر عامة أما الدراسة التي تتناول بالتحليل والنقد جماعة بذاتها فلها مجال آخــــر .

أولا : الغلو والتطرف : وله عدة مظاهر :

(أ) — تضخيم جانب من جوانب الاسلام حتى يصبح محور كل شيء ، قد يكون هذا الجانب هو تصحيح العقيدة (حول الذات والصفات) أو العبادة أو بعض جوانب السلوك أو هو المفاهيم أو هو السياسة أو اللامذهبية أو المذهبيــــة .

(ب) — مفاهيم الجماعة قد تصبح آلة حادة قاطعة وقوالب صارمة يقاس بها الناس كل الناس والأحداث كل الأحداث ، بدلاً من أن تكون مؤشرات ، ووسائل تعين على الفهم ، وبدلا من أن تكون اجتهادات قابلة للمناقشة قابلة لإعادة النظر والتنقيح والتطوير لتواجه الواقع المتغير . ثم إن الفرد يحسب أن مفاهيم الجماعة قد استوعبت كل شيء ، وبهضمه تلك المفاهيم أصبح في غنى كامل عن كل ما عداها ، وكأن الجماعة وحدها اكتشفت أسرار الماضي والحاضر والمستقبل . وهي وحدها تملك « وصفات مدهشة » تستطيع بفضلها حل

جميع مشكلات العالم . وهذه « الوصفات » لا تقبل المناقشة . ومن هذا المنطلق يضفي الفرد العصمة أو ما يشبه العصمة على قيادة الجماعة كما يضفي الكمال أو ما يشبه الكمال على تصرفات الجماعة ومواقف الجماعة . ثم مزيداً من العصمة والتقديس للقادة إذا تعرضوا لنوع من الاضطهاد والتعذيب .

(ج) — وأحيانا يكون التطرف بتقسيم العالم الى معسكرين اثنين لا ثالث لهما . معسكر المؤمنين ويعني الجماعة التي ينضوي الفرد تحت لوائها . ومعسكر الضالين أو الجاهليين ويعني بقية العالم . وقد يترتب على هذا التطرف في تقسيم العالم انخلاع أفراد الجماعة المتطرفين عن العالم الجاهلي ، عالم اليوم بواقعه وقضاياه ومشكلاته ، والتحليق بهم في عالم الأحلام ، في الوهم الكبير ، المجتمع المنتظر . ومن ثم يصبح الأفراد في عزلة أو شبه عزلة عن الناس والأحداث .

كما قد يترتب على هذا التقسيم ما يمكن أن نسميه **«التطبيق الحزبي للأخلاق»** **ونقصد** به تقليص ميدان عمل الأخلاق الاسلامية مثل « أذلة على المؤمنين » « رحماء بينهم » « وبالوالدين إحسانا » « واخفض جناحك للمؤمنين » .. « من فرّج عن مؤمن كربة » . « ما زال جبريل يوصيني بالجار » . كل هذه الأخلاق التي أمر بها الاسلام كدستور حياة بين المسلمين كل المسلمين (وجل هذه الفضائل يشمل الناس عامة) قد تصبح لدى بعض أفراد التجمعات المعاصرة قاصرة على محيط الجماعة الخاصة أو التجمع المحدود . أما عامة المسلمين فكأنهم قد أصبحوا خارج دائرة الاسلام وأخوة الاسلام ، فحجبت عنهم أخلاق الأخوة والمحبة والتعاون والنصرة . بل وربما حجبت عنهم أيضا أخلاق الصدق والأمانة والوفاء وبهذا قد يسقط بعض الأفراد دون شعور في أخلاق اليهود حيث قالوا « ليس علينا في الأميين سبيل » .

وكما أنه يقع أحيانا تطبيق حزبي للأخلاق فقد يقع أحياناً أخرى نوع من **« التقدير الحزبي للأخلاق »** ... فلا قيمة لخلق حسن ولا تقدير لعمل كريم ما لم يحمل لافتة « الاسلام » أو « الاسلامي » ولا قيمة لرجل فاضل ولا تقدير

لانسان كريم ما لم يحمل شارة التجمع الاسلامي العتيد . أي أنه لا يوزن الناس ولا توزن الأعمال بمقدار ما تحققه من خير ، وانما بمقدار ارتباطها بالحزب أو بشعارات الحزب .

(د) — وأخيراً يرد تساؤل خطير !؟ فبعد استعراض هذه الصور من الغلو والتطرف التي تصيب بعض الجماعات الاسلامية المعاصرة أو بعض أفرادها ، هل يمكن أن يذكرنا ذلك بالخوارج ؟ كان عند الخوارج محامد من الأخلاق كثيرة كالشجاعة الأدبية والحربية والصبر والثبات والصدق . ولكن غياب بعض الأخلاق ذهب بالأخضر واليابس وأهلك الحرث والنسل كما يقولون . بل إن فقدان خلق واحد وهو ما يمكن أن نسميه **« الرفق في أخذ الأمور »** أو **« الورع في أمر الدماء »** ، أو **« الاعتدال في الحكم على الناس »** ، ان فقدان هذا الخلق الواحد جرّ مفاسد ملأت الأرض يوماً . وقد ساعد على انحراف الخوارج ما كانوا عليه من اجتهاد في العبادة من صلاة وصيام وقيام ، فاغتروا وتصوروا أنفسهم سيف الله المسلط على الشر والفساد في هذه الدنيا . وقد جاء في حديث أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ : « يخرج فيكم قوم تحقرون صلاتكم مع صلاتهم وصيامكم مع صيامهم وعملكم مع عملهم ، ويقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ..... آيتهم رجل أسود ... قال أبو سعيد : فأشهد أني سمعت هذا الحديث من رسول الله ﷺ وأشهد أن علي بن أبي طالب قاتلهم وأنا معه ، فأمر بذلك الرجل فالتمس فأتي به حتى نظرت إليه على نعت النبي الذي نعته » . (رواه الشيخان) .

كما جاء في حديث علي بن أبي طالب : اذا حدثتكم عن رسول الله فلأن أخر من السماء أحب إلي من أن أكذب عليه وإذا حدثتكم فيما بيني وبينكم فإن الحرب خدعة . سمعت رسول الله ﷺ يقول : يأتي في آخر الزمان قوم حدثاء الأسنان سفهاء الأحلام يقولون من قول خير البرية يمرقون من الاسلام كما يمرق السهم من الرمية لا يجاوز إيمانهم حناجرهم .... (رواه الشيخان) .

ولكي يتضح جدوى التساؤل الخطير ينبغي التنبه إلى أن الذي انحرف بالخوارج – ذاك الانحراف المحزن أيام خلافة علي بن أبي طالب – هو حملهم السيف ، بينما بعض الجماعات المعاصرة – أو بعض عناصرها على وجه الدقة – والتي تحمل شيئاً من فكر الخوارج وشيئاً من أخلاقهم لم تحمل السيف بعد . لم تحمله بالفعل – اللهم في حالات نادرة أو شاذة أو فردية – لكنها تحمله «بالقوة» كما يقول المناطقة أي عندها الاستعداد والرغبة ولكنها تنتظر الفرصة .

ثانياً : بين المظهر والجوهر :

يحدث أحيانا عند بعض الجماعات أن توجه العناية للمظهر أكثر من الجوهر ومع تقديرنا لأهمية كثير من المظاهر ولضرورة العناية بها ومع ايماننا بالتفاعل والتكامل بين المظهر والجوهر الا أنه ينبغي أن يظل الجوهر في محله الأرفع ويظل تبعاً لذلك موضع الاهتمام الأول . ولنضرب لذلك بعض الأمثلة .

جماعة تعنى بالعبادة فتراها تولي كثيرا من اهتمامها لمظاهر العبادة من طول الركوع والسجود وبساطة المسجد فضلا عن بعض مظاهر أخرى مثل اللحية .. لذا نجد بعض أفراد تلك الجماعة يحافظون على تلك المظاهر ويدور معظم حديثهم حولها ويفاصلون الناس عليها ... بينما جوهر العبادة من خشوع لله وما يثمره هذا الخشوع من تقوى لله في السر والعلن ، تقوى تجعل سلوك الفرد مثال الصدق والأمانة والرفق والأناة والمروءة والاحسان ، هذا الجوهر وآثاره الطيبة لماذا لا يكون هو المميز الأساسي في شخصية هؤلاء الأفراد ؟

جماعة أخرى تعنى بالعقيدة فتراها تركز معظم جهودها حول تصحيح التصورات النظرية والتعابير الدارجة على ألسنة الناس مع اهتمام أقل بتوجيه الأفراد الى جوهر العقيدة ولب التوحيد وهو الايمان الذي يعمر القلب فيكسبه السكينة مع التقوى ويثمر عمل الصالحات في كل المجالات . لذلك لا يمكن أن تميز بعض أفراد تلك الجماعة حين تخالطهم بوضوح هذا الجوهر وثمراته

الصالحة . إنما تميزهم بدقة التعبير وضبط التصورات .

جماعة ثالثة تعنى بالمرأة . فبماذا تعنى ؟ لا شيء تقريبا غير الزي والاختلاط (وهي تغلو في تصور الاختلاط المحظور بعيداً عن هدى الشارع الحكيم) . ويشاركها في هذا جماعات أخرى تدعو الى الاصلاح في جميع المجالات لكنها إذا دعت الى الاصلاح في مجال المرأة وقفت عند حدود الزي والاختلاط لا تكاد تتعداهما الى جوهر العفة والى جوهر واجبات المرأة وحقوقها كشخصية لها دورها في المجتمع . إن جوهر العفة هو ضبط الاستمتاع الجنسي في حدود الزواج أي التعفف قدر الطاقة عن النظرة الحرام واللمسة الحرام والخاطر الحرام . ولا شك ان الحرص على الزي السابغ وتجنب الاختلاط العابث من المعينات على تحقيق العفة وبدونهما تجرح العفة ، وقد أوجبهما الشارع الحكيم ، ولكن السبيل لأن تأخذ هذه المظاهر الصالحة طريقها الى عقول وقلوب الرجال والنساء ليس هو مجرد التنديد بالاختلاط والابتذال والتفسخ والعري . انما هو توجيه الجهود الى الأفكار والنظريات التي تثمر هذه المظاهر الفاضحة .... نفندها ونقدم البديل عنها أي نقدم فكرة مقابل فكرة وعقيدة مقابل عقيدة فإذا استقامت عقيدتهم (رجالا ونساء) استقام سلوكهم ، واذا خالطت بشاشة الايمان قلوبهم أذعنوا لأوامر الله وصلوا وصاموا خاشعين له وكفوا عن الاختلاط المشين والزي الفاضح .

جماعة رابعة تعنى بنشر الوعي الاسلامي والمفاهيم الاسلامية لكنها تركز جهودها على نشر مفاهيم نظرية وتمكين أفرادها من الجدال الحاد حول تلك المفاهيم . أما سلوك أفرادها من عبادة وأخلاق فهذا تتركه لجهودهم الشخصية ، حتى لينتج عن ذلك أن تجد بعض أفرادها يقضون الساعات الطويلة في بث الوعي بين مجموعة من الشباب أو في جدال عنيف حول المفاهيم ، وقد يفوته خلال ذلك فرض صلاة أو فرضين دون مبالاة وذلك نتيجة للاعتناء الشديد بالمظهر مظهر الوعي دون جوهره فالوعي الصحيح بالاسلام يقتضي مع الفهم الممارسة الحياتية .

ثالثاً : بين الاستقلالية الايجابية وبين « الإمعية » :

ونقصد « بالأمعية » ما عبر عنه الحديث الشريف « لا تكونوا إمعة ، تقولون إن أحسن الناس أحسنّا وإن ظلموا ظلمنا ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا فلا تظلموا » .

(رواه الترمذي وقال حسن غريب)

إن بعض التجمعات تقع أحياناً في خطأ جسيم إذ تنزع الفرد من المجتمع الكبير حيث يسود خلق « الإمعية » أو حيث يسود « الامعات » لا لتحرره تحريرا كاملا من هذا الخلق المشين وتجعل منه انسانا مستقل الإرادة له شخصيته المبدعة . إنما هي تحرره تحريرا جزئيا فحسب .

إن الجماعة تنجح في إثارة الفرد على الأوضاع الفاسدة في المجتمع الكبير وتجعله متمردا عليها آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر داعية الى الخير . وفي نفس الوقت تضيق على حريته وارادته وشخصيته داخل الجماعة ، وكأنه لا حق له في النقد الذاتي أي لا يمارس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر داخل الجماعة كما يمارسها خارجها . وقد تساعد صور التنظيم والتربية على أن يكون الفرد مستسلما سهل الانقياد فيما يتعلق بأمور الجماعة . وهكذا يكاد يصبح الفرد مع « الإمعات » داخل الجماعة ومع المتمردين خارجها . وهكذا لا تخرج الجماعة في هذه الحالة دعاة مؤمنين إنما تخرج حزبيين نشيطين . لا تخرج لنا الشخصية التي تملك ايجابية ذاتية إنما تملك ايجابية موجهة من الخارج موجهة بقوة ديناميكية الحركة ونشاطها وقيادتها ... فإذا تعرضت هذه القوة للضعف أو للزوال — لأي سبب عارض — ضعفت تبعاً لذلك أو زالت ايجابية الفرد وعاد سلبيا ، معنى ذلك أن ايجابية الفرد الحزبي ايجابية موجهة مكانا (أو مجالا) إلى خارج الجماعة أو الحزب وموجهة زمانا بفترة ارتباط الفرد بالحزب وموجهة من حيث الدرجة بمستوى نشاط الحزب .

وإذا حدث (وهو أمر نادر الحدوث نتيجة التربية والممارسة الطويلة) أن

توقف الفرد يعيد النظر في أمر من أمور الجماعة إما بسبب توقد ذهن أو نفس أبية أو إثارة خارجية قوية . إذا حدث ذلك سرعان ما يشعر الفرد بسطوة الجماعة (أو الحزب) التي تفرض الاستسلام المطلق . ولا تقبل بحال مجرد الجدال حول مفهوم من مفاهيم الحزب أو حول أحد قادة الحزب لأن ذلك يعني الانكار « للحقائق الثابتة » أو الاعتراض على « المسلمات الراسخة » ومن تجرأ على ذلك فهو الانشقاق والخروج والعصيان . وما أقسى الشعور بالخروج والعصيان . وإذا تغلب العقل بمنطقه والنفس بكرامتها وواصل الفرد النظر والبحث المستقل وأعلن اعتراضه ... كان مصيره الطرد من جنة الحزب ، والعزلة عن أصدقائه ورفاقه الحميمين . والأدهى من ذلك هو دمغ خلاف الرأي بأبشع الصفات النفسية وعدم الاكتفاء بوضعه في إطار « الخلاف الفكري » إنما هو انهزامية وجبن ، وتردد وضعف عن مواصلة الجهاد ، ورغبة في السيطرة ، وقد تصل التهم أحيانا الى العمالة والخيانة .

ملاحظتان :

الملاحظة الأولى :

ينبغي أن نسجل في نهاية هذا العرض حرص جماعة اسلامية كبيرة في باكستان على النجاة من ظاهرتين خطيرتين أولاهما ظاهرة « الإمعية » حيث لا يكتفى بأن يكون النقد الذاتي روحا سارية في الجماعة بل يوضع له من النظم ويخصص له من الوقت ما يجعله من صلب النظام العام فهناك اجتماع شهري إجباري للأركان (أي الأعضاء الأساسيين) ، خاص للنقد الذاتي. هذا فضلا عن ممارسة الشورى على نطاق واسع . الظاهرة الثانية التي حرصت الجماعة على الخلاص منها هي ظاهرة حمل السلاح (سواء بالقوة أو بالفعل) ولذلك نقلوا عن زعمائها قولهم « لقد وجهت الى الجماعة طائفة كبيرة من الاتهامات الا أنه لم يوجه اليها تهمة احراز الأسلحة أو استخدام القوة لقلب نظام الحكم . وذلك

لأن الجماعة تجنبت تجنبا كليا كل ما يتصل بالسلاح والعنف على مدى تاريخها الطويل .

الملاحظة الثانية :

إن هناك أمراً يثير الانتباه في موضوع الجماعات وهو أن معظم الأمراض التي تعرضنا لها يمكن أن نلمحها – وبوضوح شديد – عند الأحزاب العقائدية غير الاسلامية ، وهذا مما يقتضي الاستعانة بدراسات علم الاجتماع في هذا المجـال .

تراث الفكر الإسلامي
في النظم السياسية والإدارية
قطعة من التاريخ

فتحي عثمان *

في السنوات الأخيرة ظهرت بأقلام الباحثين المسلمين دراسات مفصلة عن **(النظم الاسلامية)** في مجموعها ، أو عن جانب معين منها ... وكان منها مانحا منحى **(تاريخيا)** في البحث مثل كتاب الدكتورين حسن ابراهيم وعلي ابراهيم (النظم الاسلامية) وكتاب الدكتور عبد العزيز الدوري (النظم الاسلامية)، ومنها ما نحا منحى **(فقهيا)** أو منحى يجمع بين الفقه والتاريخ مثل كتاب الدكتور صبحي الصالح (النظم الاسلامية) . . .

وقد كان من الدراسات المفصلة المتخصصة في جانب معين من النظم الاسلامية كتابا للدكتور ابراهيم فؤاد أحمد علي عنوانه (الموارد المالية في الاسلام) وقد جرت دراسته بمعهد الدراسات الاسلامية بالقاهرة في العام ١٩٦٨ ، ١٩٦٩ ، ويبدو أن تقرير هذه الدراسة كان من آثار إشراف الأستاذ

(*) استاذ الفكر الاسلامي بجامعة برنستون . الولايات المتحدة الاميركية .

الدكتور عبدالله العربي رحمه الله على المعهد المذكور ، كما يبدو أن مؤلف الكتاب من المتأثرين بالأستاذ الدكتور ، وكان رحمه الله من الأساتذة الرواد الذين اضطلعوا بتدريس (المالية العامة والتشريع المالي) في كلية الحقوق بجامعة القاهرة ، وقد تميز بنزعة إسلامية برزت في كتاباته المتأخرة بوجه خاص ، ومنها بحث عن (الربا) قدمه الى مجمع البحوث الاسلامية بالأزهر . ثم ظهر بعد ذلك من الدراسات المفصلة المتخصصة في جانب النظام السياسي من النظم الاسلامية ، كتاب للدكتور (صلاح الدين دبوس) عنوانه (الخليفة : توليته وعزله . اسهام في النظرية الدستورية الاسلامية . دراسة مقارنة بالنظم الدستورية الغربية) . وليس مدوّنا عليه تاريخ نشره وقد يكون ظهر حوالي سنة ١٩٧٢ ، وقد يكون الكتاب الرسالة العلمية التي نال بها المؤلف درجة الدكتوراه في القانون من جامعة الاسكندرية . فلقد أخذت الجامعات المصرية تتجه اتجاها محمودا الى دراسات في الشريعة الاسلامية تتخذ المنهج المقارن بالفكر القانوني الغربي الحديث في المجالات المتعددة للقانون العام والقانون الخاص . وتقدم لنيل درجة الدكتوراه ويشرف عليها المتخصصون في مختلف فروع القانون ، بعد أن كانت الدراسات التي تتناول الشريعة من قبل في رسائل الدكتوراه محصورة في نطاق فروع الشريعة التي تدرس في كليات الحقوق المصرية بمرحلة الليسانس وتتناول في غالبها الأحوال الشخصية والمعاملات ، وكان يشرف على هذه الرسائل أساتذة الشريعة الاسلامية ... ويزكي هذا الاتجاه (الشمولي) العام في دراسة الشريعة الاسلامية بمختلف مجالاتها ، أساتذة للقانون نزعوا هذا المنزع ، واهتموا بدراسة الشريعة في نطاق تخصصهم القانوني بعد فترة من حياتهم العلمية ليست بالقصيرة ... ومثلما برز في هذه الوجهة في مجال القانون المدني الأستاذ الدكتور عبد الرزاق السنهوري رحمه الله ، وآخرون منهم من لا يدين بالاسلام مثل الدكتورين شفيق شحاته ووديع فرج ، شرع يبرز في مجال القانون العام الأستاذ الدكتور عبد الحميد متولي من جامعة الاسكندرية وله كتاب ضخم عنوانه (نظام الحكم في الاسلام) والأستاذ الدكتور سليمان الطحاوي من

جامعة عين شمس بالقاهرة ؛ وله كتاب كبير عن (السلطات الثلاث) نهج فيه الى دراسة تراث الفكر الاسلامي الى جانب الفكر الغربي في هذا المجال ، كما صدر له كتاب كبير عن (عمر بن الخطاب وعبقريته في الحكم والادارة) هذا على سبيل المثال لا الحصر ، وجزى الله أصحاب هذه الجهود العلمية خيرا .

* * *

وأحب ونحن نحي هذه الوجهة في ابراز الشريعة الاسلامية وفقهها وجهود فقهائها ، ألا نغفل عن أمر طالما نبه اليه بعض المفكرين المسلمين المعاصرين بأساليب متباينة ... ذلك أن علينا أن نكون على وعي كامل بالفارق بين **(الأصول)** الشرعية الخالدة الثابتة **(بالنصوص)** الصحيحة الصريحة ، وبين (الاجتهاد) الفكري المتغير الذي تمثله تلك المحاولات الجليلة الضخمة للفهم والاستنباط والتفريع من جانب علمائنا الأعلام ... محاولات تعد مبدعة أو **(منشئة) تقريبا في مجال القانون العام** ، وبوجه خاص في مجالات النظم السياسية والادارية ، وما كان سوى الزكاة في مجال التشريع المالي ... ولقد سبق أن أشار الى أهمية تبين (الاجتهاد) في تراث الفقهاء المسلمين بوجه عام ، وبصرف النظر عن المجالات المتخصصة المتعددة التي تناولها هذا التراث ، الأستاذ الدكتور السنهوري رحمه الله حيث قال في بحث له في منشورات الجامعة العربية « الفقه الاسلامي هو فقه محض لا تقل عراقته في ذلك عن عراقة القانون الروماني ... وهو لا يقل عنه في دقة المنطق وفي متانة الصياغة وفي القابلية للتطور ، وهو مثل صالح لأن يكون قانونا عالميا ، بل كان بالفعل قانونا عالميا ... وإذا أحييت دراسته وانفتح فيه باب الاجتهاد قمين بأن ينبت قانونا حديثا لا يقل في الجدة ومسايرة العصر عن القوانين اللاتينية والجرمانية » .ويقتضي هذا البصر **(بتاريخية الفقه الاسلامي** ، وأعني بذلك تتبع الظروف التاريخية لنمو الآراء الفقهية في أي موضوع معين ، للتعرف على مدى (التطور) الفقهي المتجاوب مع الظروف الاجتماعية والثقافية المتغيرة ... وهذا ما وجه اليه الأستاذ الجليل خلال اشرافه

على قسم الدراسات القانونية في معهد الدراسات العربية العالية التابع لجامعة الدول العربية . واختار الأستاذ السنهوري الأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى رحمهما الله لتدريس (تاريخ الفقه الاسلامي) وفقاً لهذا النهج ... ويتابع الأستاذ الدكتور السنهوري إيضاح وجهته في بحثه المشار اليه فيقول : « ويقال عادة : ان مصادر الفقه الاسلامي هي الكتاب والسنة والاجماع والقياس ... **أما الكتاب والسنة فهما المصادر العليا للفقه الاسلامي** ، وقد قصدت بالمصادر العليا أن أقول أنها مصادر تنطوي في كثير من الأحيان على **مبادىء عامة ترسم للفقه اتجاهاته ولكنها ليست هي الفقه ذاته، فالفقه الاسلامي هو من عمل الفقهاء** صنعوه كما صنع فقهاء الرومان وقضاته القانون المدني . **وقد صنعوه فقها صحيحا :** الصياغة الفقهية وأساليب التفكير القانوني واضحة فيه وظاهرة ... **ثم يقول هؤلاء الفقهاء الأجلاء في كثير من التواضع : إن هذا هو الإجماع أو القياس أو الاستحسان** أو الاستصحاب أو ما شئت من المصادر التي ابتدعوها .

(أقول : أو استخرجوها وابتدعوا تسميتها على الأقل !)

وأن الأصل في كل هذا يرجع إلى الكتاب والسنة ، والواقع من الأمر أنهم صنعوا فقها خالصا هو صفحة خالدة في سجل الفقه العالمي » ...

وأذكر أن هذا البيان الجلي الواضح وهذا الفهم السليم العميق ، لم ينالا من البعض حسن القبول (أنظر مثلا في نقد السنهوري : محمد محمد حسين : حصوننا مهددة من داخلها)، كذلك دعا المفكر المسلم محمد أسد الى التفرقة اصطلاحا بين (الشريعة) (والفقه) وأراد أن يقصر (الشريعة) اصطلاحا على النصوص الشرعية الثابتة بالكتاب والسنة ، بينما يكون (الفقه) اصطلاحا يعبر عن فهم الفقهاء للنصوص وتفسيرهم لها وتفريعهم عليها ... بينما جرت العادة على تقارب المصطلحين أو ترادفهما أحياناً ... ولقي الرجل أيضاً بعض سوء الفهم ، كان في آخر صوره ما شهدته في الملتقى الاسلامي بمدينة قسطنطينية

بالجزائر في صيف سنة ١٩٧٠ حين عاود الحديث عن مفهومه للمصطلحين ؛ فاصطدم بالمفهوم الشائع المتقارب أو المترادف .

* * *

و (الاجتهاد) من مصادر التشريع المتفق عليها عند جمهور الفقهاء ... ولا يزال ذلك مقررا تقريرا واضحا قاطعا في (أصول الفقه) بعد تتابع الأجيال على التقليد ... – ولكن المشكلة أنك لا تحاول الاشارة الى أن رأيا ما بعينه مما هو مودع في مدونات الفقه ، هو رأي اجتهادي وبالتالي (غير ملزم) ؛ حتى تقوم القائمة وتثور الثائرة ... وقد واجه ذلك كل من دعا الى التزام الحجية الشرعية للكتاب والسنة وحدهما قديما وحديثا ... ونجد الشواهد متتابعة في سير ابن حزم وابن تيمية وابن القيم وابن عبد الوهاب . ومحمد عبده وغيرهم ... أما ممارسة (الاجتهاد) عمليا من جديد ، فهي قضية أعسر بكثير وأبعد عن القبول ! ولقد صرح بعض علماء الفقه المبرزين بمصر في اللجان المشكلة لتعديل قوانين الأحوال الشخصية ، أنه ليس يكفي فقط أن تتضمن أحكام التشريع المطلوب ما يفهم من الكتاب والسنة ، أو ما لا يتعارض معهما ، بل لا بد أن يكون لكل حكم مأخذا من مصنفات الفقه التي آلت الينا ، ولو كان رأيا مخالفا لما أخذ به جمهور الفقهاء !!!

ومن هنا خشيت أن تضيع عند بعض القراء لدراسات الباحثين المعاصرين التي تتناول شيئاً من (النظم التاريخية) في تاريخ المسلمين السياسي و (الآراء التاريخية) في تراثهم الفكري أو الفقهي بصورة أخص – أقول : خشيت أن تضيع المعالم والحدود بين (الأصول الثابتة) و (الاجتهادات المتغيرة) ، وقد يكثف الضباب ويعتم الرؤية ما خيم على أجيال المسلمين المتتابعة من استسلام للتقليد ، وفزع من الاجتهاد ، كما قد يزيد العتمة بغير قصد حماس لشريعة الاسلام ، وإصرار على تمجيد فقهائها والمبادرة إلى تحكيمها في مجتمعاتنا ودولنا المعاصرة ... ومثل هذا (الخلط) بين الثابت والمتغير من تراثنا لا يقرب

للمتحمسين تحقيق أملهم ، بل قد يزيد مهمتهم الجليلة التي اضطلعوا بها مشكورين – تعقيدا ، ويزيد هدفهم المرموق ابتعادا ، ويزيد الناس الذين يعيشون في واقعنا المعاصر عن دعوتهم انصرافا ونفورا .

هل يعني الداعون الى الاسلام ، أو المعتزون بشريعته ونظمه ، **العودة الى نظام الخلافة كما عرفه التاريخ وتراث الفقه مثلا ؟؟** ... هذه قضية لا بد من وضوح الرؤية في شأنها ولا تغني فيها العبارات العائمة ، والمفاهيم الغامضة ... وقد شهد الفكر الاسلامي الحديث والمعاصر اجتهادات فردية محدودة وأحيانا متعثرة ، تدعو الى (تعديلات) مستحدثة في نظام الخلافة ، منذ جمال الدين الأفغاني وعبد الرحمن الكواكبي إلى المفكر الجزائري المسلم المعاصر الذي فقدناه أخيرا (مالك بن نبي) في كتيبه الصغير (كومنولث اسلامي) ... وما زالت القضية تحتاج الى بحث وتوضيح وتصريح .

ونحن نجد الأستاذ الشيخ محمد الخضري رحمه الله ، الذي ألف في أصول الفقه وتاريخ التشريع الاسلامي ، وتاريخ المسلمين السياسي ، ودرس لطلاب القضاء الشرعي والجامعة المصرية يتناول (الخلافة) في الجزء الأول من كتابه (محاضرات تاريخ الأمم الاسلامية) فيشير إلى الرأي بعدم تخصيص الخلافة ببيت معين وكان عليه الانصار ثم الخوارج ، ورأى الجمهور في التخصيص بقريش ، ورأى الشيعة في التخصيص بقرابة الرسول ﷺ . ثم يعرض (**لشكل انتخاب الخليفة**) فيقول « لم يرد في الكتاب أمر صريح اللهم الا تلك الأوامر العامة التي تتناول الخلافة وغيرها مثل وصف المسلمين بقوله تعالى (وأمرهم شورى بينهم) .. وكذلك لم يرد في السنة بيان نظام خاص لانتخاب الخليفة الا بعض نصائح تبعد عن الاختلاف والتفرق . **كأن الشريعة أرادت أن تكل هذا الأمر للمسلمين حتى يحلوه بأنفسهم** » ... وبعد أن يعدد الطرق المختلفة لاختيار الخلفاء الراشدين أبي بكر وعمر وعثمان يعلق قائلا « لم يكن في طريقة من هذه الطرق الثلاث حل لتلك المسألة المتشابكة الأطراف ، لأن الطريقة الأولى : لم يبين فيها من لهم حق الانتخاب – أهم الأمة بأسرها أم هم أفراد مخصصون ،

وإن كانوا مخصصين فمن هم ؟ وغاية ما أمكن شراح هذه القاعدة أن يقولوه ان قالوا : هم **أهل الحل والعقد** ؛ ولكن من هم أهل الحل والعقد ؟ أهم ولاة الأمصار أم قواد الجيش أم أعيان الأمة ؟

يضيف كاتب المقال مستطردا : ومن هم (أعيان) الأمة ؟ كل ذلك لم يبين ، فالمتطلع للخلافة يجد مجالا واسعا للتأويل .

والطريقة الثانية : وهي طريقة العهد : ليس فيها ضمان لاختيار من يحبه الناس ويكون قادرا على حماية مصالحها وان يكن من الممكن في بعض الأحيان أن يكون خير الناس .

والطريقة الثالثة : في حقيقة الأمر كالثانية إذ اقتصر فيها على الشكل الذي رآه عمر لأنها عبارة عن عهد إلى واحد غير معين من أفراد محصورين يختارهم الإمام » ويرى الخضري ترشيح عمر للستة « طريقة شورية ناقصة لأنه لم يكن القصد منها أخذ رأي الجمهور فيمن يكون خليفة عليهم ، وإنما المقصود أن تؤخذ كلمة المرشحين للخلافة لأحدهم » ثم يذكر أيضا « كان أهل المدينة وحدهم هم الذين ينتهي اليهم أمر انتخاب الخلفاء وليس لغيرهم معهم رأي ولو كانوا من أهل الحل والعقد متى كانوا بعيدين عن الحاضرة الكبرى » .

(الطبعة الثامنة — المكتبة التجارية بالقاهرة ص ١٥٨ — ١٦٣)

ثم كان بعدذلك توريث الخلافة .

(أنظر تعليق الخضري ج ٢ ص ١١٩ — ١٢٠ من الكتاب نفسه) ...

وكل هذه (أحداث تاريخية) لا بد من تدبرها تماما ، وقد تفهم بالقياس إلى ظروفها الخاصة المادية والاجتماعية ، ولكن لا يمكن اعتبارها بحال سوابق ملزمة أو أحكاما عامة مطردة . وقد كان الأستاذ الدكتور عبد الحميد متولي صريحا قاطعا في اعتبار (الخلافة) نظاما تاريخيا في كتابه الضخم الهام (مبادىء نظام الحكم في الاسلام) ، وكان موفقا في اختيار عنوان كتابه ، باعتبار أن الاسلام انما يعنى بتوفر (مبادىء) معينة في نظام الحكم القائم بين المسلمين ،

ولا يجد نظاما مفصلا بعينه للحكم . وقد أكد المؤلف ذلك في مواضع متعددة من الكتاب .

ودراسة الدكتور صلاح الدين دبوس (**الخليفة : توليته وعزله – إسهام في النظرية الدستورية الاسلامية – دراسة مقارنة بالنظم الدستورية الغربية**) دراسة جد نافعة ومثمرة فكريا وعمليا ، طالما تأكد في وعينا أن (**الخلافة**) **كلها نظام سياسي (تاريخي)** وأن الأحكام الواردة في شأنها بتراثنا الفقهي ، اجتهادات عقلية متأثرة بظروف الواقع التاريخي ، وبعضها إعمال للمنطق أو القياس ، أو تطبيق لأحكام الاسلام العامة ، وقد يأتي بعضها تقديرا للمصلحة وهي قريبة من (قواعد العدالة) أو (القانون الطبيعي) في التشريعات الأخرى ، مع التقيد بعدم مخالفة الأحكام الاسلامية الصريحة القاطعة ، ويستثنى من ذلك من قال بتقديم المصلحة على النص والاجماع ، مع تقدير بحثه واجتهاده (نجم الدين الطوفي في شرحه لحديث « لا ضرر ولا ضرار » الذي تضمنه كتابه : شرح الأربعين حديثاً النووية) .

فعبارة (اسهام في النظرية الدستورية الاسلامية) التي وردت في عنوان دراسة الدكتور دبوس قد توحي لبعض القراء بأن (الخلافة) أصل مقرر في المصادر الاسلامية العليا الخالدة (الكتاب والسنة) وبخاصة أن لبعض دعاة الاسلام المعاصرين هتافا شائعا (القرآن دستورنا) ... ولكن قد يكون قصد المؤلف (المعنى التأسيسي) المأخوذ من التعبير الغربي القانوني المرادف Constitutional وهو يشير بذلك الى (المفهوم التاريخي) لقيام (الخلافة الاسلامية) و (الفكر التاريخي) الدارس لنظم هذه الدولة السياسية ، وقواعدها التأسيسية . ثم إنه ليس من حرج على أية دولة اسلامية معاصرة أن تضع (دستورا) أو (نظاما تأسيسيا) على أساس أحكام الكتاب والسنة ، مع تضمينه من الاجتهاد ما يتيحه أحكامهما وذلك لبيان حقوق الفرد وواجباته ، وسلطات الدولة ومؤسساتها واختصاصات تلك المؤسسات وحدود العلاقات بينهما ويكون هذا (الدستور) أو (النظام التأسيسي) قائماً مع وجود القرآن بتفاسيره ، والسنة

بمدوناتها وشروحها ... وعلى ذلك يمكن أن نفهم (النظرية الدستورية) بما لا يخل بالمنظور التاريخي !!.. ولكن تبقى صفة (الاسلامية) في وصف (النظرية الدستورية) . وهي صفة قد يعني بها نسبة تلك النظرية الى (المسلمين) وفقهائهم لا الى الاسلام كدين يعبر عنه الكتاب والسنة وحدهما تعبيراً ثابتاً خالداً .... وبخاصة أن الصفة قد أتت لـ (نظرية) وأحكام القرآن والسنة القاطعة لا يعبر عنها عادة بـ (نظريات) . وإنما يمكن أن توصف بذلك اجتهادات المفكرين والفقهاء ويكون الهدف المقصود من الدراسة إذن هو دراسة (التولية والعزل) لرئيس الدولة في الفقه الاسلامي وقد كان هو (الخليفة) تاريخيا خلال ازدهار أبحاث ذلك الفقه ونموه . ولكم يكون الدكتور دبوس أوضح وأقطع بالنسبة للقراء حين يجعل عنوان كتابه مثلا (رئيس الدولة الاسلامية توليته وعزله : اسهام في النظرية الدستورية الاسلامية على ضوء أبحاث فقهاء المسلمين عن (الخلافة) مع المقارنة بالنظم الدستورية الغربية) ولقد كان الأستاذ الدكتور عبد الحميد متولي – كما سلفت الاشارة – صريحا في تأكيد (تاريخية) نظام الخلافة في كتابه (مبادىء نظام الحكم في الاسلام – ص ٤٥٦ – ٤٦١ ، ٥٤٦ – ٥٥٠ ، ٦٠٨ على سبيل المثال) .

والدكتور دبوس يهدي كتابه الى أشخاص منهم (الشيخ عبد العزيز بن راشد الذي حبب إليّ السنة وحبب إليّ أهلها) وهو أحد شيوخ الدعوة السلفية الأجلاء الذين امتدت آثارهم الطيبة بالاسكندرية ... ولا يفوت الباحث في مقدمة بحثه الاشارة الى (اتخاذ الشريعة الاسلامية مصدرا للتشريع) ... ومن هنا خشيت على بعض قراء الكتاب مغبة عدم (التأكيد) على (تاريخية) النظام والفكر المبني عليه بوضوح واصرار ، لعلمي وتجربتي مع الآثار المؤسفة لضباب الأفكار والكلمات على بعض العقول والأفهام !!

لقد أوضح الكاتب دون غموض هدف كتابه حيث قال « ... نسعى من خلال دراسة السياسة الشرعية الاسلامية الى استخلاص معايير نستخدمها في

تكييف الأوضاع الحكومية في البلدان الاسلامية ، دون أن نقف في ذلك عند حد عرض الآراء الفقهية الاسلامية ... ص ٣ » . وكان من حق هذا الكلام الواضح الصريح التأكيد والابراز من الوجهتين البيانية والطباعية .

وأحسب أن عبارة (النظرية الدستورية الاسلامية) الواردة في عنوان الكتاب تحتاج الى شرح وايضاح في ضوء ما قرره المؤلف ، وتحتاج إلى بيان المقصود منها في ضوء هدف الكتاب وهو (استخلاص المعايير) من النظام (التاريخي) والفكر (التاريخي) ... وبخاصة أن الباحث يعرف أن الاستعمال القانوني المعروف لكلمة (دستور) هو شيء حادث ، لم يرد في لغة تراثنا الفقهي ، ويخشى من (اللبس) عند استعماله . فهو يقول في صدد كتابه (... فالنظام الاسلامي له صنعته القانونية ، وصيغه ومصطلحاته الخاصة ص ٥ ....) وهو يحدد منهجه في البحث (... أن يكون تحليل مادة الاتجاه السائد في السياسة الشرعية الاسلامية وتركيبها على أساس **النصوص داخل النظام الاسلامي** ، **وليس من خارجه** فلا ينبغي علينا باعتبارنا من دارسي القانون الدستوري الذي صبغ في اتجاهه العام بصبغة دستورية غربية أن نعتمد على مناهج هذا القانون وصيغه وأساليبه المقننة في تفسير أحكام الشريعة الاسلامية المتعلقة بموضوع دراسته ، **وانما يتعين علينا أن نلجأ الى قواعد الشريعة الاسلامية** ومناهجها وصيغها لتأصيل وتفسير هذا الموضوع ... ص ٦) وقد يحق للقارىء أن ينتظر من المؤلف تطبيقا أوفى لهذا المنهج الرشيد ، في شرح ما ورد في العنوان الفرعي من تعبير (النظرية الدستورية الاسلامية) .

والباحث قد أوضح وأبان في غير لبس ولا غموض أن منهجه من دراسته هو (استخلاص المعايير) ، ومعنى ذلك أنه على وعي كامل (بتاريخية النظام) الذي يدرسه وما ترتب عليه من (تراث فكري) وقد ساق بين يدي بحثه عن (ماهية الخلافة) : (مقدمة تاريخية) . والباحث يعرف جليا دور (الاجتهاد) في قيام نظام الخلافة وتطوره ، ويعرف أن الاجتهاد الشرعي لا يرفض تجربة انسانية

سابقة أو لاحقة تحقق مقاصد الشريعة ومصالح الناس ولا تتعارض مع الأحكام والنصوص الثابتة الصريحة وبخاصة في مجالات نظم الحكم والادارة حيث نجد نصوص القرآن والسنة محدودة مرنة فهو يقول : « إن من الواجب علينا أن نستعين بالمصادر الاسلامية الأولى في الفقه والأصول وعلم الكلام والتفسير والحديث ... ولما كان هذا الاتجاه خاصة بالنسبة لموضوع الشروط الواجب توافرها في الخليفة قد لمز بتأثره بالأفكار السياسية اليونانية والفارسية فضلا عن تأثره بطبيعة الحال بالبيئة الثقافية التي كانت تسود عصر أصحاب هذا الاتجاه والمطالب الاجتماعية والسياسية التي وجدت في زمانهم بحيث لا يمكن لثمرات جهودهم أن تلبي ما جابه الجماعة الاسلامية في القرن العشرين ، لذلك قد لجأنا إلى معيارين لبيان مدى ميل هذا الفقه عن التصور الصحيح، واستبعاد ما يخالف هذا التصور ، وأحد هذين المعيارين تاريخي وثانيهما أصولي فقهي ... ص ٧ – ٨ » ... وعلى الرغم من هذه النظرة البصيرة الناقدة ، فإننا نرى في صفحة قريبة تالية « ولما كان وضع المسألة في هذه الرسالة يقوم على التسليم بوجود نظام للخلافة في الاسلام ... ص ١٠ » وقد يكون في التعبير (رد فعل) لرأي الأستاذ علي عبد الرزاق في كتابه (الاسلام وأصول الحكم) ... لكن (الحكم) غير (الخلافة) فيما أظن ، فالتسليم قائم بوجود نظام حكم في الاسلام ، أو بوجود (نظام للخلافة في تاريخ الاسلام : ولقد أوضح الأستاذ متولي بجلاء « أن نظام الخلافة إذا كان قدر له النجاح ابان بضعة من السنين الأولى للهجرة ، وإذا كان يعد إذ ذاك نظاما مثاليا من أنظمة الحكم ، فإنما كان مردّ ذلك إلى توفر بيئة خاصة في ذلك العصر ... ان الاسلام قد جاء في شئون الحكم بمبادىء عامة تصلح للتطبيق في مختلف الأزمنة والأمكنة ، فهو لم يجيء بنظام معين من أنظمة الحكم ، وان فرض نظام معين كنظام الخلافة في كافة العصور وكافة الأقطار إن لم يكن ضربا من المحال فهو يؤدي بالأقل الى الحرج الذي رفعه الله عن المسلمين – كتاب مبادىء نظام الحكم ص ٥٤٩ – ٥٥٠ ، ٦٥٦ ، ٦٥٧ » ...

والتفريق بين الأصول الثابتة الصريحة في الاسلام وبين الاجتهادات المتغيرة للمسلمين شعوبا وحكاما وفقهاء . أصل هام في بيان الأحكام والنظم الاسلامية . من الوجهة العلمية ، وتترتب عليها آثار جليلة الخطر في تجديد الدعوة للاسلام والحكم بشريعته ... ومن هنا قد تؤدي أيضا عبارة (طرق التولية في الاسلام) الواردة في العنوان الفرعي ص ٢٢٨ الى بعض اللبس . ولكن يوضح قصد الباحث وفهمه (التاريخي) ما ورد من عنوان على رأس ص ٢٤١ (اثبات أن طرق التولية مسألة اجتهادية) ويذكر الباحث « أننا لن نبدأ من فراغ . وإنما نبدأ من نصوص الفقه السياسي السائد ، هذا الفقه الذي عايش النظام موضوع الدراسة طيلة ثلاثة عشر قرناً » ... وأخشى أن تختلف الأنظار في تحديد مدلول (عايش) ... وأحسب العبارة لا تقرر معنى (اطراد الحجية في شتى المراحل لنظام الخلافة) القائم تاريخيا طيلة ثلاثة عشر قرنا لمجرد الإستمرار التاريخي فلا تستوي في الميزان خلافة الراشدين وخلافة الأمويين بدمشق وقرطبة وخلافة العباسيين الأوائل والأواخر . وخلافة الفاطميين ، والخلافة التي اصطنعها المماليك بمصر ، وخلافة العثمانيين ... كما أحسب أن هذه (المعايشة) أو هذا (التعايش) لا يعني الحياة الحقة للفقه الإسلامي أو تجاوبه مع الواقع المتغير انما يقتصر التعبير على تقرير (التعايش) بين الفقه والنظام ، مما لا يعتبر شهادة اقرار وتوثيق لصالح (الفقه) أو لصالح (نظام الخلافة) في العصور المتأخرة للمسلمين .

وكان لا بد أن يسوق البحث الى (شروط الخليفة) وهنا يأتي شرط (القرشية) فتبرز قضية (تاريخية) نظام الخلافة وفقهها ، مما فصل فيه القول ابن خلدون في مقدمته ... ولكن الباحث اختار أن يكون الحديث الوارد (الأئمة من قريش) من باب الاخبار بما سيكون لا بيانا لحكم شرعي ... وتبقى مع هذا التأويل (تاريخية) الفقه محتاجة إلى تفصيل ، فقد اعتبر كثير من الفقهاء الحديث حكما شرعيا ثابتا لا إخبارا عن فترة زمنية مقبلة زائلة ! !

ويناقش الباحث (موقف الحنفية من عدم خضوع الخليفة لتوقيع الحد

الشرعي عليه) ص ٤٢ ـ٤٣، ٥٣ . ٥٥ . إذا ارتكب ما يوجبه. ورأيهم وتبريرهم له بأن الحد الشرعي انما يوقع (جزاء ونكالا) . ولا يتصور أن ينكل الإمام بنفسه . فلا عليهم إذن الا يوجبوا ما لن يتحقق في الواقع ؟! ... وهنا أيضاً فكر (تاريخي) واضح . لا يحاول أن يصوغ من مبادىء الاسلام العامة وبعض سوابق تاريخه المجيد ما يجعل (الخليفة) تحت سلطان (القاضي) باعتباره حارسا لحكم الله وشريعة الاسلام . وكان يحتاج هذا (الفكر التاريخي) الى تحليل ظروفه وعوامله ومناقشتها ويكتفي الباحث بأن يطمئن قارئه بأن « ... موقف الحنفية لا يمثل خروجا على مبدأ المساواة . لأن أساس عدم إقامة الحد على الخلفاء عندهم لا يرجع الى تميز الخلفاء عن سائر المسلمين . وانما يرجع الى قاعدتهم بعدم تشريع حكم لا يرجى من ورائه فائدة ....) ص ٥٥ .

وقد كان هذا المبحث وأمثاله ، مجالا لتأكيد (تاريخية) الفكر السياسي الاسلامي بصورة جلية قاطعة والاصرار على (الاجتهاد) الموافق للظروف المتغيرة وبيان الثغرات الجلية في تفكير الفقهاء السابقين وتوقي التسليم بأنه (ليس في الامكان أبدع مما كان) أو الزعم بأن التجارب التاريخية والسوابق الواقعية والفكرية في تراثنا تغنينا عن كل ما عند غيرنا من تجارب وخبرات ! !

هذا ما أحسبه دائماً في حاجة الى تقرير وتذكير دائمين دون ملل وبكل نصاعة ... ما دام الباحث موافقا لهذه الوجهة – كما تدل بعض عباراته. على أن البحث فيما أرى جيد طيب مثمر ان شاء الله ... وعلى الله قصد السبيل .

* * *

وكتاب (الموارد المالية في الاسلام) يكاد مؤلفه الدكتور ابراهيم فؤاد أحمد على أن يوقع قراءه أو بعضهم في لبس المقصود بـ (الاسلام) في العنوان ، وبخاصة أن يبدأ كتابه بعرض آيات القرآن في (الزكاة) و (الفيء) و (الجزية) و (الغنيمة) و (الإنفاق في سبيل الله) كما يذكر المؤلف في مقدمته « ... وسأحاول في الأبواب التالية شرح موارد الدولة المالية في الاسلام كما نزل بها

القران وبينتها السنة وعمل بها الخلفاء الراشدون مع عقد المقارنات بينها وبين الموارد المالية الحديثة لاظهار ما في الفقه الاسلامي من صلاحية للتطبيق الآن . . . . »

ومن أعمال الخلفاء الراشدين ما هو (اجتهاد) تاريخي تبرره احتياجات الواقع عندهم والسوابق التنظيمية المعاصرة لهم والمعروفة في وقتهم ... ويتجمع هذا ليكون (رصيدا) جليلا له وزنه وقيمته في تاريخ المسلمين وتاريخ الفكر والفقه عند المسلمين ... ولكن لا تنسب تلك الاجتهادات المتغيرة إلى حكم الاسلام الثابت الأصيل الباقي على الزمن ! !

وقد عقد المؤلف بابا كاملا أسماه (بيت المال في الاسلام) وهو باب تاريخي يستعرض في فصل منه (بيت المال من عهد الرسول الى عهد العباسيين) وفي آخر يتجه الباحث الى عرض (مثال لنظام الدواوين في الاسلام) ، وواضح أن هذه كلها دراسة لتجارب تاريخية تنقل عن النويري (المتوفي ٧٣٢ هـ/١٣٣٢م) وما أورده في كتابه (نهاية الارب) مثلا عن (مباشري الجيوش والخزانة والبيوت السلطانية والهلالي والجوالي والخراجي) ... بل ان المؤلف لا بد يعلم أن كثيراً مما أورده هو نفسه في الباب السابق وبخاصة ما كان عن (الخراج) و (العشور) هو من اجتهاد الخليفة عمر بن الخطاب ، وأن هذا الاجتهاد متأثر بنصائح عن تجارب إدارية وسوابق تنظيمية عرفت للفرس أو الروم .

روى القاضي أبو يوسف في كتاب (الخراج) أخبار مشاورة عمر للصحابة في (تدوين الدواوين) وفرض (الخراج) على الأراضي المفتوحة وعدم قسمتها بين الفاتحين « ... فكان عمر لا يزيد على أن يقول : هذا رأي ، قالوا : فاستشر ، فاستشار المهاجرين الأولين فاختلفوا » وروي عن الزهري أن عمر استشار الناس في السواد حين افتتح فرأى عامتهم أن يقسمه بين الجند الفاتحين ... « قال أبو يوسف : والذي رأى عمر من الامتناع من قسمة الأرضين بين من افتتحها ، توفيقاً من الله كان له فيما صنع وفيه كانت الخيرة

لجميع المسلمين ، وفيما رآه من جمع خراج ذلك وقسمته بين المسلمين عموم النفع لجماعتهم ، لأن هذا لو لم يكن موقوفا على الناس في الأعطيات والأرزاق لم تشحن الثغور ولم تقو الجيوش على السير في الجهاد . ولما أمن رجوع أهل الكفر الى مدنهم » .. (طبعة السلفية سنة ١٣٤٦ هـ ص ٢٨ — ٣٢) .

والشافعي وأصحابه لم يقبلوا ما روي عن عمر ووافق عليه أبو يوسف . وأولوه ليوافقوا ما ذهبوا اليه من أن الأصل المقرر هو قسمة الأرض المفتوحة على الفاتحين دون تفرقة بين العقار والمنقول ، أو بين الأرض المفتوحة وما للعدو من متاع وسلاح .

تقرأ ذلك واضحا في (الأحكام السلطانية) للقاضي الماوردي الشافعي المتوفي سنة ٤٥٠ هـ (مثلا ص ١٤٧ ، ١٧٤ من الطبعة الثانية لمصطفى البابي الحلبي بالقاهرة سنة ١٩٦٦ ص ١٤٧) .

لكن كلام الماوردي صريح قاطع في أن حكم الخراج شرع بالاجتهاد ، وأن أقله وأكثره يقدر بالاجتهاد (ص ١٤٢) . وروي عن مالك بن أنس « .... وأما جزية الأرض فلا علم لي ولا أدري كيف صنع فيها عمر ، غير أنه قد أقر الأرض فلم يقسمها بين الناس الذين افتتحوها ، فلو نزل هذا بأحد كنت أرى أن يسأل أهل البلاد — أهل المعرفة منهم والأمانة — كيف كان الأمر في ذلك ، فإن وجد من ذلك علما يشفي ، والا اجتهد في ذلك هو ومن حضره من المسلمين » (فتوح مصر لابن عبد الحكيم — طبعة لندن ص ١٥٥ ، وانظر أيضاً المدونة : باب الخراج) . ونقل ابن رجب الحنبلي المتوفي سنة ٧٩٥ هـ عن أحمد « إنما كان الخراج على عهد عمر وشرحه بقوله « يعني أنه لم يكن في الاسلام قبل خلافة عمر ، ولا ريب أن عمر وضع الخراج على أرض السواد ولم يقسمها بين الفاتحين وكذلك غيرها من أرض العنوة » (الاستخراج الطبعة الأولى سنة ١٩٣٤ — المطبعة الاسلامية بالأزهر) .

وقد أوضح المؤرخون والفقهاء المصادر التي استأنس بها المسلمون على عهد

عمر في تشريع الخراج وفي التنظيم الاداري والمالي بوجه عام . روى البلاذري عن ابن سعد عن الواقدي أن عمر استشار المسلمين في (تدوين الديوان) فقال الوليد بن هشام بن المغيرة « قد جئت الشام فرأيت ملوكها قد دونوا ديوانا وجندوا جندا — فأخذ بقوله » ....

(فتوح البلدان — بتحقيق رضوان محمد رضوان — المكتبة التجارية بمصر ص ٤٣٦) .

وروى أبو يوسف أن عمر بعث في طلب (دهاقين) — أي بعض ملاك الأرض — من السواد فسألهم عن التقديرات الفارسية للضرائب على الأراضي الزراعية (الخراج ص ٤٥) .

وروى ابن عبد الحكم أيضاً أن عمر بعث في طلب بعض المصريين للتعرف على السوابق البيزنطية . بل روى أنه راسل الحاكم البيزنطي السابق لمصر في ذلك.

(فتوح مصر ص ١٦١) .

وقد فصل الفقهاء والمؤرخون المسلمون القول في السوابق الفارسية لطريقة (المساحة) وطريقة (المقاسمة) في فرض الخراج وقد أخذ عمر بالطريقة الأولى وتعمد الى تقدير مبلغ نقدي أو (عيني) معين ثابت على كل وحدة مساحية معينة من الأرض (وربما اختلف باختلاف الحاصلات الزراعية ، ولكنه ثابت بالنسبة لمساحة معينة من الأرض ومحصول معين من الزرع) ، أما طريقة (المقاسمة) التي آثرها أبو يوسف وأخذ بها العباسيون الأوائل فتذهب الى اقتضاء الخراج وفق نسبة معينة من غلة الأرض ، فهي تتناسب زيادة ونقصا مع قدر المحصول ، ولا تثبت عند حد مقرر مهما اختلفت الأحوال ، وقد أورد تلك السوابق الفارسية مثلا الماوردي القاضي الشافعي في كتابه (الأحكام السلطانية) (الطبعة المشار اليها ص ١٤٨ ، ١٧٥) وابن رجب الحنبلي في كتابه (الاستخراج في أحكام الخراج) (الطبعة المشار اليها ص ٨ — ٩) .

وقد أبرز القاضي أبو يوسف هذا (الاجتهاد) العمري بجلاء في فرض الخراج وطريقة تقديره . ووافقه في فرض الخراج على الأراضي المفتوحة وعدم تقسيمها . ثم خالفه في الأخذ بطريقة (المساحة) في التقدير – أي تحديد (مبلغ نقدي معين) لكل وحدة مساحية معينة من الأرض وغلة معينة من الزرع ، وآثر على ذلك طريقة (المقاسمة) – أي تحديد (نسبة) من المحصول تكون هي الخراج المقرر وتزيد وتنقص تبعاً لقدر الغلة . وقد عزز أبو يوسف وجهة نظره في مخالفة عمر بن الخطاب بقوله (... قيل لأبي يوسف : لم رأيت أن يقاسم أهل الخراج ما أخرجت الأرض من صنوف الغلات وما أثمر النخل والشجر والكرم على ما قد وضعته من المقاسمات ، ولم تردهم الى ما كان عمر وضعه على أرضهم ونخلهم وقد كانوا بذلك راضين وله محتملين ؟ . فقال أبو يوسف : ان عمر رأى الأرض في ذلك الوقت محتملة لما وضع عليها، **ولم يقل حين وضع عليها ما وضع من الخراج إن هذا الخراج لازم لأهل الخراج وحتم عليهم ولا يجوز لي ولمن بعدي من الخلفاء أن ينقص منه أو يزيد فيه**)... (ص ١٠٠–١٠٢)

لكن الماوردي القاضي الشافعي – رغم اقراره وتقريره ان فرض الخراج (اجتهاد) لا يطمئن لتغيير الاجتهاد. ويريد أن يلغي (التاريخ) واختلاف الازمان والبيئات ويستلزم تطبيق تقديرات عمر للخراج أبد الدهر ، بحيث يكون التعديل استثناء بخلاف الأصل ، ويوجب الحفاظ على سوابق الاجتهاد بقدر المستطاع ؛ يقول (والذي يوجبه الحكم أن خراجها هو المضروب عليها أولا ، وتغييره إلى المقاسمة : إذا كان لسبب حادث اقتضاه اجتهاد الأئمة فيكون أمضى مع بقاء سببه ، وإلا أعيد الى حاله الأولى عند زوال سببه **إذ ليس للإمام أن ينقض اجتهاد من تقدمه** » . والقاعدة سليمة لا غبار عليها عند الأخذ بها في القضاء حرصا على استقرار الأحكام ، أما في التشريع فهي قيد لا موجب له ؛ ويغني في هذا المجال الحرص على حفظ الحقوق المكتسبة في ظل التشريع الاجتهادي السابق ، واعمال الأثر المباشر للتشريعين السابق واللاحق كل في نطاقه المقرر ، وقد جرت على ذلك بعض أحكام القرآن الكريم .

كذلك اجتهد عمر في وضع (العشور) على مرور السلع التجارية المارة بثغور الدولة الاسلامية واستأنس بتشريعات الدول الأخرى في هذا الصدد، روى أبو يوسف أن أبا موسى الأشعري كتب للخليفة « ان تجارا من قبلنا من المسلمين يأتون أرض الحرب فيأخذون منهم العشر » فكتب اليه « خذ أنت منهم كما يأخذون من تجار المسلمين » .

كذلك كان الماوردي على وعي بالسوابق الفارسية التنظيمية للدواوين — أي ادارات الدولة الرئيسية وبخاصة المالية فيها — ولم تفته أن الكلمة نفسها فارسية، وأن المشورة بتدوين الديوان جاءت من رجل فارسي وهو الهرمزان (ص ١٩٩) على خلاف رواية البلاذري السابقة التي تجعل النظام المقترح بيزنطي الأصل. ولا مانع بالطبع شرعا وتاريخا من تعدد الاقتراحات والمصادر والسوابق التي استأنس بها المسلمون الأولون في نظمهم الادارية والمالية ، وفي كتاب (التاج) ، المنسوب للجاحظ يقول عن (ملوك الأعاجم) « عنهم أخذنا قوانين الملك والمملكة وترتيب الخاصة والعامة وسياسة الرعية » .... والغريب أن الماوردي الذي يعرض للمصادر الأجنبية لتنظيم الدواوين في صدر حديثه عنها ، هو الذي يجمد الصورة (الشكلية) التاريخية المعروفة للأقسام الادارية الرئيسية للدولة الاسلامية واختصاصاتها (ص ٢٠٣ — ٢١٨) ... ولا عجب أن يكون مثل هذا (التجميد) سببا في نشوء الفجوة بين الفقه والواقع الاداري وتزايدها على مر الأيام ... ويشير الماوردي الى ذلك اشارة عارضة في صدد رأيين متخالفين عن اجراء اداري مالي ، فيعلق على ذلك بقوله « ... وهذا الوجه أخص بعرف الديوان ، والوجه الأول أشبه بتحقيق الفقه ... ص ٢١٧ » .

* * *

وبعـــد :

فمن البديهي أن بحث تاريخنا وتراثنا الفكري والفقهي ضروري مفيد ... وإنما نحرص على أن يصر الباحثون المحدثون على تحديد مدلول (الاسلام) وشريعته ونظمه الثابتة الباقية ، وتأكيد التفرقة بينها وبين (الاجتهادات التاريخية) التي

حفل بها واقع المسلمين أو تراثهم الفكري والفقهي ... وفي هذا التراث المجيد سوابق تستحق التسجيل والتقدير والبحث العميق بغير جدال . تقرأ مثلا عن حرص الأمراء والفقهاء على توفر **العنصر النفسي** من (الثقة) المتبادلة بين الأفراد والموظفين العموميين المختصين بالجباية ، ثم الوعي بالواجبات والمصالح العامة من ناحية الأفراد ، والتيسير على أصحاب المال في دفع ما يستحق عليهم للدولة من ناحية الجباة والسعي الى صاحب المال **وكأن الحق العام (مطلوب) لا (محمول)** أخرج أبو يوسف في (الخراج) وأبو عبيد القاسم ابن سلام في (الأموال) أن عمر بن الخطاب رأى بين غنم الصدقة شاة ذات ضرع ضخم فقال « ما أظن أهل هذه أعطوها وهم طائعون . فلا تغضبوا الناس ، ولا تأخذوا حزرات أو (حرزات) المسلمين » يعني خيار أموالهم . وأصل ما ذكره عمر هو ما ورد من مبدأ عام في حديث الرسول عليه الصلاة والسلام لمعاذ بن جبل حين بعثه الى اليمن « .... فأعلمهم أن عليهم صدقة أموالهم ... واتق كرائم أموالهم » . وورد عن بعض مبعوثيه ﷺ عن الأنعام التي تؤخذ في الزكاة « إنا لم نؤمر بحبلى ، ولا ذات لبن » . كذلك ورد أنه لا ينبغي للمصدق – أي عامل الصدقة – أن يقيم بموضع ثم يرسل إلى أهل المياه ليجلبوا اليه مواشيهم فيأخذ صدقتها ، ولكن ليأتهم « على أموالهم وأفنيتهم » كي يقوم بتقدير ما عليهم واقتضائه . وأوصى البعض العامل « أن يقسم الغنم قسمين ثم يخير صاحب الغنم ، ويأخذ الصدقة من القسم الذي بقي » كما أخرج أبو عبيد . وروي عن عمر بن الخطاب ما يشير الى الأخذ بمبدأ **(الإقرار الضريبي)** في (العشور) المفروضة على نقل السلع التجارية (الضرائب الجمركية على تجارة الاستيراد والتصدير) إذ أمر عامله « **ألا يفتش أحدا** » كما روى أبو يوسف .

وذكر يحيى بن آدم « وينبغي للعاشر – أي جابي العشور – أن يقبل قول صاحب المال فيه ان كان مسلما أو ذميا » ونقل عن طاوس « **لا يستحلف** المصدق الرجل ، اذا اتهمه ، وقال غيره : يستحلفهم **ويقبل قولهم** » . كذلك ورد عن عمر بن الخطاب ما يحظر اقتضاء الضريبة المقررة أكثر من مرة

خلال الفترة الزمنية المحددة قانوناً . وأورد أبو يوسف وصية علي بن أبي طالب لأحد عماله « ... لا تبيعن لهم كسوة شتاء ولا صيفا ، ولا رزقا يأكلونه ؛ ولا دابة يعملون عليها ، ولا تضربن أحدا منهم سوطا واحدا في درهم ، ولا تقمه على رجله في طلب درهم . ولا تبع لأحد منهم عرَضاً في شيء من الخراج . فإنما أمرنا أن نأخذ منهم العفو ... وان رجعت كما خرجت » وقد وردت الوصية للجابي أن يدعو لصاحب المال بالبركة بعد اقتضاء الحق المقرر فيه ، وهو حق (معلوم) يحدده التشريع المعلن للكافة ولا يترك للأهواء .

وفي مقابل ذلك تعددت الوصايا من علماء المسلمين وفضلائهم — مثل أبي هريرة وأبي ذر وجابر بن عبدالله وغيرهم — بأن يتعامل صاحب المال مع الجابي بالصدق والحسنى . ومن ذلك ما أخرجه أبو عبيد عن أبي هريرة وأبي أسيد « ان حقا على الناس إذا قدم عليهم المصدق أن يرحبوا به ويخبروه بأموالهم كلها ، ولا يخفوا عنه شيئا ، فإن عدل فسبيل ذلك ، وان كان غير ذلك واعتدى لم يضر الا نفسه ، وسيخلف الله لهم » . وأخرج عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه « سألت سعد بن أبي وقاص وأبا هريرة وأبا سعيد الخدري وابن عمر : ان هذا السلطان يصنع ما ترون ، أو أدفع زكاتي اليهم ، فقالوا كلهم : ادفعها اليهم » إن مثل تلك السوابق التاريخية الجليلة في الاجتهاد التشريعي — ومنها يعتبر تطبيقا وتفصيلا لأحكام عامة ثابتة في القرآن والسنة — لا بد من دراستها لاستجلاء تطورها ، وعوامل ذلك التطور ، والأصول والقيم العامة وراءها ، ومدى ارتباطها بحكمة الدين ومقاصد الشريعة ..

وهكذا نرى أنه من الضروري التنبيه الى (تاريخية) كثير من الاجتهادات ، وبخاصة في مجال النظم السياسية والادارية والنظم المالية في غير أحكام الزكاة ، وحتى في مجال المعاملات والتعزيزات .

ان أمانة العلم وأمانة الدعوة الى الله ودينه وشريعته على بصيرة ، يستلزمان هذا الإصرار على التنبيه والتأكيد والتكرار ... تجلية لحقيقة الاسلام أولا ،

ورعاية لمصالح أجيال المسلمين المتتابعة بعد ذلك . ولانقنع بأن هذا مقرر ابتداء في الأذهان بوجه عام . فكم من (المتناقضات) تتعايش مع الأسف في أذهان المسلمين . وتحتاج الى مداومة قرع الحواس والعقول لخلخلتها . وها هم المسلمون جميعاً جيلا بعد جيل يسلمون بوقوع الاجتهاد في الفقه . ولكن ترتيب النتائج على هذا الأصل المسلم مثار عديد من الاختلافات حتى الآن !! والذين يسعون جاهدين الى رد اعتبار المسلمين السابقين في تاريخهم الزاهر وفقههم العميق ، عليهم مشكورين أن يتبصروا الاحتياجات الفكرية والنفسية والاجتماعية للأجيال الحاضرة والمقبلة ، والمزالق التي هي من ركام قرون التخلف الطويل عن (الحكم والفقه) معاً !

كتب الأستاذ الشيخ أحمد فهمي أبو سنة في رسالته لنيل درجة الأستاذية من الجامع الأزهر سنة ١٩٤١ وموضوعها (العرف والعادة في رأي الفقهاء) « اتسعت المجاميع الفقهية ، فلم تقتصر على أحكام النوازل التي فصل فيها القرآن والسنة . بل **دونت فيها أحكام العادات** التي جرت في الأمم المسلمة على مر العصور ، فإنه لما فتحت الممالك وانتشر الاسلام عرضت على المجتهدين **عادات مدنية وفارسية ورومانية ومصرية واغريقية** في مختلف مسائل الفقه ... لم تكن هذه العادات معروفة في عهد الرسالة ، وكانت محل اجتهاد المجتهدين وافتاء المفتين . **ثم جمعت في المؤلفات الفقهية على أنها آثار وفتاوى** يجب العمل بها . ص ١٩٥ » .

كذلك تحولت اجتهادات عمر وغيره ، الى (رأي الصحابي) أو (رأي الصحابة) أو (اجماع الصحابة) حسب الظروف والملابسات ... ثم خلعت عليها أحيانا قدسية السنة أو حجيتها . أو غدت تالية لها في المرتبة ، وغفل عن أنها (اجتهادات لا مجال لادخالها في النصوص) ... وأضيفت اليها آراء (التابعين) ثم (السلف الصالح) بوجه عام والتعبير الأخير مطاط فضفاض يتسع للكثير .

ولا بد من أن ينظر الى تراثنا الفقهي الجليل نظرة (رأسية) أو تاريخية

زمنية . لا نظرة (أفقية) مسطحة تسوى بين جميع ما ورد فيه وتعتبر هذا كله (الاسلام) . أو (شريعة الاسلام) ... يقول الأستاذ الدكتور السنهوري رحمه الله في بحثه المشار اليه الذي نشرته جامعة الدول العربية (الادارة الثقافية) « ... ونرسم في ايجاز المنهج الذي نقترحه في دراسة الفقه الاسلامي لاحيائه وللنهوض به نهضة علمية صحيحة في ضوء القانون المقارن . يُعنى في هذه الدراسة بأمرين جوهريين **أولها أن تدرس نشأة الفقه الاسلامي دراسة دقيقة فيبحث كيف تكون وكيف تطور** ، وبخاصة في العصور التي سبقت المذاهب الأربعة وثانيهما أن تدرس مذاهب الفقه الاسلامي السني والشيعي والخارجي **والظاهري وغيرها دراسة مقارنة** لنستخلص منها وجوه النظر المختلفة ولتتركز هذه الوجوه في تيارات من التفكير القانوني **ثم تتبلور في اتجاهات عامة**وتستكشف من وراء كل هذا قواعد **الصناعة الفقهية الاسلامية** . ثم تقارن هذه الصناعة بصناعة الفقه الغربي الحديث حتى يتضح ما بينهما من الفروق ووجوه الشبه ، **وحتى نرى أين وقف الفقه الاسلامي** — لا في قواعده الأساسية ومبادئه ، بل في أحكامه التفريعية وتفريعاته **فتمتد يد التطور الى هذه التفصيلات على أسس تقوم على ذات الفقه الاسلامي وطرق صياغته وأساليب منطقه** . وحيث يحتاج الفقه الاسلامي الى التطور يتطور ، وحيث يستطيع أن يجاري العصر يبقى على حاله دون تغيير ، وهو في **الحالين فقه اسلامي خالص** لم تداخله عوامل أجنبية فتخرجه عن أصله : والغاية من دراسة الفقه الاسلامي على هذا النحو : أن تنتهي بعد عشرات السنين **الى أن يتجدد شباب هذا الفقه وتدب فيه عوامل التطور** ، فيعود كما كان فقها صالحا للتطبيق المباشر مسايرا لروح عصره » ...

والأمل أن يسترشد الباحثون المحدثون بهذه الكلمات الهادية ... ولا يترددوا قط في بيان (أين وقف الفقه الاسلامي) ؟؟ ... فمن المسلم به تاريخيا أنه وقف ، وبقي أن نحدد علميا متى وقف ، وأين وقف ، وكيف ولماذا وقف ؟؟ ! !

نحن أحوج لذلك ، ولبيان نقاط التوقف في تراثنا الفقهي ، وكيف مضت

في السير تجارب إنشائية أخرى ... وما أوجه الافتراق والإتفاق في المسالك المتعددة ....

نعم نحن أحوج لذلك من حاجتنا لصياغة قصائد المديح في (ثراء الفقه الاسلامي) و (دقة فقهائنا) ... وتأثير الفقه الاسلامي في الفكر القانوني الغربي، مع ما في ذلك كله من حق ....

علينا أن نتجاوز تلك (النظرات التبريرية أو الاعتذارية) : التي ربما شفع لها فترة من الزمن أنها كانت (رد فعل) للتطاول على تاريخنا وفقهنا باسم البحث العلمي ... ولعلنا أن نكون الآن قد بلغنا (الرشد) ونضجنا عن التخبط مع الأهواء بين النقائض !! من أهواء (التبعية والإنقياد) الى أهواء (الرفض المطلق والعناد) !! وعلينا أن نقرر في الأذهان بكل سبيل أن دول الاسلام الحاضرة والمستقبلة ليس عليها أن تحكم بكل ما ورد من اجتهادات الفقهاء في صدر (الخلافة) ، وأنها لن تسعفها موارد (الفيء) و (الغنيمة) ، ولا بأس أن يستغنى عن (الجزية) ، وتشرع ضرائب على العقار والمنقول والتجارة العابرة والمستوردة والمصدرة – تخالف تماما ما سجلته السوابق التاريخية والمصنفات الفقهية : لاختلاف ظروف الزمان والمكان ، ولعدم وجوب أي التزام شرعي مؤيد بالاجتهادات المتغيرة الموقوتة .

وفي صدر الجزء الثالث من كتاب أعلام الموقعين للفقيه السلفي ابن القيم المتوفى سنة ٧٥١ هـ عنوان طويل عريض يقول **(فصل في تغير الفتوى واختلافها بحسب تغير الأزمنة والأمكنة والأحوال والنيات والعوائد)** يقول تحته المؤلف رحمه الله : « هذا فصل عظيم النفع جدا ، **وقع بسبب الجهل به غلط عظيم على الشريعة أوجب من الحرج والمشقة وتكليف ما لا سبيل اليه ، ما يعلم أن الشريعة الباهرة التي في أعلى رتب المصالح لا تأتي به.** فإن الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعـــاد . **وهي عدل كلها ورحمة كلها ومصالح كلها وحكمة كلها، فكل مسألة خرجت عن العدل الى الجور ، وعن**

الرحمة الى ضدها وعن المصلحة الى المفسدة وعن الحكمة الى العبث فليست من الشريعة وان أدخلت فيها بالتأويل . فالشريعة عدل الله بين عباده : ورحمة بين خلقه ، وحكمته الدالة عليه وعلى صدق رسوله .... »

ونقل ابن القيم في أواخر الجزء الرابع من نفس الكتاب قول ابن عقيل « السياسة ما كان من الأفعال بحيث يكون الناس معه أقرب الى الصلاح وأبعد عن الفساد ، وان لم يشرعه الرسول ولا نزل به وحي . فإن أردت بقولك لا سياسة إلا (ما وافق الشرع) – أي لم يخالف ما نطق به الشرع فصحيح ، وان أردت (ما نطق به الشرع) فغلط وتغليط للصحابة ! » وعلق على ذلك ابن القيم بقوله : « قلت : هذا موضع مزلة أقدام ومضلة أفهام ... فرط فيه طائفة فعطلوا الحدود وضيعوا الحقوق ، وجعلوا الشريعة قاصرة لا تقوم بمصالح العباد وسدوا على أنفسهم طرقا صحيحة من الطرق التي يعرف بها المحق من المبطل .... والذي أوجب لهم ذلك نوع تقصير في معرفة حقيقة الشريعة والتطبيق بين الواقع وبينها . فلما رأى ولاة الأمر ذلك وأن الناس لا يستقيم أمرهم الا بشيء زائد على ما فهمه هؤلاء من الشريعة أحدثوا لهم قوانين سياسية تنتظم بها مصالح العالم ، فتولد من تقصير أولئك في الشريعة وإحداث هؤلاء ما أحدثوه من أوضاع سياستهم شر طويل وفساد عريض . وتفاقم الأمر وتعذر استدراكه وأفرطت فيه طائفة أخرى فسوغت ما يناقض حكم الله ورسوله ... »

وقد كانت هذه بحق أزمة (الفقه والتشريع) في البلدان الاسلامية حتى عصرنا ...

ويعقب ابن القيم بقوله « كلا الطائفتين أتيت من قبل تقصيرها في معرفة ما بعث الله رسوله فان الله أرسل رسله وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط .. فإذا ظهرت امارات الحق وقامت أدلة العقل وأسفر صبحه بأي طريق فثم شرع الله ودينه ورضاه وأمره . والله تعالى لم يحصر طرق العدل وأدلته وإماراته في نوع واحد وأبطل غيره من الطرق التي هي أقوى منه وأدل وأظهر ، بل بين بما

شرعه من الطرق أن مقصوده إقامة الحق والعدل .. وهل يظن بالشريعة الكاملة خلاف ذلك ؟ ولا نقول أن السياسة العادلة مخالفة للشريعة الكاملة بل هي جزء من أجزائها وباب من أبوابها وتسميتها (سياسة) أمر اصطلاحي . والا فإذا كانت عدلا فهي من الشرع » .

والله يهدي للرشد ويعيننا على إصابة الحق .

من منشورات

دار البحوث العلمية

مكتبة القانون الاسلامي

مجلة الأحكام العدلية

مشروع موسوعة الفقه الإسلامي

هل للقانون الرومي تأثير على الفقه الإسلامي

* * *

مفاهيم اقتصادية

تفسير آيات الربا

الربا ودوره في استغلال ثروات الشعوب

بحوث في الربا

التأمين الأصيل والبديل

وضع الربا في البناء الاقتصادي

* * *

مختصر شعب الإيمان

الحج (بالانجليزية)

الحج (بالتركية)

القرآن والقصة الحديثة

الفهرس الهجائي لكتاب المغني

الفهرسة الهجائية والترتيب المعجمي

البعد الخامس

دستور الأخلاق في القرآن

القوى الخفية التي تحكم العالم

الشريعة الإسلامية وسيادة القانون

د . مصطفى كمال وصفي *

يعتبر البحث في « الشريعة الاسلامية وسيادة القانون » هو مفتاح معالجة شئون الحياة المعاصرة على ضوء الشريعة الإسلامية .. أي مفتاح باب الشعار الذي اتخذته مجلة « المسلم المعاصر » مكملاً لعنوانها في صفحتها الأولى .

فإنه اذا كانت السيادة القانونية للشريعة الإسلامية في بلد من البلاد ، تشكلت على الفور جميع الأوضاع السياسية — الدولية والداخلية — والدستورية والاقتصادية والاجتماعية في قالب هذه السيادة الغالبة . وأمكن تنسيق المجتمع كله ، والأفكار التي تدور فيه في اطار من الفكر الموحد الخاضع للإسلام .

وبدون ذلك تتضارب الجهود وتتشتت الأفكار ، وتتدخل الأغراض

* المستشار بمجلس الدولة المصري . القاهرة .

المغرضة والتوجيهات المنحرفة .. فإن الشريعة الاسلامية هي ضمان الصيانة والإطار الحافظ للمجتمع الاسلامي في تقدمه ومسيرته .

ويكفي أن نذكر أن رسول الله ﷺ لم يهاجر الى المدينة ، ولم يقبل عرض الأنصار ، إلا بعد أن بايعوه على العناصر الأساسية لخضوع المجتمع للشريعة الاسلامية ، والتي أوردها عبادة بن الصامت – رضي الله عنه – في حديثه عن بيعة العقبة ، كما أورده أستاذي الإمام البخاري رضي الله عنه (صحيح البخاري طبعة دار الشعب جزء ١ صفحة ١١– صحيح البخاري المفسر (تأليفي) الحديث رقم ١٧) . فقد روي أن رسول الله ﷺ قال – وحوله عصابة من أصحابه :

« بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً ، ولا تسرقوا ، ولا تزنوا ، ولا تقتلوا أولادكم ، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ،ولا تعصوا في معروف .. فبايعناه على ذلك » ..

فهذا هو العهد الأعظم للدولة الإسلامية ، وميثاق تأسيسها الدستوري ، وعقدها الاجتماعي ..

وهو – فيما نرى – يتضمن العناصر الأساسية للمشروعية الإسلامية :

١ – فقوله ﷺ : « **لا تشركوا بالله شيئا**» أي يكون التوحيد أساس العدل والصحة . فإن الاعتقاد بالتوحيد يستتبع العمل بأوامره سبحانه وتعالى ، ومنع نواهيه . فتصير هذه الأوامر هي معيار العدل والصحة ، والفيصل والفرقان بينه وبين الظلم والبطلان أو الفساد .

٢ – وقوله : « **لا تسرقوا** » إقرار لعصمة المال .

٣ – وقوله : « **لا تزنوا** » إقرار لعصمة العرض .

٤ – وقوله : « **لا تقتلوا أولادكم** » أي أولاد المسلمين (كنحو قوله : ولا تؤتوا السفهاء أموالكم) اقرار لعصمة النفس والدم .

وهذه العصمات الثلاثة أساس لكل الحريات وحقوق الانسان والنظم الاجتماعية على أنواعها .

٥ — وقوله : « **لا تأتوا ببهتان** » إقرار للأمن والثقة .

٦ — وقوله : « **لا تعصوا** » إقرار للنظامية اللازمة للجماعة .

وبذلك فهو ميثاق جامع شامل وافٍ لأساس نظام سياسي دستوري متكامل يخضع للمشروعية الاسلامية العليا .

وكان هذا الاشتراط قبل الدخول في أي علاقة أو أي إنشاء جديد ..

* * *

وعندنا في مصر ، لم تعد سيادة المشروعية الإسلامية حلماً ... ولا أماني . ولم نعد نحتاج للخطابة والتمني والتحسر ونحو ذلك .. بل نحتاج الى العمل .. والعمل الجاد الواعي . ومن لم يفعل فقد ظلم نفسه وإثمه كبير ..

فقد أتاح لنا الدستور فرصة إعلاء الشريعة الاسلامية من أوسع أبوابها .. ولم يعد يمنعنا إلا أن نفرط في جناب الله ..

والمقال الذي أقدمه هو جزء من تقرير قدمته في إحدى القضايا بحكم وظيفتي (كرئيس لمفوضي الدائرة الأولى من المحكمة الادارية العليا بمجلس الدولة المصري) . وبذلك يمكن القول أن سيادة المشروعية الاسلامية عندنا قد وجدت مدخلا لدور التنفيذ والتطبيق الملزم بحكم الدستور والفهم القانوني الصحيح .

والله ولي التوفيق .

واني أود لو أدلى المتخصصون في كل بلد اسلامي بوضع الشريعة عندهم وما يرونه من علاجات **لإقرار السيادة الكاملة لتطبيق الشريعة الاسلامية عندهم .**

* * *

وأما في مصر ، فمنذ أن قامت الثورة في ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ انتهى عهد الليبرالية والرأسمالية في هذه البلاد وقام بدلا من ذلك نظام مذهبي .

ونحن لم ندرس النظام المذهبي في أيام دراستنا . وكذلك فان المدرسة القانونية

الحالية ما زالت متأثرة وآخذة بالأفكار القديمة . ولم تستوعب التطور الحقيقي الذي انتاب العالم كله (حتى البلاد الليبرالية) بالتحول الى المذهبية أو شبه المذهبية .

ومن المؤكد أننا سنفشل في مواكبة الحياة ما دمنا نتمسك بالأفكار القديمة . حقيقة أن عوائق الاستيراد قد عطلت التطلع الى التطورات الحديثة . ولكن هذا أمر لا بد من استيعابه على الأقل من القليل الذي وصلنا أخيرا .

ولما قامت الثورة في ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، تجمعت أماني البلاد في مذهب واحد هو المبادىء الستة التي أعلنتها الثورة. وهذه حالة «شبه مذهبية» لأن المذهبية (أو (الايديولوجية) لا بد أن تكون ثابتة دائمة .

ثم توجهت البلاد الى الاشتراكية التي أعلنها الميثاق عام ١٩٦٢ . وكان الرئيس الراحل يقصد أن يتفادى عيوب الماركسية ويستخلص فوائد الاشتراكية . فأرسى الميثاق أصولا اشتراكية مع الاحتفاظ بقدر من الملكية الخاصة مع احترام الدين . وكان الأمر يتطلب تخطيطا للميثاق وتوضيحا لمراميه . ولكن البلاد وقعت في صراع داخلي وحاولت مراكز القوى الاستيلاء على المذهبية للصالح اليساري كما وقعت في صراع خارجي مع اسرائيل والصعوبات الاقتصادية المعروفة .

فلما انتصر التصحيح الثوري في ١٥ مايو ١٩٧٢ شرعت البلاد فورا في وضع الدستور وعند ذلك أعربت الارادة الشعبية بكل قوة بقيادة شيخ الأزهر وقتها — الامام الأكبر الشيخ محمد محمد الفحام — عن التمسك بالمذهبية الاسلامية التي بلورتها بلورة دستورية صادقة وهي : **أن تكون الشريعة هي المصدر الأساسي للتشريع »** .

ووافق مجلس الشعب على ذلك

وكذا المؤتمر القومي للاتحاد الاشتراكي .

ثم عدلت لجنة الصياغة هذه المادة (وأراها أحسنت كما يلي بعده) وانما هي

على أية حال ليس لها حق ذاتي في وضع الدستور فيرجع للمعنى الحقيقي كما عبرت عنه الارادة الشعبية . وأما الاستفتاء الشعبي فلا حجة له في تفاصيل المسائل القانونية لأن الأصل فيه أنه مجرد ثقة اجمالية بالسلطة . ولذلك فالأصل أنه لا يؤخذ الا على مسألة واحدة فقط بنعم أو لا .

واني أكتب كوصية للأمة من بعدي . فاني لا أعرف حالي .. فربما أموت . أو لا أدرك أن أدلي لها برأي ، فيفوتني هذا الفرض وثوابه .

وأقرر أنه بالرجوع الى الدستور نجده صريحا في إعلان المشروعية وجعلها مشروعية عليا للنظام المصري . وهذا الفهم الأصيل يلقي ظله على جميع أحكام الدستور ونظام البلاد .

فان أحكام الدستور في مجموعها تنقسم الى أقسام بعضها أعلى من بعض .

فقمة الأحكام الدستورية : هي ما تعلق بالدولة (مادة ١ الى ٦) فان هذه الأحكام هي الإطار الأعلى الذي يحكم كل ما جاء في سائر النصوص أيا كانت مكانتهـــا .

ثم تليها الأحكام المتعلقة بمقومات المجتمع الأساسية والحريات والواجبات والحقوق (المواد من ٧ الى ١٣) والأحكام المتعلقة بسيادة القانون (من ١٤ الى ٧٢) فهي نتيجة للنوع الأول ومترتبة عليها .

ثم الأحكام المتعلقة بتنظيم السلطات على تدرجها بينها كما هو معروف .

وفي القسم الأول المتعلق بالدولة نصت المادة (٢) على أن :

« الاسلام دين الدولة .. ومبادىء الشريعة الاسلامية مصدر رئيسي للتشريع » .

وهذه المادة يجب أن تفسر حرفا حرفا بكل حرص وبميزان الذهب لوقوعها في هذا القسم الأول من أحكام الدستور .

١ – فمعنى « دين الدولة » : أي عقيدتها التي تفنى في سبيلها وتضحي من أجلها بكل ما عندها لأن الدين هو العقيدة الراسخة التي يذهب في سبيلها الانسان الى أقصى حدود التضحية والتفاني .

وهذا التعبير يقابله في الفقه الحديث أن الجماعات هي وحدات نظامية لها غايات نهائية finalités وتتألف من جماعة متماسكة حول هذه الغايات التي تقيد أغراضا اجتماعية لها ولها سلطة تحكمها وفقاً لقواعد ترمي هذه الغاية (كتاب رينار في نظرية المنظمة théorie de l'institution – ومقالنا في نظرية النظام بمجلة مجلس الدولة وكتاب بيردو في النظرية العامة للعلوم السياسية بصفة عامة وخاصة الجزء الأول منه).

والتنظيم المذهبي الحديث يؤدي الى تغيير شامل في شكل النظام الاجتماعي فهو يؤدي الى وحدة الغاية ووحدة الفكر وهذا يؤدي الى وحدة الوسائل والتنظيمات والى تضامن القاعدة الشعبية .

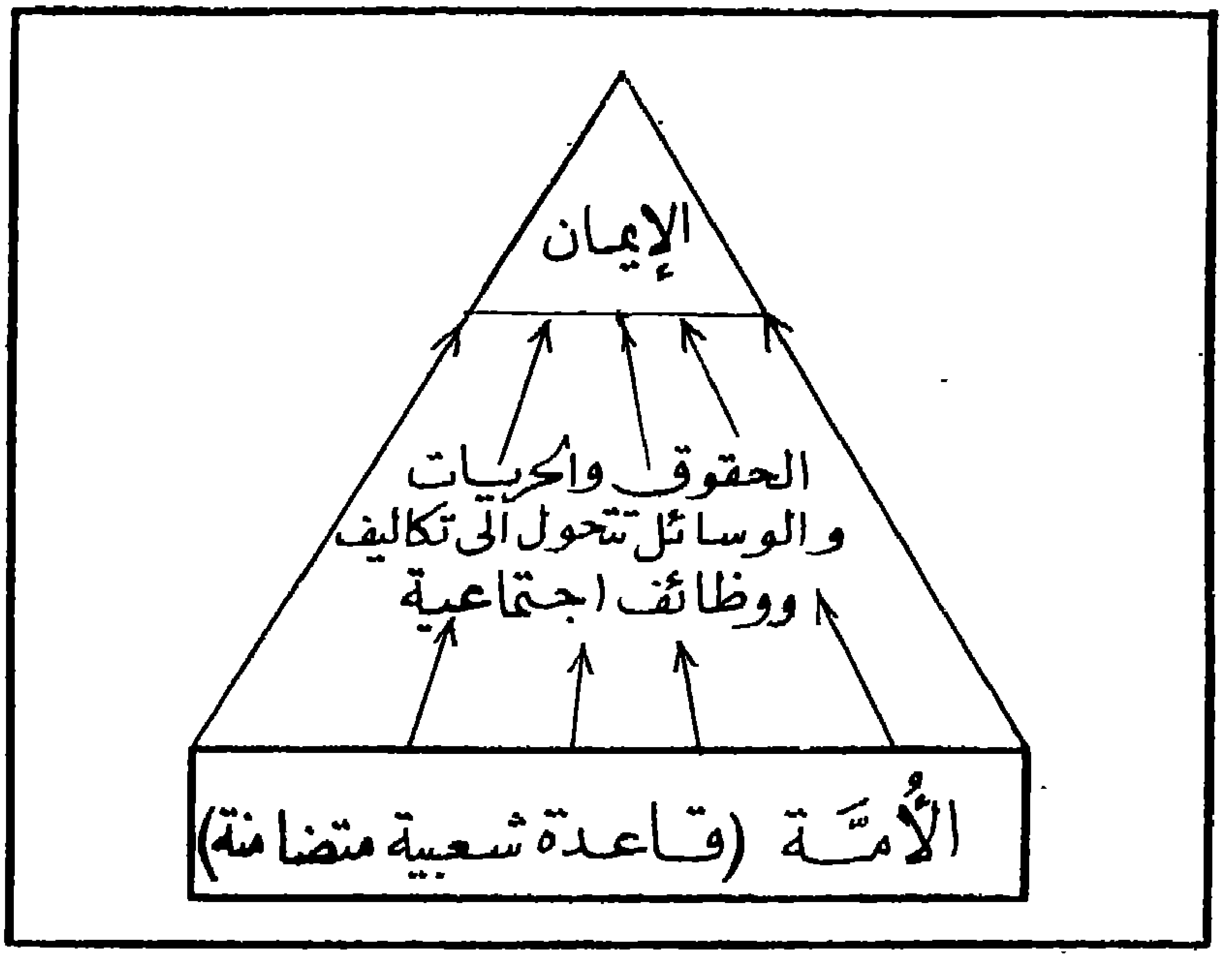

شكل - ١ - التشكيل الاجتماعي في النظم الإيمانية أو المذهبية

وهذا الشكل يختلف عن تشكيل الدول الليبرالية الرأسمالية حيث تختلف الغايات بسبب اطلاق المنافسة واطلاق الحقوق والحريات ويسود الفراغ بين الناس فلا توجد قاعدة شعبية متضامنة .

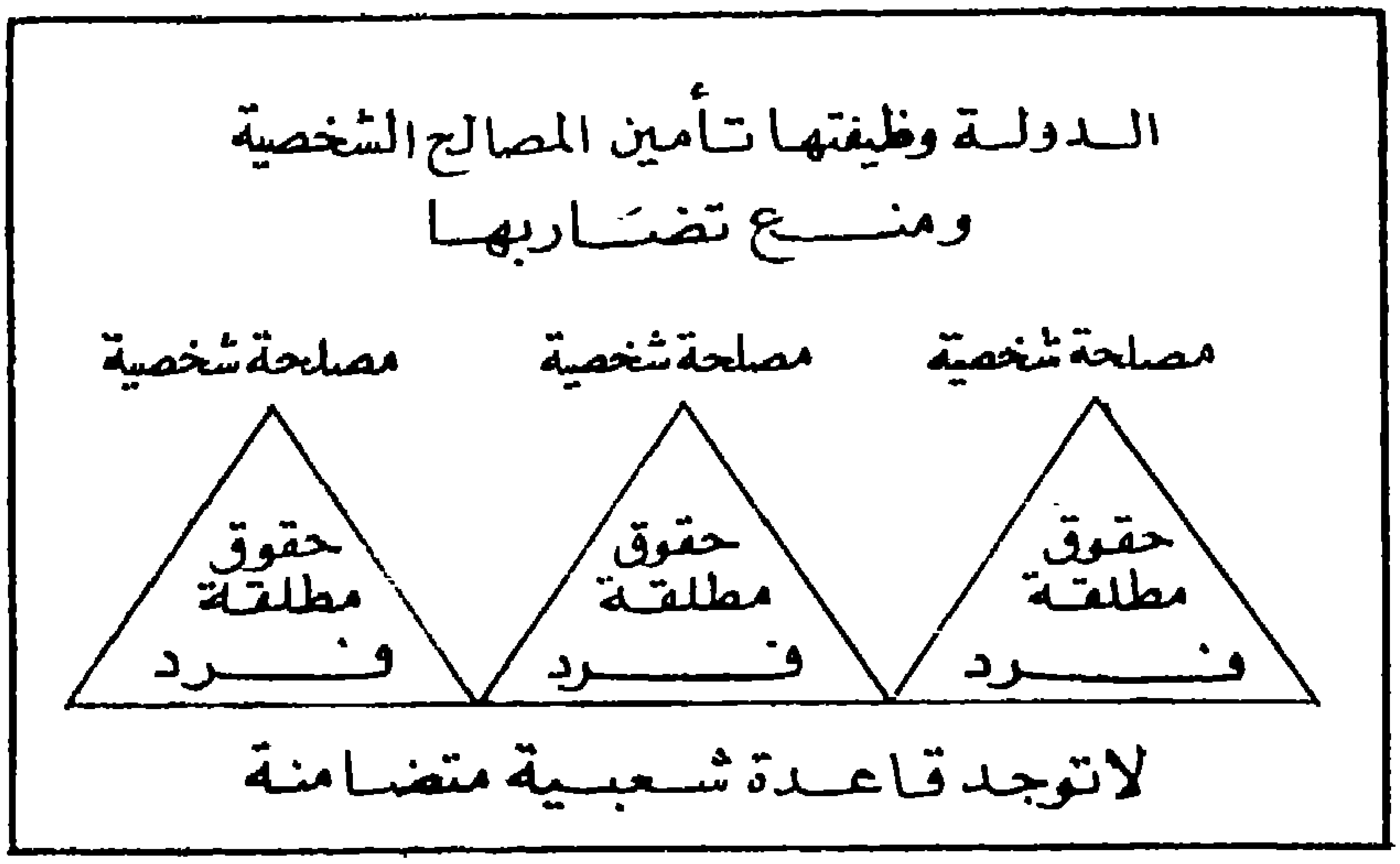

شكل - ٢ - التشكيل الاجتماعي في النظم الفردية
(الليبرالية الرأسمالية)

وليس فوق نص الدستور على أن « الاسلام دين الدولة » عبارة أبلغ ولا أروع من أن غاية الغايات ونهايتها في النظام المصري هو اعلاء العقيدة الاسلامية وحمايتها والتقدم بها . ولما كانت الأشخاص القانونية تختلف عن الأشخاص الطبيعية في مقوماتها ، فانه يفهم من « دين الدولة » أنه شرائعها ونظامها ومنهجها في الحياة [1] ، تماما كما اتفق على أن القانون الجنائي يطبق على هذه الأشخاص بما يوافق طبيعتها بتوقيع العقوبات المناسبة لها دون ما لا يناسبها كالحبس ، أو يفهم على أن الاسلام دين الأغلبية الساحقة فيكون دين الدولة ، لأن الشعب مصدر

---

(١) كان بعض كتاب القانون الدستوري ممن ينكرون الشخصية المعنوية قد قال كلمة سخيفة : أنه لم يتشرف بلقاء شخص معنوي ولا تناول معه غذاء ... ولذلك لا ينسب له دين ولا ذمة ... وهذه الكلمة السخيفة استقرت في بعض العقول الخاملة فاستيقنتها . ولكن التطور العالمي اللاحق ينفيها .

السلطات ولن يرتضي المسلمون غير الإسلام دينا . وأما غير المسلمين فقد ارتضوا أحكام الاسلام لأنها تحميهم وصار نظامهم جزءاً لا يتجزأ ، خاصة أن إخواننا المسيحيين لا شريعة لهم ويعتمدون على الشريعة الاسلامية في كثير من أمورهم . وقد عشنا سويا (في مصر) قرابة الألف سنة في ظل الإسلام في وئام لم يشاهده شعب آخر .

وعلى هذا المنوال من الفهم المذهبي الذي يسيطر على القانون الدستوري الحديث تفهم النظم الحديثة ، سواء في ذلك النظم الديمقراطية أو النظم الأخرى التي تقتبس من هذه النظم الشعبية . ولو أن بعض الدول المذهبية تتخذ مذاهب غير دينية ولكن الشكل الدستوري واحد في جميع النظم المذهبية .

٢ - ومعنى أن مبادىء الشريعة مصدر رئيسي للتشريع : أي أصول الشريعة - أي الأحكام الثابتة التي لا تتطور - هي المصدر الرئيسي وغيرها مصدر ثانوي - فلا يجوز تخطي الرئيسي والاقتباس من الثانوي. ومعنى التشريع هنا لا يقتصر على القانون المكتوب بل يشمل كل قاعدة تنظيمية سواء أقرها العرف أو وضعها القضاء كمبدأ . وهي في ذلك ليست مصدرا تاريخيا فقط بل مصدر تفسيري أيضاً لعامل الانسجام العام في ترابط المعنى التشريعي .

وهذه المادة لها خلفية تاريخية لا بد من شرحها :

وهي أنه لما شرعت البلاد في وضع دستور ١٩٧١ انهالت البرقيات على مجلس الشعب ومشيخة الأزهر مطالبة بأن تكون الشريعة الاسلامية هي المصدر الأساسي للتشريع فأصدر الامام الأكبر شيخ الأزهر - الشيخ محمد محمد الفحام - بيانا تاريخيا نشرته الصحف في ٢ / ٦ / ١٩٧١ وأصدر مجلس الشعب ثم المؤتمر القومي للاتحاد الاشتراكي قرارا بأن تكون الشريعة هي المصدر الأساسي للتشريع .

ولكن لجنة الصياغة صاغت المادة على الوجه السالف . وهو لا يغير من

معناها الأصلي طبعاً — لعدم ولايتها في ذلك — ولكنه يحتاط فقط للحاجة الى استكمال الصياغة في الفروع . ولجان تقنين الشريعة دائبة على عملها . ولا تملك لجنة الصياغة بطبيعة الحال أن تخرج على ارادة السلطة التأسيسية في قراراتها وانما يفسر النص الذي وضعته في ضوء هذه الارادة لأنها مصدر السلطة ، ومهمة لجنة الصياغة هي التحرير فقط وليست لها ارادة ذاتية في سن الدستور — كما أن الاستفتاء الشعبي — كما بينا — هو استفتاء اجمالي على الثقة بالسلطة .

وكلمة « مبادىء الشريعة » لا مفهوم لها في المصطلح الاسلامي ، وإنما تعرف الشريعة الاسلامية ما يسمى بالأصول ، وما يسمى بالفروع .

واجمال ذلك — كما أورده الثقات — أن الأحكام الشرعية تنقسم الى قسمين : عقائد وشرائع (أو فقه) . أو أصول الفقه (أي علم الأدلة الشرعية والاستنباط منها) **وفروعه** (أي التطبيقات العملية) .

فصار مفهوم « مبادىء الشريعة » أي العقائد وأصول الفقه .

وفي ذلك يقول الامام السعد (التفتازاني) على العقائد النسفية « ان الأحكام الشرعية تنقسم الى عقائد وشرائع . وان الأحكام الشرعية منها ما يتعلق بكيفية العمل وتسمى فرعيـــة أو عمليـــة . ومنها ما يتعلق بالاعتقاد وتسمى أصلية واعتقادية .

والعلم المتعلق بالأولى يسمى علم الشرائع (أو الأحكام) وبالثانية (أي العلم المتعلق بالثانية — يسمى « علم التوحيد والصفات » .

كما يقول الامام البيضاوي في منهاج الوصول بياناً لأقسام الفقه : انـــه ينقسم إلى أصول وفروع : « أصول الفقه هو معرفة دلائل الفقه (أدلته) اجمالا وكيفية الاستفادة منها ، وحال المكلف (يعني بحوث الأهلية وعيوب الرضا) والفقه ، وان الفروع هي العلم بالأحكام الشرعية العملية المكتسبة من (أدلتها التفصيلية ..) أي أن الأصول تتعلق بالأدلة وغير

ذلك ، والفروع تتعلق بالتطبيق العملي » .

وصار من اللازم طبقاً للدستور أن تستمد الأحكام من هذه المبادىء أو الأصول فيما تقنن الفروع وهو منطق – وبذلك زالت التهمة عن لجنةالصياغة[1] ورفع الإصر عنها والحمد لله رب العالمين .

وبذلك أصبح فرض عين على القضاة وعلى رجال العلم أن يعلموا الشريعة وأن يقضوا بها .

ثم إن هذه الأصول ثابتة ، والفروع ذات مرونة في الغالب وتقبل التغيير بقدر . ولذلك صلح أن يربط الدستور الأحكام بالأصول دون الفروع التي ما زالت تحتاج لمطابقة محدثات الزمان .

وأفضل ما أحيل اليه في ذلك ما قاله الامام الشاطبي في الموافقات (الجزء الثاني : مقاصد الشريعة) .

وكلمة « مصدرا أساسيا » تعني أن غير الشريعة ليس مصدراً أساسياً ، لأن المذهبية لا تحتمل مصدرين أساسيين لضرورة وحدة الفكر – فاذا عنّت الحاجة للاقتباس من نظم أخرى فإن ذلك يكون في اطار المصدر الأساسي وبما لا يعارضه . وبذلك يمكننا الاستعانة بالنظم الأجنبية دون مجافاة للشريعة أو خروج عليهـــا .

* * *

٣ – أما المشروعية الاشتراكية : فانها تعتبر جزئية ومنطوية تحت المشروعية العليا ، وهي المشروعية الاسلامية .

فان ما تنص عليه المادة (٤) من الدستور من أن : « الأساس الاقتصادي لجمهورية مصر العربية هو النظام الاشتراكي القائم على الكفاية والعدل بما يحول

---

(١) كانت مكونة من : حافظ بدوي . بدوي حمودة . فتح‌الله الخطيب . محمد عبد السلام الزيات . محمد شلبي يوسف .

دون الاستغلال ويهدف الى تذويب الفوارق بين الطبقات » فهذا النص في الواقع – يقتضي مشروعية جزئية قاصرة على الأساس الاقتصادي فقط محدداً في أمرين محصورين هما : الكفاية والعدل بما يحول دون الاستغلال . وتذويب الفوارق بين الطبقات .

وهذه الأغراض جزئية بالنسبة للمشروعية الاسلامية الشاملة لنواحي الحياة الأخرى كالمسائل الدولية والاجتماعية والأدبية والثقافية والخلقية وعلاقات الأسرة والجوار (وغير ذلك كثير) .

وليس صحيحا أبدا ما قيل من أن الاقتصاد هو الدافع الأول في الحياة ، فالاقتصاد وسيط لغيره ، وعلماء النفس اتفقوا على أن تصرفات الانسان تصدر من غرائز أعمق ؛ فهذا قول فاسد نشأ عن الانحراف نحو عبادة المادة ، وطرح المثل والقيم .

ومن الملاحظ أن قبول الميثاق قد تقيد بالنص على أنه « إيمانا بالله وشريعته » وبذلك فالارادة الشعبية واضحة تماماً في تقييد الاشتراكية – عند قبول الميثاق – بالدين والشريعة الاسلامية .

وكل ذلك لا يجدي ما لم يقم أهل العلم – والقضاء منهم – بتحقيق مبادىء الشريعة بالعلم والعمل فهذا هو معنى « العلم والايمان » أن يكون العلم في خدمة الايمان بأن يرسم مناهجه وطرق تخطيطه وتطبيقه فلا يظل الإيمان شعارات جوفاء لا قيمة لها .

* * *

وان روح الفقه الحديث – كما أبديت في كتابات كثيرة – تقتضي أن يصبح الايمان – وقوة العقيدة والعمل بالروح الشعبية والشعور بآلام الناس هو سمة القانون في العصر الحديث .

وفي مصر : **تتجه المحكمة العليا (الدستورية) اتجاها واضحا نحو اعلاء الشريعة الاسلامية واعتبارها نظاما عاما** ordre public وخاصة في حكمها

برفض الغاء مواد الشفعة من القانون المدني ومواد الحبس لدين النفقة (حكمها في ٢١ / ٦ / ١٩٧٤ الدعوى رقم ١ لسنة ٥ ، محمد حلمي اسماعيل ضد رئيس الوزراء وسامية عبد العال) .

إلا أن الواقع أن فكرة النظام العام تختلف تمام الاختلاف عن فكرة السيادة الايجابية التي تتيحها المذهبية ، على الوجه الذي شرحناه في النظام الإسلامي .

ففكرة النظام العام ordre public هي فكرة وضعية positif وليدة النظم الفردية (الليبرالية الرأسمالية) ولا توجد إلا بها . لأن المشرع في هذه النظم يكون مطلق الحرية في التشريع كيف يشاء ، ويكون له — كما يقولون — حق ذاتي مطلق في التشريع ، نتيجة لنظرية التحديد الذاتي auto-limitation للدولة ونظمها والتي سيطرت سيطرة شكلية formel في هذه النظم على النحو الذي نراه عند القائلين بذلك كأوتو ماير، وكاري ومالبرج وأوستن ونحوهم . وبحيث تكون فكرة النظام العام وليدة النص وأسيرته ، بعكس المذهبية ، فهي تؤدي إلى تكوين مشروعية عليا légalité supérieure على النحو الذي تتجه اليه الأفكار الحديثة . وهي مشروعية فوق سلطة الدولة ، وفوق نصوص القانون بمعناها الشكلي .

وهذه الفروق تتبدى — بصفة خاصة — من النواحي الآتية :

أولا : ان النظام العام l'ordre public هو نتيجة النص — في الغالب — وأسيره . فإنْ جاء النص — بالمنع والتحريم والتجريم — تقرر الحظر للنظام العام بصرف النظر عن تقبُّل الروح الشعبية لذلك . وإن جاء بالإباحة والإطلاق ، صار غير مخالف للنظام العام بصرف النظر عن وجهة النظر الشعبية أيضاً . بعكس الحظر المذهبي ، فإنه لا يأبه بالنص في هذه الحالة ويعلن بطلانه . ففي البلاد التي أبيح فيها الشذوذ الجنسي وزواج الأخ من أخته غير الشقيقة ومحارمه (كبنت الأخ وبنت الأخت والعمة والخالة) جاز ذلك قانوناً ولو تضرر به معظم الشعب . وربما سار الفقهاء في المنع للنظام العام حيناً طويلا ، ثم يأتي النص

رافعا الحظر فيضطر القضاء للرضوخ له كارهاً .

ثانيا : ان النظام العام حظر جزئي موضعي في الغالب ؛ فما يعتبر من النظام العام مدنياً قد لا يعتبر كذلك إدارياً أو جنائياً وبالعكس . بل وفي داخل أحد الفروع — كالتقنين المدني — قد يعتبر الوضع مخالفا للنظام العام في أمر — كالملكية — ولا يعتبر كذلك في أمر آخر كبعض العقود والالتزامات الشخصية وهكذا .. وسببه أن طريقة التشريع الفردية تخلق نُظماً normes مستقلة كل منها عن بعضها . فالنظام الجنائي غير النظام التأديبي في أهدافه ودواعيه . والنظام المدني غير النظـــام التجاري أو الإداري كذلك ، فنظـــام الإفلاس غير نظام الإعسار المدني . وأما المذهبية فتخلق منهجاً عاماً système أو طريقة للحياة mode de vivre بسبب وحدة الفكر والتضامن الشعبي ، فلا يصح أن يكون الحظر موضعيا فيها.. ويؤيده ظاهرة وحدة القانون في النظام المذهبي وتعذر فكرة الازدواج والتعدد كما قرر الكثيرون .

ثالثا : ان النظام العام l'ordre public مقيد واستثنائي بطبيعته ، لأن النظام الفردي (الليبرالي والرأسمالي) يجعل الأصل في الحرية والحقوق إطلاقها ، وما يرد خلافا لذلك يكون استثنائياً مقيداً ، بخلاف المنع المذهبي ، فان جميع الحريات والحقوق والمراكز القانونية فيه تكون مقيدة موصوفة بالمشروعية العليـــــا .

* * *

طريقة التنفيذ :

وطريقة ارساء المشروعية الإسلامية على الوجه السالف تنقسم الى قسمين كبيرين :

١ — **احدهما** : طريق اجتماعي وذلك باعادة بناء البيئة على أساس إسلامي بحيث تتمسك بـــآداب الاسلام وعوائده وتقاليده . وهذا موضوع مستقل

بذاته ويفتح باباً كبيراً خاصاً به . وانما المقرر أن البيئة غير المتخلقة بأخلاقيات الاسلام وعوائده وآدابه ، لا تصلح لتطبيق الشريعة فيها ، كالأرض البور لا تنبت ما يوضع فيها من البذر مهما كثر . فيجب اصلاح الأرض أولاً لإنبات أي قدر من البذور مهما كان قليلا . والملاحظ أن البيئة الفاسدة تسخر من القواعد الصالحة – أيا كانت – وتتحايل عليها! . ولذلك فلا ثمرة إطلاقــاً لمحاولات الإصلاح التشريعي في البيئات الفاسدة .

٢ – وثانيهما : طريق تشريعي وذلك بوسيلتين :

احداهما وسيلة وقائية : بأن تعرض مشروعات القوانين قبل إصدارها على هيئة شرعية لإبــداء الرأي في مطابقتها للشريعة . وقــد شكلت لدينا – في مصر – لجنة لهذا الغرض في مجلس الشعب من السادة الأساتذة : عبد الحليم الجندي ، وزكريا البري ، وحسين حامد (وهو في السعودية الآن) . ولكن لم يبدُ لها أثر فعال إلى الآن .. ولعله لم تأت مناسبة لبحث شرعي فيما صدر منذ تشكيلهــا .

وثانيهما وسيلة علاجية : وهي اعتبار مخالفة القانون للشريعة دفعا بعدم الدستورية يجيز الطعن أمام المحكمة الدستورية العليا ، لإلغاء القانون المخالف للشريعة . فهذه هي الطريقة العملية الوحيدة التي تمهد لتقنين الشريعة بعد تبلور العمل في ضوء تصارع المصالح . أما طريقة التقنين المسبق التي تتجه اليها بعض الدول فهي – فيما أرى – طريقة غير عملية . لأن التشريع لا يقوم على التصور بل يجب أن يسبقه العمل . وفرق بين من يضع مشروعاً للحفظ والتمني ، وبين من يضعه للتنفيذ المباشر والعمل الفوري .. فإن روح الجد والعناية تسود الأخير دون الأول .

واني آمل أن يكون هذا المقال افتتاحاً لمساهمة المفكرين المتخصصين ، والرسميين العاملين .

والله سبحانه وتعالى الموفق للخير وهو العلي القدير .

حوار

الحوار نافذة من نور

عمر بهاء الدين الأميري *

* منذ برأ الله الانسان ، عاقلاً عاملاً مسؤولاً ، وشرع له من الحق ما يستقيم معه أمر الخلق ، وسخر له ما في السموات والأرض ، وخصه بالدراية والهداية والرعاية ، كان من أهم ما أكرمه به ، أنْ جعل له نافذة من نور لا يحور ، مفتوحة ، بينه وبين ربه سبحانه ، وبينه وبين العوالم كافة ، يتحلل بها من الأغلاق ، ويسمو وينطلق الى الآفاق وما وراء الآفاق ... حتى اذا سدّ الانسان هذه النافذة على نفسه ، أو تقاصر عن مشارفها ، انغلق فاختنق ، وتبلد وتحدد وتجمد فتعطل معناه الانساني ، وتخلف عن مستوى الأمانة المقدسة التي حملها بحكمة الله وحُكمه : تلك النافذة هي : الحوار .

الحوار بين الانسان والديان ... والحوار بين الانسان والأكوان ... والحوار بين الانسان والانسان .

---

* استاذ كرسي الاسلام والتيارات المعاصرة في دار الحديث الحسنية بجامعة القرويين . المغرب .

والحوار النيّر الذي شرعه الله جل وعلا ، حوار هادف ، مشرئب ، يتوخى استنباط أسرار الكون ، ويتطلع الى لباب المعرفة ، ويستزيد من جوهر الخير الخير ولذلك كان مثمراً ايجابياً .

* والفرق كبير بين الحوار الايجابي السليم والحوار السلبي العقيم ، الذي هو في الواقع ضرب من جدل المكابرة والثرثرة واللجاجة التي تهدر الوقت والجهد سدى ، وتتنافى مع جدارة الانسان وكرامته . وللحوار الايجابي المعطاء مجالاته المتعددة في الحياة الانسانية فمن أمثلته المشرقة في عالم الفكر والفقه : الاجتهاد ، وفي عالم الأخلاق العامة : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وفي عالم السلوك : النقد الذاتي ومحاسبة النفس ، وفي عالم الحكم : الشورى ، وفي عالم الاجتماع : الندوات والمؤتمرات والمواسم الثقافية ، ودورات التوعية والمحاضرات والمجلات الهادفة ، وفي عالم المادة : الاكتشاف والاختراع .. وهكذا ..

وما لقاء أبناء الجيل على صفحات «المسلم المعاصر» الا نوع من الحوار الفكري يطل به الكتاب والقراء معاً من نوافذ نور البحث عن المعرفة على حقيقة الاسلام في ذاته ، ومقارناً مع سواه من المذاهب والعقائد والتيارات المعاصرة ، ليستفيد الجميع من ذلك علماً وعملاً ...

* كلمة الحوار بذاتها ليست غريبة عن لغة القرآن الكريم فقد وردت في أكثر من موضع : (قال له صاحبه وهو يحاوره : أكفرت بالذي خلقك من تراب « الكهف ١٨ » — فقال لصاحبه وهو يحاوره: أنا أكثر منك مالاً وأعز نفرا « ٣٤ الكهف — ١٨ » .. .. ..)

* وقد بدأ الله جل جلاله أمر الخليقة على الأرض بالحوار (سورة ٢ آية ٣٠) :

— واذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الأرض خليفة .

— قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟ !

– قال : اني أعلم ما لا تعلمون .

(وعلّم آدم الأسماء كلها ، ثم عرضهم على الملائكة) .

– فقال : انبئوني بأسماء هؤلاء ، ان كنتم صادقين !

– قالوا : سبحانك ، لا علم لنا الا ما علمتنا ، انك أنت العليم الحكيم .

– قال : يا آدم انبئهم بأسمائهم .

(فلما أنبأهم بأسمائهم)

– قال : ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض، وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ...

* ويجب على الانسان أن يستهدي في حواره بهدى الله ، فلا يخرج به عن المعالم الكبرى للحق كما رسمها له رب العالمين ، وأن يكون دائم اليقظة حتى لا يستدرجه حواره الى الهوى ! فاذا كان منه شيء من الزلل والشطط ، سارع الى محاسبة نفسه وعرض عمله على المنهج الرباني في الحياة مستعيناً بذلك على العودة الى سواء السبيل .

* وقد بدأ تاريخ البشرية بغفلة أبينا آدم عليه السلام عن الحق ، غفلةً كانت لها نتائجها المتطاولة الى يوم القيامة ، وذلك اثر حوارٍ مع « إبليس » استدرجه فيه الى العصيان والغواية ... ثم كان تصحيح الوضع ، انطلاقاً من حوارٍ أيضاً بدأه الله جل جلاله ، وهو الحليم الرحيم :

– وناداهما ربهما : ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما ان الشيطان لكما عدوٌ مبين ؟ ! !

– قالا : ربنا ظلمنا أنفسنا ، وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين !

– قال : اهبطوا بعضكم لبعض عدوٌ ، ولكم في الأرض مستقر ومتاع الى حين ! !

– قال : فيها تحيون وفيها تموتون ، ومنها تخرجون .

ويستخلص الله لعباده من بني الانسان العبرة والموعظة الممتدة من هذا الحوار الفعّال :

– يا بني آدم ؛ قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوءآتكم وريشاً ، ولباس التقوى ؛ ذلك خيرٌ ، ذلك من آيات الله لعلهم يذكّرون .

يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءآتهما ....

وانها لموعظة بالغة ، وتحذير الهي يجب علينا الاهتمام بهما تمام الاهتمام ، ولاسيما في هذه الأيام التي غزتنا فيها التيارات واللوثات والمذاهب المعاصرة الدخيلة ، ومضاعفاتها وملابساتها فقلبت كثيراً من أوضاعنا الاجتماعية رأساً على عقب ، وغيّرت في مفاهيمنا وموازيننا الأخلاقية تغييراً نكاد لا نلتفت اليه رغم خطره الكبير ، لما أصابنا من ادمان الغفلة ، والانسياق والتقليد غير المتبصر ، بعيداً عن أصالتنا ورسالتنا في الحياة ...

• ان للحوار ركنيته في الوجود الانساني ، فان تأثير الدعاة والمرشدين والمصلحين ينطلق من الحوار : يحاورون المعرفة حتى تتضح لهم الحقائق وتستقر بينة واضحة في عقولهم ، ويحاورون أنفسهم في ضوء ما ثبت لهم انه الحق فيسددون خطاهم ويقومون سلوكهم ويحاورون الناس ، فيدعونهم الى سبيل ربهم بالحكمة والموعظة الحسنة ، ويعطون من أنفسهم الأسوة والقدوة والمثال الصالح . وحسبي أن أذكر أن كلمة قال التي هي لب الحوار قد وردت في القرآن الكريم (٥٢٧) مرّة .

• ولقد أورد الله سبحانه الحوار الذي كان بينه جل وعلا وبين ابليس في مواطن كثيرة من كتابه المجيد ، بأساليب ومناسبات عدة ، وبشكل لافت للنظر يتجاوز الرواية الى قصد الدراية والهداية ، وأعطى ذلك اهتماماً بالغاً لأنه شرارة المواجهة بين الخير والشر وبين الفلاح والخيبة ، وبين الاسلام والجاهلية أي بين « المسلم الحق » وعقيدته الربانية ، وبين « المعاصرة » المتكررة المتجددة

وما قد يتولد فيها من تيارات ومذاهب طارئة على الحق وقد تكون دخيلةً غير سويـــة :

(ولقد خلقناكم ثم صورناكم ، ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس لم يكن من الساجدين) .

— قال : ما منعك الاّ تسجد اذ أمرتك .

— قال : أنا خير منه خلقتني من نارٍ وخلقته من طين .

— قال : فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها ، فاخرج إنك من الصاغرين .

— قال : أنظرني الى يوم يبعثون .

— قال : انك من المنظرين .

— قال : فبما أغويتني لاقعدن لهم صراطك المستقيم ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ، ولا تجد أكثرهم شاكرين .

— قال : اخرج منها مذموماً مدحوراً ، لمن تبعك منهم ، لأملأن جهنم منكم أجمعين .

* وتمضي أمثلة الحوار بين الله ورسله وأنبيائه وعباده تكليماً أو تعليماً حقيقة أو مجازاً :

— قال اني جاعلك للناس إماماً .

— قال ومن ذريتي .

— قال لا ينال عهدي الظالمين .

أو كالذي مرّ على قرية وهي خاوية على عروشها :

— قال : أنى يحي هذه الله بعد موتها ؟ !

(فأماته الله مئة عام ثم بعثه) .

— قال : كم لبثت ؟؟ .

— قال : لبثت يوماً أو بعض يوم !

— قال : بل لبثت مئة عام !

وتنطلق العظة وتقرر العبرة الدائمة لتوطيد الايمان وابراز قدرة الله المطلقــة :

فانظر الى طعامك وشرابك ، لم يتسنه ، وانظر الى حمارك ، ولنجعلك آيةً للناس وانظر الى العظام كيف ننشزْها ثم نكسوها لحماً .

فلما تبين له ...

— قال : أعلم ان الله على كل شيء قدير ...

ويزخر القرآن الكريم بمواقف الحوار يقصها علينا لا لمجرد الاخبار بل للموعظة والاعتبار .

فهناك حوار ابراهيم عليه الصلاة والسلام مع ربه :

— رب أرني كيف تحي الموتى ...

وحوار موسى عليه السلام مع ربه لما جاء لميقاته :

— رب أرني أنظرْ اليك ...

وحوار الله مع المسيح عليه السلام :

— واذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأميَ آلهين من دون الله ...

— قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق ...

وكثير كثير سوى ذلك .

* ويعقد الله تبارك وتعالى البيعة لخاتمة رسله وأنبيائه سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام بحوارٍ مع أنبيائه المكرمين :

— وإذ أخذ الله ميثاق النبيين ، لما آتيتكم من كتابٍ وحكمةٍ ، ثم جاءكم رسولٌ مصدقٌ لما معكم ، لتؤمنن به ولتنصرنّه .

— قال : أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري .

— قالوا : أقررنا .

— قال : فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين ...

* وقد أراد الله جلّت حكمته أن يهدي المسلمين الأولين ويضرب بهم

المثل للآخرين ، بتوجيهنا الى الحوار التعليمي التثقيفي المفيد ، فأرسل الروح الأمين جبريل عليه السلام بهيئة انسان إلى النبي ﷺ وهو بين كبار صحابته يسأله ويحاوره :

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه : بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ ذات يوم ، إذ طلع علينا رجلٌ شديد بياض الثياب . شديد سواد الشعر . لا يُرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد ...

قال : يا محمد أخبرني عن الاسلام ؟ فقال رسول الله ﷺ الاسلام أن تشهد أن لا إله الاّ الله وأن محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت اليه سبيلا .

قال : صدقت ...

قال عمر فعجبنا له يسأله ويصدّقه .

— قال : فأخبرني عن الايمان ؟

— قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشرّه . قال : صدقت .... »

ولما انصرف الرجل ، وعلى وجوه الصحابة الكرام سيماء التساؤل والتعجب ، قال لهم رسول الله ﷺ : إنه جبريل جاء يعلمكم كيف تسألون عن أمور دينكم .... (كتاب التاج الجامع للأصول ج١ ص : ٢٤) .

* واذا انتقلنا الى سيرة الرسول ﷺ ، وأحاديثه الشريفة ، وجدناها زاخرة بالحوار الهادف البناء المعطاء ، ولا عجب فانه معلم الخير المبعوث ليتمم مكارم الأخلاق ، المرسل بالاسلام ، في شريعته الجديدة المديدة ، الانسانية العالمية ، فلا بد له من أن يحاور الشرائع التي سلفت ، وأن يحاور الناس المتصدين له ، المتحدّين لرسالته ، وأن يحاور الصحابة الكرام ليوطد بكل ذلك قواعد رسالته ، ويبين طرق دعوته ويضرب الأمثال ويقرر الأحكام ويضع أسس

الاجتهاد لأمته في حياته . وبعد انتقاله الى الرفيق الأعلى في جوار الله ، لتمضي أبداً على سبيله في محجة بيضاء تدعو الى الله على هدى وبصيرة .

« ان الحوار ركن ركين للتفتح الانساني والازدهار الحضاري ، وقد أكّد ذلك أهل البصائر من العلماء والمفكرين القدامى والمعاصرين على اختلاف مذاهبهم وقد يكون المفيد أن نستشهد في هذا الصدد بما قاله أحد زعماء الماركسية الفرنسيين الأستاذ روجيه جارودي في تعقيبه على المعلقين على محاضرة له كان ألقاها بدار الأهرام في القاهرة أواخر عام ١٩٦٩ عنوانها « الاشتراكية والاسلام » :

... ان فكرة الحوار أساسية . والحوار السليم يفترض التسليم بداءة بأن كل انسان سيجد شيئاً ما يتعلمه من الآخرين ، وأعتقد أن هذا حقيقي بصفة خاصة بالنسبة للماركسيين والمؤمنين ... فالمؤمنون يستطيعون أن يتعلموا من الماركسية مناهج للفاعلية في نضالهم من أجل العدالة .. وبالمقابل فإن الماركسيين يجب عليهم باستيعابهم أسمى القيم الدينية أن يكتسبوا كل أبعادها الروحية .

ولهذا فأنا أعتقد أن هذا الحوار أمر ضروري وهو يتطلب أن يدخل كل واحد الحوار ، لا انطلاقاً من فكرة ، إن عليه أن يقهر الآخر ... بحيث يستوعبه . فهذه ليست المشكلة ، بل أن نستطيع القيام بهذا الحوار الذي سيجعل المسلم أفضل إسلاماً ، والمسيحي أكثر تديناً ، والماركسي أشد ماركسية ، ويستدعي هذا استئصال كل تعصب وطائفية الأمر الذي يؤدي الى وحدة قوى كل الذين يرومون بناء المستقبل ، ولهذا كان الحوار أمراً مطلوباً ... وهو يستدعي وضوحاً وصفاءً كبيرين ولكنه يستدعي قبل ذلك انفتاحاً كبيراً ... انه يتطلب من كل منا القدرة على رفض كل ما يحد رؤيانا » ..

وتحفظنا الوحيد على كلام جارودي هو أن المؤمن بدينه الحق لا يملك أن يساوم على شطر من هذا الدين فيتنازل عنه لقاء تنازل أصحاب المذاهب الأخرى عن شطر من مذاهبهم ، فإن الدين لله ، أمرنا أن نبلغه وندعو اليه بكل الوسائل

المشروعة . ولكننا لا نكره عليه أحداً ، كما لا نتهاون في شيء من أمر ديننا لإرضاء الآخرين ولو أدّى ذلك الى رفضهم ما ندعوهم اليه ؛ فإن الله غني عن العالمين .

أما عندما يكون الحوار بين انسان وانسان فيما لم يرد عنه نص ديني ، فالمجال مفتوح والأخذ بالأمثل بينهما يدعو اليه الشرع ويفرضه العقل . واذا كان للحوار بين جهتين احتمال التآلف والاتفاق . أو التخالف والافتراق فإنه عندما يكون بين دين الله الحق ، وأمّته المؤمنة وبين العقائد والمذاهب الأخرى وأتباعها ، فسيكون — من جانب الاسلام — ولا شك حواراً متآلفاً مع كل ما فيها من خير ، متخالفاً مع كل ما فيها من شر ، لأن الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها التقطها . والاسلام يحاور الحكمة أبداً يحرص عليها ويبحث عنها ويتبنى معطياتها يوظفها في الحياة ويخصب بها حضارته باستمرار .

اخترنا لك من منشورات « دار النفائس » :

الطريق الى المدائن ، أحمد عادل كمال .
(بحث جديد عن فتوح الشرق في صدر الاسلام)

الفتنة ووقعة الجمل ، رواية سيف بن عمر ، تصنيف أحمد راتب عرموش.
(من أقدم الكتب التي تناولت أول خلاف مسلح بين المسلمين بشكل علمي)

نظام الحكم في الشريعة والتاريخ (الإسلامي) ، ظافر القاسمي
(بحث مقارن مع القوانين الوضعية في أهم القضايا)

موطأ الامام مالك ، رواية يحيى بن يحيى الليثي ، شرح أحمد عرموش .
(طبعة أنيقة مع فهارس لأوائل الأحاديث ، والموضوعات ، والكلمات الغريبة ، وتعريف بالرواة)

تاريخ فلسطين القديم ، ظفر الاسلام خان .
(يبحث في تاريخ فلسطين منذ أول غزو يهودي حتى آخر غزو صليبي)

دراسة في السيرة * : ، د . عماد الدين خليل

صور من حياة الصحابة * ، د . عبد الرحمن الباشا
(سلسلة كتب للفتيان والفتيات تتناول أبرز الصور في حياة الصحابة)

(*) صدر بالاشتراك مع مؤسسة الرسالة – بيروت .

هل الإسلام اليوم بحاجة لمجلة جديدة ؟

محفوظ عزام *

لقد كان هذا هو السؤال الذي طرحه الأستاذ الدكتور جمال الدين عطية رئيس التحرير في تقديمه للعدد الأول من مجلة « المسلم المعاصر » .

ونحن نجيب عليه أيضا ، كما أجاب سيادته بكلمة « نعم » .

نعم نحن في حاجة إلى مجلة تلتقي عليها وحولها « جهود كل العاملين في حقل البعث الإسلامي » على مختلف المستويات الشعبية والفردية والجماعية ، وفي مختلف الميادين الفكرية والاجتماعية والسياسية ...

مجلة تنصهر فيها الأفكار والآراء لكي تخرج للناس سليمة مبرأة من الشوائب ، صالحة لمواجهة التحديات المعاصرة .

مجلة تحتك على صفحاتها الاتجاهات المختلفة وتتفاعل وتتبادل الأخذ والعطاء من أجل الوصول إلى قضايا مشتركة وحدود دنيا لما يتم التوصل إليها ،

* المحامي بالقاهرة .

أو بالمعنى القانوني لقدر متيقن ومشترك من الفهم والإدراك والتعاون المتبادل .

مجلة تستطيع أن تدفع الفكر الإسلامي ، والعمل الإسلامي ، والحركة الإسلامية إلى الأمام خطوة أو خطوات في الاتجاه السليم .

مجلة لكل المسلمين ولكل الفئات ولكل المذاهب التي تتطلع إلى البعث الإسلامي .

ومجلة تلك أهدافها وأغراضها ، جديرة بأن تشق الصعاب وأن تتخطى العقبات اذا ما توافر للقائمين عليها الإخلاص والتجرد ، بأن يكون بحثهم واجتهادهم وسعيهم لله ، وللعقيدة . لا لدنيا ولا لمغنم ، ولا لزعامة أو قيادة أو ريادة ، ولا ليقال أنهم كتاب أو أنهم مثقفون أو أنهم طلائع . بل ليعرف عنهم أنهم خدام فكرة وأصحاب رسالة ...

فإذا كان ذلك منهم هو الهدف والمقصد فان الله قد ضمن لهم التوفيق والنصر ، وضمن لكلماتهم التأثير والانتشار ، « والله غالب على أمره ولو كره الكافرون » .

* * *

ولقد عرضت المجلة في عددها الأول لقضايا كثيرة طرحتها للحوار ، من ذلك قضايا الفكر والعقل والتراث والاجتهاد والحركة والحرية والمصطلحات ....

كما عرضت لرأي البعض من موقف الإسلام من اليمين واليسار ومن الديموقراطية وغيرها من المذاهب السياسية والإجتماعية ..

ولقد كانت المجلة فعلا كما ذكر رئيس التحرير محاولة للتعبير عن تيار الحركة الإسلامية المعاصرة بما يحتوي من مدارس شتى ...

ولقد كنت كغيري مشوقاً إلى تلقف هذه المجلة ، باعتبارها تسد فراغاً قائماً في حقل الفكر والإنتاج الإسلامي ، وقمت بقراءتها كلها في جلسة واحدة حرصا مني على متابعة موضوعاتها . وكنت أود أن تكون كلمتي لها مجرد نقد بناء لكل ما اشتملت عليه ، إلا أنني أكتفي في هذه العجالة بالتعليق على بعض

ما ورد بمقال الأستاذ الدكتور جمال الدين عطية رئيس التحرير من تقديمه للمجلة ، باعتبار أن كلمة التحرير ترسم خط السير الذي تسير عليه هذه المجلة والأسلوب الذي تسلكه .

فقد ذكر الدكتور جمال عطية أن المجلة « تهتم بعرض تراث الفكر الإسلامي عرضا جديدا ومقارنة أفكاره ومبادئه بالأفكار والمبادىء القانونية المعاصرة وتأصيل المبادىء القانونية الإسلامية وتنظيرها » .

ولعل الصنعة قد أثرت على الدكتور رئيس التحرير فركز على المبادىء القانونية المعاصرة والمبادىء الإسلامية باعتبار أن سيادته محام كبير ، ودكتور في القانون . والقانون وإن كان هو صنعتي أيضاً إلا أنه ليس سوى أحد العلوم والقضايا التي نريد أن نعرضها على الإسلام باعتباره الأصل الذي تدور حوله كل الجهود .

ولكأن الإسلام متهم في حاجة إلى الدفاع عنه أو هو متخلف في حاجة إلى رد تهمة التخلف عنه ، بأن نضفي عليه من الألفاظ الحديثة والمستحدثة والمصطلحات المعاصرة ما يجدد شبابه .

ولكأن العيب في الإسلام وليس في المسلمين الذين يطلق عليها تجاوزا لفظ المسلمين . ولكأننا يجب أن نوائم بين الإسلام والمبادىء القانونية المعاصرة وأن نخلع على الإسلام أسماء النظريات الشائعة في هذا العصر حتى يكون مقبولا من الناس ....

أو لكأن المبادىء الإسلامية ليست مؤصلة وهي تحتاج إلى تأصيل ... فالإسلام ليس « ديموقراطية » ولا « دكتاتورية » وليس « اشتراكية » ولا « رأسمالية » . ولكن الإسلام هو الإسلام في حقيقته وجوهره ، في أصوله ومعناه ، في طبيعته ونظريته . وهو شريعة خالدة للناس جميعاً ، ولو كان غير ذلك ما كان صالحا لكل زمان ومكان . ولما تحقق فيه قوله تعالى : « أنا نحن نزلنا الذكر وأنا له لحافظون » .

ثم أردف رئيس التحرير : « ... ولا تكتفي بالبحث في ضرورة فتح باب الاجتهاد في فروع الفقه بل تتعداه إلى بحوث الاجتهاد في أصول الفقه » . كما ذكر أيضاً « وبذلك ترجو المجلة أن تسهم في إثراء الفكر الإسلامي بالدعوة إلى الإجتهاد الواعي للأصول والمنفتح على العصر » ...

وأنا أنضم إلى الدكتور محمود أبو السعود في تعليقه حول هذه العبارات وهو التعليق المنشور بالعدد الأول من مجلة « المسلم المعاصر » مكررا تساؤله حول مدى إمكانية الإجتهاد في « أصول الفقه » إذ المقرر أن أصول الفقه قطعية لا « ظنية » على حد تعبير الأصوليين .

والاجتهاد لم يكن قط كلمة تقال أو فتوى تطلق أو حكما يصدر في قضية ، إنما هو قبل كل شيء علم واسع يصدر عن نفس شفافة قوية ملهمة موصوفة بالتقوى والورع محيطة بأمور الدين والدنيا .

ومن رحمة الله على هذه الأمة ، أن علماءها حينما لم تتوافر فيهم شرائط الإجتهاد ، وأحاطت بهم أجواء من الظلام والإستبداد والاختلال والتأخر ، ردوا أنفسهم وحجبوا أنفسهم عن التعرض له . ومع توالي الأيام وتعاقب الأزمان خرج الشرع الإسلامي من حياة المسلمين شيئا فشيئا ، حتى أصبح تراثاً تراخت صلته بحياتهم ينظر إليه على أنه قديم بال .

ومن حقنا أن نتردد في هذه الدعوة ، وأن نقف حيالها خائفين ، لا عن عدم إقتناع بصحة الأساس الذي تقوم عليه بالنسبة « للإجتهاد في الفقه » مع التحفظ بالنسبة « للإجتهاد في أصول الفقه » . ذلك أن الصور التي عشناها ونحياها في العالم الإسلامي المعاصر تجعل من يتصدون لهذا الباب غير أهل لذلك ، فلا هم تتوافر فيهم الشرائط المطلوبة من المجتهد ، ولا الظروف التي تحيط بهم تجعلهم في مأمن من أن يدلوا برأيهم في حرية وصدق ... وقد أمنوا لأنفسهم شرما قد يحيط بهم نتيجة اجتهادهم .

بل لعلنا نلاحظ في بعض الدول الإسلامية ، أن علماءها — مع أننا نرى أن

الإسلام لا يعرف الكهنوت – قد اجتمعوا لسنوات عدة ولم يستطيعوا أن يدلوا برأي في بعض القضايا المعاصرة والموضوعات المعروضة للبحث كموضوع التأمين والادخار وشهادات الاستثمار والفائدة وتحديد النسل وخلافه .... وذلك إن لم يكن عن عجز – ولا نظنه – فهو عن زلفى وقربى إلى حاكم أو سلطان أو نظام حكم لا يستند إلى الشرع الإسلامي .

بل لقد عجز هؤلاء العلماء أن يصلوا إلى تحديد لبعض هذه المشاكل وحسمها في مؤتمراتهم التي عقدت لسنوات متتالية ...

فهل نأمن على الفقه الإسلامي وبالذات « أصول الفقه » أن نسلمه لهؤلاء العلماء لكي يجتهدوا فيه على النحو الذي يرضي العبد ولا يرضي رب العباد ؟؟ وهل نفتح لهؤلاء الأبواب وتمكنهم من أصول ديننا وعقيدتنا ، تحت ستار فتح « باب الاجتهاد » . وهل ننسى أن بعض علماء المسلمين في مصر كانوا يحشدون في ليلة القدر كل عام في دار المندوب السامي البريطاني وقد لبس كل منهم بدلة التشريفة لكي يقدم لمندوب الاحتلال فروض الطاعة والولاء .

وهل ننسى أن بعض علماء المسلمين في مصر كانوا يحشدون في الربع قرن الأخير لكي يدلوا بفتاوى وآراء حول أهم قضايا الإسلام والمسلمين لمصلحة الحاكم سواء كان ملكا أو رئيسا .

وهل ننسى أن الظروف التي تحيط بالعلماء والمتصدين للفقه الإسلامي ما زالت كما هي ، وأن حرية المفكر الإسلامي وحركته ما زالت محل بحث ومراقبة ونظر ...

ولقد كان حرياً بالسادة المطالبين بفتح باب الاجتهاد في أصول الفقه أن يحددوا الموضوعات التي يرون أنها ضرورية لحياتهم المعاصرة وأنها تتعارض مع الأحكام الفقهية المستقرة .

أقول قولي هذا وأنا مؤمن بأن الإسلام قد تميز عن غيره بالوضوح في الأصول العامة ومبادىء الأخلاق السامية ، وأنه ترك الكثير من الأمور للرأي

والاجتهاد ، وذلك إعمالا للقاعدة الشرعية : « حيثما تكون المصلحة العامة والعدل . فثم شرع الله ودينه » .

وأن ذلك لم يكن سببا لضعف شريعته . بل سببا لاستمرار الحياة والخلود لهذه الشريعة وعظمة التفقه فيها .

* * *

وبعـد

أعود إلى ما ذكره الأستاذ رئيس التحرير في تقديمه للعدد الأول من أن هذه المجلة بطابعها الحر « إنما تسعى إلى تآزر جهود كل العاملين في حقل البعث الإسلامي » .

وعملية البعث الإسلامي لا تبدأ إلا بطليعة تعرف دورها وحقيقة وظيفتها ونقطة البدء في طريقها .

طليعة مؤمنة بدعوتها . مدركة لطبيعة هذه الدعوة ، مستهدفة الإسلام بمعنى اسلام العبد لرب العباد ، إسلام الظاهر والباطن .

طليعة تؤمن بأن حضارة الإسلام لم تكن يوماً ما « عربية » انما كانت « اسلامية » ولم تكن « قومية » وإنما كانت دائماً « عقيدة » .

طليعة تؤمن بأنه لا يمكن حل أية مشكلة إسلامية حلا إسلاميا إلا في ظل نظام إسلامي .

فهل تكون هذه المجلة لسان حال هذه الطليعة ؟؟

أرجو ذلك ، والله الموفق .

إمكان الاجتهاد في أصول الفقه

د . مصطفى كمال وصفي *

... ...

والذي أراه في ذلك :

أن المعروف أن علم أصول الفقه يتعلق بالأدلة الشرعية وبأحوال التكليف والمكلف .

وهو بذلك يجوز أن يكون محلا للاجتهاد :

فمن الأدلة الشرعية : ما ورد في القرآن والسنة من النصوص .

وهي محل للاجتهاد الواسع . فقد يرد الاجتهاد عليها من ناحية وصف ما تضمنته من حكم : وهل هو فرض مثلاً أو مندوب أو مباح ؟ ويختلف الرأي في الفروع (التطبيقات العملية) لهذا السبب اختلافا كبيراً .

كما قد يتصور في قراءته كقوله تعالى : « ولا يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به » فمن جعل وقوفا لازما على قوله « إلا الله » جعل الواو

(*) المستشار بمجلس الدولة المصري .

للابتداء ومن لم يجعل وقوفاً جعل الواو للعطف على إسم الجلالة فاختلف المعنى اختلافاً واسعاً . إلا أن ذلك في الغالب مرده الى القراءات ؛ وهي نصوص بأسانيد .

كما قد يرد — بطبيعة الحال — على فهم التفسير والمعاني . وكل ذلك أنتج الآراء المختلفة في الفقه .

ومن الأدلة الشرعية : الأخذ بالمصالح والاستحسان والتحسين والتقبيح العقلي وذلك عند كل من أقر ذلك في المذاهب . وهذا بطبيعة الحال محل واسع للاجتهاد ؛ خاصة وأن نظرية المصالح — وهي أهمها — قد صيغت صياغة فقهية كاملة تبلورت على مدى الأيام ؛ والله أعلم .

* * *

نظرات في العدد الأول

د . يوسف القرضاوي *

عشت مع العدد الأول من « المسلم المعاصر » أياماً ، سعدت فيها بصحبة فكرية لكتابها الأجلاء ؛ وهم نخبة من رجال العلم والفكر والدعوة ، يمثلون عدداً من الاختصاصات والاهتمامات والأوطان ، منهم من حظيت قبل ذلك بمعرفته ولقياه ؛ ومنهم من لم ألقه إلا لقاء الفكر والروح ، وكفى به وشيجة جامعة .

ولا أجدني في حاجة إلى إطراء المجلة وتحريرها ، فمادتها المقروءة تتحدث عنها بما يغني عن إطرائها ، وحسبها أنها مجلة الإسلام والعصر معاً ، فهي تنظر إلى الإسلام بعين ، وإلى العصر بأخرى ، وهي مجلة الحرية البناءة ، فلا تتقيد بسياسة حكومة ، ولا بسياسة جماعة ، ولا تحجر على ذي رأي أن يعلن رأيه من فوق منبرها ، ما دام مبنياً على دراسة ومنهج .

* الأستاذ بكلية التربية . الدوحة . قطر ؛ وصاحب عدة مؤلفات مشهورة .

وبهذه الآراء الحرة ، تتلاقح الأفهام ، وتتبادل الخبرات ، وتنضج الفكرة ، وتتضح الرؤية . وليس في هذا ما يخيف صاحب حق . فإن الضياء لا يخافه إلا الخفافيش ، وقوة الكلمة لا يخافها إلا من يعتمد على قوة العصا ! والخوف من بلبلة الأفكار لا يجوز أن يكون حجة لمنع الكلمة الحرة والنقد البناء من الظهور في مجلة أو كتاب أو محاضرة ، حفاظا على الوحدة ، ومنعاً للفتنة . فإن الوحدة التي تقوم على إغلاق النوافذ ، وإسكات الألسنة ، وتعطيل الأقلام ، إنما هي وحدة من سراب .

على أن هذه المجلة ليست لكل الناس . إنها – كما بدت في غرة أعدادها – مجلة كل من يرتبط بدينه ، ولا ينعزل عن واقعه وزمنه ، إنها مجلة كل من يحب الإسلام عن بينة ، ويؤمن بالعمل له على نور ، وبالدعوة إليه على بصيرة ، والجهاد في سبيله بالفكرة والكلمة ، حتى يعود إلى قيادة الحياة من جديد ، وبنائها على تقوى من الله ورضوان .

ليست مجلة الذين يعيشون في عالم المثل الأفلاطونية من أهل الفكر ، ولا الذين يتقوقعون في محيط الكتب الأكاديمية من أهل العلم ، ولا الذين تستغرقهم دوامة العمل اليومي من رجال السياسة أو الحركة . إنها مجلة الذين يهتمون بالعلم والفكر والحركة جميعا . هؤلاء الذين لا يعملون إلا بعد أن يؤمنوا ، ولا يؤمنون إلا بعد أن يقتنعوا ، ولا يقتنعون إلا بعد أن يدرسوا ويفحصوا ويناقشوا . فليس في دينهم كاهن يقول لهم : « أغمض عينيك ثم اتبعني ! » . وإنما في دينهم نبي يحذر من التبعية « لا يكن أحدكم إمعة » وكتاب يحض على النظر والتفكير « أفلا تتفكرون » « أفلا تعقلون » .

ولا يمنعني إعجابي بالمجلة أن يكون لي معها وقفات أو نظرات ، أو ملاحظات على بعض الموضوعات ، لعل من حق القراء، بل من حق المجلة نفسها أن أسجلها على صفحاتها ، وقد فتحت باب الحوار في أول أعدادها .

حول الاجتهاد :

وأبدأ هذه الوقفات أو النظرات بوقفة أو نظرة عند الكلمة القيمة التي افتتح بها المجلة الدكتور جمال الدين عطية رئيس التحرير . معرفاً بأهداف المجلة وخصائصها وسماتها . وراسماً خطوط سياستها .

ويهمني هنا أن أقف عند نقطة مهمة تتعلق بموضوع ذي خطر ، وهو موضوع الاجتهاد الذي تتبنى المجلة الدعوة إلى ممارسته ، إسهاماً في إثراء الفكر الإسلامي ، وهو الاجتهاد الواعي للأصول ، المنفتح على العصر .

وقد تكرر الحديث عن الاجتهاد في كلمات الأساتذة : عبد الحليم محمد ، د . العوا ، د . أبو السعود ، فتحي عثمان .. وغيرهم من كتاب المجلة . وهذه ظاهرة صحية ، فالجميع يشعرون بهذه الحاجة ، بل بهذه الضرورة الملحة ، ويؤكدون الدعوة إليها بل ممارستها بالفعل . غير متوجسين مما قد ينتج عنها من خطأ في الحكم لا يسلم منه فرد ، أو من اختلاف في الرأي لا تسلم منه جماعة .

والمجلة تنطلق من ضرورة هذا الاجتهاد ، وتتخذه طريقاً فكرياً ، ولا تكتفي بالوقوف عند الاجتهاد في فروع الفقه ، بل تتجاوزه إلى بحوث الاجتهاد في أصول الفقه .

وهنا يقف الدكتور محمود أبو السعود متسائلا : عن « إمكانية » الاجتهاد في « أصول الفقه » مع أن المقرر أن أصول الفقه « قطعية » لا « ظنية » . لأنها راجعة إلى كليات الشريعة ، وهذه الكليات قطعية بلا خلاف ، ولا تحتمل الظنية . كما قرر ذلك الإمام الشاطبي في مقدمة « الموافقات » ، ولا ريب أن الشاطبي رحمه الله بذل جهده لإثبات أن الأصول قطعية ، ولكن ما المراد بالأصول هنا ؟ يحسن بنا أن ننقل من تعليق المرحوم العلامة الشيخ عبدالله دراز على « الموافقات » ما يوضح المقام حيث يقول :

تطلق الأصول على الكليات المنصوصة في الكتاب والسنة : مثل « لا ضرر

ولا ضرار » . « ولا تزر وازرة وزر أخرى » . « وما جعل عليكم في الدين من حرج » « إنما الأعمال بالنيات » ... وهكذا . وهذه تسمى أدلة أيضاً كالكتاب والسنة والإجماع الخ .. وهي قطعية بلا نزاع .

وتطلق أيضاً على القوانين المستنبطة من الكتاب والسنة ، التي توزن بها الأدلة الجزئية عند استنباط الأحكام الشرعية منها . وهذه القوانين هي من الأصول . فمنها ما هو قطعي باتفاق ، ومنها ما فيه النزاع بالظنية والقطعية .

فالقاضي (أبو بكر الباقلاني) ومن وافقه على أن من هذه المسائل الأصولية ما هو ظني ، والشاطبي قد عارض هذا بأدلة ذكرها ، مقرراً في النهاية أن ما كان ظنياً يطرح من علم الأصول ، فيكون ذكره تبعياً لا غير . (أنظر الموافقات ج ١ حاشية ص ٢٩ ط ١ التجارية) .

والذي يطالع علم أصول الفقه يتبين له أن رأي القاضي ومن وافقه هو الراجح . وذلك لما يرى من الخلاف المنتشر في كثير من مسائل الأصول . فهنالك من الأدلة ما هو مختلف فيه بين مثبت بإطلاق ، وناف بإطلاق ، وقائل بالتفصيل . مثل اختلافهم في المصالح المرسلة . والاستحسان . وشرع من قبلنا ، وقول الصحابي ، والاستصحاب وغيرها . مما هو معلوم لكل دارس للأصول .

والقياس وهو من الأدلة الأربعة الأساسية لدى المذاهب المتبوعة ، فيه نزاع وكلام طويل الذيول من الظاهرية وغيرهم .

حتى الإجماع لا يخلو من كلام حول إمكانه ووقوعه ، والعلم به ، وحجيته .

هذا إلى أن القواعد والقوانين التي وضعها أئمة هذا العلم ، لضبط الفهم ، والاستنباط من المصدرين الأساسيين القطعيين : الكتاب والسنة ، لم تسلم من الخلاف وتعارض وجهات النظر ، كما يتضح ذلك في مسائل العام والخاص ، والمطلق والمقيد ، والمنطوق والمفهوم ، والناسخ والمنسوخ .. وغيرها . فضلاً

عما تختص به السنة من خلاف حول ثبوت الآحاد منها . وشروط الاحتجاج بها . سواء كانت شروطاً في المسند أم في المتن . وغير ذلك مما يتعلق بقبول الحديث . واختلاف المذاهب في ذلك أمر معلوم مشهور . تلمس أثره بوضوح في علم أصول الحديث ، كما نلمسه في علم أصول الفقه .

وإذا كان مثل هذا الخلاف واقعاً في أصول الفقه . فلا نستطيع أن نوافق الإمام الشاطبي على اعتبار كل مسائل الأصول قطعية . فالقطعي لا يسع مثل هذا الاختلاف ولا يحتمله ، ومن ثم ألف العلامة الشوكاني كتابه الذي سماه «إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول» محاولاً فيه تمحيص الخلاف ، وتصحيح الصحيح . ونبذ الضعيف ، وقال في مقدمته :

« إن علم أصول الفقه لما كان هو العلم الذي يأوي إليه الأعلام . والملجأ الذي يلجأ إليه عند تحرير المسائل . وتقرير الدلائل . في غالب الأحكام ، وكانت مسائله المقررة . وقواعده المحررة . تؤخذ مسلمة عند كثير من الناظرين . كما تراه في مباحث المباحثين ، وتصانيف المصنفين . فإن أحدهم إذا استشهد بكلمة من كلام أهل الأصول ، أذعن له المنازعون . وإن كانوا من الفحول . لاعتقادهم أن مسائل هذا الفنّ قواعد مؤسسة على الحق الحقيق بالقبول ، مربوطة بأدلة علمية (أي يقينية) من المعقول والمنقول ، تقصر عن القدح في شيء منها أيدي الفحول ، وإن تبالغت في الطول . وبهذه الوسيلة صار كثير من أهل العلم واقعا في الرأي رافعاً له أعظم راية . وهو يظن أنه لم يعمل بغير علم الرواية — حملني على ذلك — بعد سؤال جماعة لي من أهل العلم — على التصنيف في هذا العلم الشريف . قاصداً به إيضاح راجحه من مرجوحه ، وبيان سقيمه من صحيحه . موضحاً لما يصلح منه للرد إليه . وما لا يصلح للتعويل عليه . ليكون العالم على بصيرة في علمه يتضح له بها الصواب ، ولا يبقى بينه وبين درك الحق الحقيق بالقبول حجاب ... لأن تحرير ما هو الحق هو غاية الطلبات . ونهاية الرغبات . لاسيما في مثل هذا الفن الذي رجع كثير من المجتهدين بالرجوع إليه إلى التقليد من حيث لا يشعرون ، ووقع غالب

المتمسكين بالأدلة بسببه في الرأي البحت وهم لا يعلمون » . ا هـ (أنظر إرشاد الفحول ص ٢ ، ٣ ط السعادة) .

وبهذا كله يتضح أن للاجتهاد في أصول الفقه مجالاً رحباً ، هو مجال التمحيص والتحرير والترجيح فيما تنازع فيه الأصوليون من قضايا جمة ، ومحاولة الشوكاني « تحقيق الحق » منها لا يعني أنه لم يدع لمن بعده شيئاً . فالباب لا يزال مفتوحاً لمن وهبه الله المؤهلات لولوجه ، ولكل مجتهد نصيب ، وقد يتهيأ للمفضول ما لا يتهيأ للفاضل .

وهناك مسائل تتعلق بالأصول تحتاج إلى مزيد إيضاح وتفصيل ، ومن ذلك تقسيم السنة إلى تشريعية وغير تشريعية ، وهو موضوع مقالة الدكتور العوا . وإنه لجدير بالاهتمام ، وخليق بأن يكون موضوعاً لرسالة « دكتوراه » في أصول الفقه . وقد عرضت له — تطبيقاً — في مواضع من « فقه الزكاة » .

ومن ذلك الإجماع إذا كان مبنياً على أمر مصلحي زمني قابل للتغير والتطور بتغير الزمان والمكان والحال .

وهذا يجر إلى قضية أخرى ، وهي قضية « تغير الأحكام أو تغير الفتوى بتغير الأزمان » وما ينبغي أن يوضع لها من حدود وضوابط . وقد كتبت فيها بحثاً أرجو أن أستكمله لينشر في هذه المجلة إن شاء الله .

إلى غير ذلك من القضايا والموضوعات التي يكشف عنها طول البحث والنظر في الفقه وأصوله وتطبيقاته في هذا العصر .

وهذا كله يفسح الميدان لدعاة الاجتهاد ، ولو كان في أصول الفقه ذاتها .

على أن الذي نحتاج إليه أكثر من غيره هو الاجتهاد في الفقه . فهو ضرورة لا غنى عنها ، لإثبات صلاحية الشريعة الإسلامية وعمومها وخلودها . وقد كتبت في ذلك فصلاً ضافياً ، من كتابي « شريعة الإسلام .. صالحة للتطبيق في كل زمان ومكان » بينت فيه ما يجب أن يكون عليه موقف المجتهد العصري من النصوص ، (وخصوصاً من السنة) ومن التراث الفقهي ، ومن المسائل الجديدة. (راجع شريعة الإسلام : ص ١٠٣ — ١٥٨) .

أمور يجب رعايتها عند ممارسة الاجتهاد :

وأودّ أن أنبّه هنا على بعض الحقائق التي ينبغي أن تراعى عند ممارسة الاجتهاد :

أولا : يجب أن نذكر أن مجال الاجتهاد هو الأحكام الظنية الدليل ، أما ما كان دليله قطعياً فلا سبيل إلى الاجتهاد فيه . وإنما تأتي ظنية الدليل من جهة ثبوته أو من جهة دلالته ، أو من جهتهما معاً .

فلا يجوز إذن فتح باب الاجتهاد في حكم ثبت بدلالة القرآن القاطعة : مثل فرضية الصيام على الأمة أو تحريم الخمر . أو لحم الخنزير ، أو أكل الربا ، ومثل توزيع تركة الأب الميت بين أولاده للذكر مثل حظ الانثيين ، ونحو ذلك من أحكام القرآن اليقينية . التي أجمعت عليها الأمة ، وأصبحت معلومة من الدين بالضرورة ، وصارت هي عماد الوحدة الفكرية والسلوكية للأمة .

ثانيا : يتمم هذا ألاّ ننساق وراء المتلاعبين الذين يريدون تحويل محكمات النصوص إلى متشابهات قابلة للأخذ والردّ ، والإرخاء والشد ، فإن الأصل في هذه المحكمات أن تردّ إليها المتشابهات وترجع إليها المحتملات ، فتكون هي الحكم عند التنازع ، والمقياس عند الاختلاف ، فإذا أصبحت هي الأخرى موضع خلاف ، ومحل تنازع ، لم يعد ثمة مرجع يُعوّل عليه ، ولا معيار يحتكم إليه .

ثالثاً : يجب أن تظل مراتب الأحكام كما جاءتنا . القطعي يجب أن يظل قطعياً ، والظني يجب أن يستمر ظنيا . فكما لم نجز تحويل القطعي إلى ظني ، لا نجيز أيضاً تحويل الظني إلى قطعي ، وندعي الإجماع فيما ثبت فيه الخلاف . مع أن حجية الإجماع ذاته ليست موضع إجماع !

فلا يجوز أن نشهر هذا السيف — سيف الإجماع المزعوم — في وجه كل مجتهد في قضية . ملوّحين به ومهددين ، مع ما ورد عن الإمام أحمد أنه قال :

من ادعى الإجماع فقد كذب . وما يدريه ! لعل الناس اختلفوا وهـو لا يعلـم !

وإذا كان في مخالفة الإجماع ذاته كلام ، فكيف بمخالفة المذاهب الأربعة . التي يشنع بها كثيرون اليوم ، كما شنعوا على ابن تيمية من قبل ؟ مع أن أحداً من علماء المذاهب الأربعة لم يقل : ان اتفاقها حجة شرعية . ولو قالوه لم يعتبر قولهم ، لأنهم خالفوا فيه أئمتهم من ناحية ولأنهم مقلدون من ناحية أخرى . والمقلَّد لا يقلَّد . أما أئمة المذاهب أنفسهم فقد حذروا من تقليدهم ، ولم يدعوا لأنفسهم العصمة .

رابعاً : ينبغي أن نحذر من الوقوع تحت ضغط الواقع القائم في مجتمعاتنا المعاصرة ، وهو واقع لم يصنعه الإسلام بعقيدته وشريعته وأخلاقه ، ولم يصنعه المسلمون بإرادتهم وعقولهم وأيديهم ، إنما هو واقع صُنع لهم ، وفرض عليهم ، في زمن غفلة وضعف وتفكك منهم ؛ وزمن قوة ويقظة وتمكن من عدوهم المستعمر ، فلم يملكوا أيامها أن يغيروه أو يتخلصوا منه ، ثم ورثه الأبناء عن الآباء . والأحفاد عن الأجداد ، وبقي الأمر كما كان .

فليس معنى الاجتهاد أن نحاول تبرير هذا الواقع على ما به ، وجرّ النصوص من تلابيبها لتأييده ، وافتعال الفتاوى لإضفاء الشرعية على وجوده ، والاعتراف بنسبه مع أنه دعيّ زنيم .

إن الله جعلنا أمة وسطاً لنكون شهداء على الناس ، ولم يرض لنا أن نكون ذيلاً لغيرنا من الأمم ، فلا يسوغ لنا أن نلغي تميزنا ، ونتبع سنن من قبلنا شبراً بشبر وذراعاً بذراع ، وأدهى من ذلك أن نحاول تبرير هذا وتجويزه بأسانيد شرعية ، أي أننا نحاول الخروج على الشرع بمستندات من الشرع ، وهذا غير مقبول .

خامساً : لا ينبغي أن نجعل أكبر همنا مقاومة كل جديد ، وإن كان نافعاً ، ولا مطاردة كل غريب وإن كان صالحاً ، وإنما يجب أن نفرق بين ما

يحسن اقتباسه وما لا يحسن . وما يجب مقاومته وما لا يجب . وأن تميز بين ما يلزم فيه الثبات والتشدد . وما نقبل فيه المرونة والتطور .

ومعنى هذا أن نميز بين الأصول والفروع ، بين الكليات والجزئيات ، بين الغايات والوسائل . ففي الأول نكون في صلابة الحديد . وفي الثانية نكون في ليونة الحرير ، كما قال إقبال رحمه الله . مرحبين بكل جديد نافع ، ومحتفظين بكل قديم صالح .

سادساً : ولا بدّ لنا – لكي ينجح الاجتهاد – أن نتوقع الخطأ من المجتهد ، إذ لا عصمة لغير نبي ، وأن نفسح له صدورنا ، وألا نشدد النكير على من أخطأ في اجتهاده ، ونتهمه بالزيغ والمروق وما إلى ذلك من النعوت ، وذلك بشرطين :

١ – أن يملك أدوات الاجتهاد – وهي معروفة مذكورة في أصول الفقه – فليس كل من اشتغل بالفقه أو ألّف فيه أو حفظ مجموعة من الأحاديث يُعدّ مجتهـــدا .

٢ – أن يكون عدلاً مرضيَّ السيرة . وهو ما يطلب في قبول الشاهد في معاملات الناس ، فكيف بقبول من يفتي باجتهاده في شريعة الله ؟

أما أدعياء الاجتهاد ، الذين لا يملكون إلا الجراءة على النصوص ، والاستهانة بالأصول ، وإتيان البيوت من غير أبوابها ، فهؤلاء يجب أن يرفضوا ، حفاظا على قداسة الدين ، وحرمة الشريعة ، أن تتخذ سلّما للشهرة ، أو مطية للوصول إلى دنيا ظاهرة ، أو إشباع شهوة خفية .

حول أزمة العقل المسلم المعاصر :

ووقفة أخرى حول الخواطر التي سجلها الأستاذ عبد الحليم محمد عن «أزمة العقل المسلم المعاصر» وهي نتاج معاناة ودراسة ، وتأمل طويل ، وتفكير عميق ، وقد عرضت لأمور وحقائق بالغة الدقة ، عظيمة الخطر ، بعيدة الأثر ، تستحق أن يعقب عليها أكثر من كاتب .

نعمة العقل ونعمة الوحي :

أشاد الكاتب بنعمة العقل . واعتبره النعمة التي تلي نعمة الإيمان . ونوه بما جاء به الدين من تحرير للعقل من بين الأثقال . ولكنه ندّد بـــ « ورثة الدين المقلدين » الذين يحجرون على العقل ويذلونه بتضييق نطاق عمله . أو بإهمال تغذيته .. أو بتقديس السابقين .. أو بالتأثم من الخطأ . وهو يعني أن لا اجتهاد ولا إبداع . إذ لا اجتهاد ولا إبداع دون خطأ هنا أو هناك .

قال : وكأن ورثة الدين لم يعلموا أن المجتهد إذ كان بحاجة إلى الطمأنينة والأمن من العذاب إذا هو أخطأ . فقد أعطاه الله حاجته وفوق حاجته . إنه طلب الأمن : فزاده الله مع الأمن الأجر .. « إن أخطأ فله أجر ، وإن أصاب فله أجران » رواه مسلم ا. ﻫ ص ١٣ .

وأحب أن أذكر هنا : أن العقل نعمة كبرى ولا شك . ولكن أكبر منه وأعظم نعمة الوحي . ولهذا كانت حاجة البشر إلى رسالة الرسل مع وجود عقولهم .. وكثير من الذين انحرفوا وابتدعوا كان سبب انحرافهم تحسين الظن بعقولهم كما بين ذلك الإمام الشاطبي في « الاعتصام » فلنحذر من الغلو أيضاً في تقديس العقل .

أما التأثم من الخطأ فليس جرماً . فالأمر أمر دين يتعلق به جنة ونار ، والذي يفتي في الدين إنما « يوقّع عن رب العالمين » كما يقول الإمام ابن القيم ، فلا بد أن يتريث ويتوقف حتى تنضج المسألة ، ويتضح له وجهها . ولهذا رأينا من الصحابة والتابعين وكبار الأئمة من إذا سئل ، قال : لا أدري .

وإثابة المجتهد على خطئه لا تمنع من التأثم لوجوه :

الأول : أن هذا في شأن من كان من أهل الاجتهاد ، أما من أقحم نفسه على هذا الميدان وهو ليس من أهله ، فليس له أن يطمع في الأجر ، وهذا ما يخيف أهل العلم : الا يكونوا قد بلغوا الدرجة التي تسمح لهم بالاجتهاد .

الثاني : أن الاجتهاد يعني « استفراغ الوسع » في فهم القضية والاستدلال لها . والعالم — من ورثة الدين المقلدين — يخشى أن يكون قد قصر بعض التقصير ، أو ادخر بعض الوسع . فهو لهذا لا يأمن العقوبة .

الثالث : أن للهوى إلى النفس مسارب ومداخل خفية ، يزينها الشيطان بأغلفة شتى ، فهو يخشى أن يكون في اجتهاده قد اتبع هوى خفيا وهــو لا يشعر .

وبهذا نرى أن التأثم كثيراً ما يرجع إلى الضمير ، أكثر مما يرجع إلى العقل ، على أن الغلو في التأثم لا يؤدي إلا إلى الجمود ، وهو ما نوافق الكاتب على إنكـــاره .

بقي هنا شيء وهو نسبة الحديث إلى « مسلم » . مما يوهم أنه مما انفرد به . مع أنه مما اتفق عليه الشيخان . ومثله حديث « مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم .. الخ فهو متفق عليه أيضاً ، كما أن نسبة الحديث إلى مصدر مع وجوده في مصدر أعلى منه مما يعيبه علماء هذا الفن .

العقل المعاصر والبحث في تراث السلف :

ويقول الأستاذ عبد الحليم في ص ٢٠ :

« كلما أثيرت قضية من قضايا عصرنا ، قال ورثة الدين : لننظر هل حدث مثل هذا في عصور أسلافنا ؟. أو قالوا : لننظر ماذا قال الأئمة السابقون في هذه القضية ؟ . وقد نسي ورثة الدين أن لكل عصر خصائصه وظروفه ، وأن لكل عصر عماله وجنوده وكتابه وتجاره وحكامه ، كما أن له علماءه وأئمته ، وكما يحكم التجار والعمال والكتاب ظروف العصر ، كذلك يحكم العلماء والمفتون والأئمة ظروف العصر أيضاً » .

والمقصود من هذا الكلام واضح حسبما ذكر بعد ، وهو ألا نحجر على علماء عصرنا ، ولا نهوّن من قدرهم ، ولا نسد في وجوههم باب الاجتهاد

والإبداع ، ولكن المقدمة المذكورة ليست لازمة للوصول إلى هذه النتيجة ، فهي مقدمة غير سالمة ولا مسلّمة .

فإن البحث في تراث الأسلاف عن نظير لما وقع للأخلاف ليس عيباً ، ودراسة وجهات نظرهم في القضية المطروحة — إن وجدت — ليس خطأ . بل العيب والخطأ هو إهالة التراب على ميراث ضخم خلفته لنا عقول كبيرة ، طيلة قرون عديدة ، والبدء من جديد كأنما ولدنا الساعة !

هذا مع أن الأحداث والوقائع تتشابه ، رغم بعد المسافة الزمنية بينها ، وذلك لتشابه الظروف المهيئة لها ، أو الدوافع الداعية إليها ، وهو ما قرره القرآن في مثل قوله : « كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم ، تشابهت قلوبهم » . وهذا ما جعل العرب يقولون من قديم : ما أشبه الليلة بالبارحة ! وما جعل الغربيين يقولون في ذات المعنى : التاريخ يعيد نفسه !

ولهذا نرى العلماء لا يبدؤون من فراغ ، ولا يبنون على هواء ، وإنما يشيد اللاحق على ما بناه السابق ، يكمل نقصه ، أو يصوب خطأه ، أو يوضح غامضه ، أو يضيف إليه جديداً من عنده . وهذا واضح في مجال العلوم الكونية والعلوم الإنسانية جميعاً . وقد أثبته تاريخ العلم بجلاء .

ولا زلنا نرى رجال القانون في عصرنا من قضاة ومحامين يستشهدون بالسوابق القضائية ، يذكرونها في أسباب الحكم ، أو حيثيات الدفاع .

صحيح أنه لا يلزم علماء العصر أن يأخذوا باجتهادات السابقين ، لأنها ليست نصوصاً ملزمة ، وإنما هي أفكار بشر ، يؤخذ من كلامهم ويترك ، ولكن من اللازم أن ندرسها ونستنير بها ، ونعرف ما استندت إليه من نصوص نقلية ، أو حجج عقلية ، أو اعتبارات مصلحية ، فإذا اقتنعنا بها — وكثيراً ما يحدث — فقد وفرنا على أنفسنا جهداً جديداً نبذله في غير طائل ، ووصلنا حاضرنا بماضينا ، ووفينا بحق أسلافنا ، وازددنا اطمئناناً إلى سلامة موقفنا .

وإذا لم نقتنع باجتهاد من سبقونا ، فلا علينا ، فعصرنا غير عصرهم ،

وظروفنا غير ظروفهم . وهم أنفسهم كثيراً ما خالف بعضهم بعضا لا لشيء إلا لاختلاف العصر والظروف ، كما في بعض مواضع خلاف الصاحبين أبي يوسف ومحمد لشيخهما أبي حنيفة . وهو الذي يقولون فيه : هذا اختلاف عصر وزمان لا اختلاف حجة وبرهان .

عنصر الصراع في الحضارات :

وتحت عنوان « النظرة الخاطئة إلى تاريخ العالم » (ص ٢٤) يكاد ينكر الكاتب عنصر الصراع بين الحضارات . مؤكداً أن جوهر العلاقة بين الحضارات هو التفاعل والتبادل لا الصراع .

ولا أدري لماذا ننكر الصراع بين الحضارات المختلفة مع أن الصراع حقيقة قائمة في الكون كله ؟ هناك صراع الأفراد ، وصراع الطبقات ، وصراع اللغات ، وصراع الأديان ، وصراع الأفكار ، بل هناك بين الحيوانات ما سمي في « التاريخ الطبيعي » صراع البقاء ! فلماذا نخص بالنفي صراع الحضارات ؟ وهل الحضارة إلا دين وفكر وثقافة ؟ وهذه كلها داخلة في حلبة الصراع . والكاتب نفسه قد اعترف بذلك حين تحدث عن فترة القلق التي نعيشها بين إرث القرون الماضية ، والتحدي الحضاري الكبير في عصرنا ، وأنه لا سبيل لتجاوزها دون مواجهة عقلية إيجابية ، بل وصراع عقلي طويل المدى (ص ٢١) .

على أن الصراع لا يعني إعلان الحرب ، وشحذ الأسلحة ، واصطفاف الجانبين للقتال ، فكثيراً ما يكون الصراع « سلمياً » لا يشهر فيه سلاح ، ولا يسقط فيه قتيل ، إنما هو صراع هادىء خفي طويل الأمد ، عميق الأغوار .

ولقد عرف تاريخنا شيئاً من ذلك في صراع العقيدة الإسلامية مع عقائد التتار الوافدين الغالبين المنتصرين . فقد انتهى هذا الصراع السلمي — بعد أن أغمدت السيوف ، وخمدت نيران الحرب — باعتناق الغالبين دين المغلوبين !

ومنذ دخول الاستعمار بلاد المسلمين و « الصراع بين الفكرة الإسلامية

والفكرة الغربية » قائم ومستمر في شتى الميادين ؛ وهو صراع كسبت فيه الفكرة الغربية جولات كثيرة ، وخسرت فيه الفكرة الإسلامية — للأسف — في عدة جبهات : في الثقافة ، والتربية ، والتشريع ، والتقاليد ، على درجات متفاوتة بين أقطار العالم الإسلامي . (راجع في ذلك الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية للعلامة السيد أبي الحسن الندوي نشر دار القلم — الكويت) .

المسلمون الأوائل والانحرافات :

وفي ص ٢٦ يقول :

« المسلمون الاوائل قد صنعوا فعلا كل شيء ؛ ففي الجانب الايجابي صنعوا التفاسير لشرح القرآن ، وصنعوا مصطلح الحديث لضبط السنة ، وصنعوا أصول الفقه لضبط قواعد الاستنباط ... وفي الجانب السلبي صنعوا كل الانحرافات والخرافات ، سواء خرافات الغيب ، أو خرافات العبادة ، أو خرافات الأخلاق ، أو خرافات الأحكام » .

أما الشق الأول فصحيح ولا جدال فيه ، وأما الشق الثاني فغير مسلم . فالذين صنعوا التفاسير والمصطلح والأصول وغيرها ليسوا هم الذين صنعوا « كل الانحرافات والخرافات » في تاريخنا . وبخاصة أن عبارة « المسلمون الأوائل » يفهم منها القرون الأولى التي هي خير قرون الأمة .

أهي حضارة غربية أم حضارة عالمية ؟

وتحت عنوان « ماذا تعني الحضارة الغربية اليوم ؟ » ص ٢٨ يذكر الكاتب أن الحضارة الحديثة يمكن اعتبارها حضارة العالم بأسره ، لا حضارة أمة بعينها ولا مجموعة أمم . ولا يجرح هذه الصفة العالمية أن أوربا الغربية كان لها فضل سبق أو فضل عطاء . فشعوب الأرض كلها أخذت تسهم في تغذية هذه الحضارة ، وإن بدرجات متفاوتة .. الصين واليابان أضحى لهما دور كبير ..

والشعوب النامية لها إشعاع ما .. الخ ..

ولكن الذين ينسبون هذه الحضارة إلى الغرب يقصدون جذورها وفلسفتها وطابعها العام . فهي في هذا كله غربية .

وسواء سميناها هذه الحضارة غربية أم عالمية . فإن سمتها الأصلية والغالبة واضحة معروفة وهي « المادية » . وهذا ما جعل كثيراً من المفكرين الغربيين أنفسهم ينقدونها ، ويشكون من خوائها الروحي ، ويخافون عليها السقوط القريب . ومن يقرأ كتابات توينبي والكسيس كاريل وكولن ويلسون وغيرهم ، يجد من ذلك الكثير .

ولا غرو أن يقف « ورثة الدين » من هذه الحضارة موقف المتوجس المتخوف ، لما تحمله بين حناياها من مفاهيم وتقاليد خطيرة على الفرد وعلى الأسرة وعلى المجتمع كله . فهي حضارة تعمر الأرض وتخرب الإنسان .

ومن الخطأ البين أن تنسب هذه الحضارة إلى المسيحية ؛ لأنها نشأت في بلاد مسيحية ، فالحقيقة أنها هي والمسيحية على طرفي نقيض في الفكر والسلوك . إنها ليست حضارة المسيح بن مريم ، وإنما هي حضارة المسيح الدجال ، فهو أعور ، وهي حضارة عوراء ، تنظر إلى الحياة من ناحية واحدة فقط وهي الناحيـــة الماديـــة .

ليس معنى هذا أننا نرفض الحضارة الغربية بكل جوانبها ، كلا . فإن فيها جوانب مضيئة بلا ريب .. الجوانب « العلمية » و « التكنولوجية » و « التنظيمية» أو « الإدارية » لا حرج في اقتباسها والاستفادة منها ، بل لا مفر من ذلك ، والحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق بها . وقد اقتبس الغربيون منا من قبل أسس « المنهج العلمي » كما ذكر ذلك « بريفولت » وغيره من مؤرخيهم . . فلا بأس أن نسترد منهم بعض بضاعتنا ، شاكرين لهم ما أضافوه إليها ، فالرفض البات أو الانعزال موقف غير سليم ، بل غير مستطاع أيضاً .

ومثله القبول المطلق لهذه الحضارة بحيث نأخذها « بخيرها وشرها ، وحلوها

ومرها . ما يحب منها وما يكره . وما يحمد منها وما يعاب » كما قال قائلون في يوم من الأيام .

اليسار المسلم والوسط المسلم :

وفي مقال الكاتب الإسلامي المعروف الأستاذ فتحي عثمان ، يتوقع أن تكون هذه المجلة لسان « اليسار الإسلامي » متابعة للاصطلاح الحديث في تقسيم القوى والجماعات والأفكار ..

ويرى الكاتب أن الإسلام مظلوم حين يوضع دائماً مع « اليمين » لمجرد أنه دين .. وأن منهج القرآن لتوجيه الإنسان في هذا المجال يجعل المسلم في (قلب) اليسار . فالمسلم يحارب الظلم الاجتماعي والسياسي ، ويجاهد دائماً لأجل كرامة الإنسان .

ويعجب الكاتب أن يسمع الناس عن (اليسار الكاثوليكي) أو (اليسار المسيحي) بوجه عام في حين تصنف الأفكار والحركات الإسلامية دائماً مع قوى اليمين ..

وأنا مع الأستاذ فتحي : أن من الظلم وضع الإسلام دائماً مع «اليمين» وكذلك وضع الحركات الإسلامية ، في حين أنها رفعت شعار الحق والقوة والحرية ، وجاهدت من أجل الكرامة الإنسانية والعدالة الاجتماعية من أول يوم ، ولم تبخل بتقديم الضحايا والشهداء في سبيل معركتها لتحرير الإنسان .

كما أني أوافق الكاتب — في الجملة — في مضمون ما كتبه عن (اليسار المسلم) .

ولكني أبدي تحفظي على استخدام مثل هذه المصطلحات في المجال الإسلامي خشية أن يساء فهمها ، أو يشوه وجهها . ذلك أن لهذه الكلمات « اليسار المسلم » « الاشتراكية الإسلامية » « الديمقراطية الإسلامية » نضحها وإيحاءها ، ونظراً لما وراءها من « مضامين » مخالفة في جوهرها لمضمون

الإسلام . فالشعب في نظر الديمقراطية مثلا هو مصدر السلطات بإطلاق ، بينما هو في الإسلام رقيب على السلطات . كما قال رئيس التحرير بحق .

ورأيي الذي تبنيته . ودللت عليه في الجزء الثاني من كتابي « حتمية الحل الإسلامي » ألا نتخذ لهذا الحل عنواناً غير الإسلام نفسه ، من اشتراكية أو ديمقراطية أو غيرها لاعتبارات وأسانيد لا مجال لذكرها الآن (راجع « الحل الإسلامي فريضة وضرورة » ص ١١٥ — ١١٨) .

ولقد أوذي المرحوم الدكتور مصطفى السباعي كثيراً من جراء عنوان كتابه « اشتراكية الإسلام » من قبل المتشددين الذين قاوموا الكتاب لمجرد اسمه ، وربما لم يقرأوه ، ومن قبل بعض الحكومات التي استغلت اسم الكتاب وطبعته أكثر من مرة . ترويجاً لاتجاهها ، وإن لم تؤيد كل ما فيه .

فإذا كانت كلمة (اليمين) مكروهة لدى فئة كبيرة من الناس . فإن كلمة (اليسار) مخيفة ومكروهة أيضاً لدى فئة أو فئات أخرى .

ولعل الأسلم من هذا والأعدل : ألا تقف الحركة الإسلامية في صف اليمين ولا صف اليسار . إنما تقف حيث أوقفها الله تعالى : في الموقف الوسط بين إفراط هؤلاء وتفريط أولئك « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس » .

وإن لهذه « الوسطية » لمزايا جمة : نظرية وعملية ، لو أحسنا الانتفاع بها .

بيد أن على الحركات الإسلامية — بعد ذلك — أن تزيل الغموض عن أفكارها واتجاهاتها . وأن توضح للناس — ولأصحابها قبل ذلك — مواقفها من الأوضاع والأنظمة والمذاهب والأفكار والقضايا الكبرى .

أما اتهام الحركة الإسلامية باليمينية ، فليس مصدره الجهل بحقيقة اتجاهها ، أكثر مما هو القصد إلى تشويه فكرتها ، وإثارة الغبار حولها ، والتحقير من جهادها وجهودها ، في مقاومة المظالم والفساد . هذا مع أنها لقيت من « اليمين » من صنوف العذاب ، وألوان الاضطهاد ما لم يلقه « اليسار » الصريح .

وقد أعجبني من الدكتور أبي السعود بحثه عن أصول العبارات ، وعنايته بصحة الكلمة . وسلامة التعبير ، بحيث يوافق المسموع من لسان العرب ، والمحرر من قواعد اللغة . وهذا ما يجب أن يراعيه كل كاتب عربي يحترم لغته ونفسه وقراءه .

ولا غرو أن رفض الأستاذ الأخطاء الشائعة مثل كلمة « تقييم » بمعنى تعيين القيمة ، إذ الصواب فيها « تقويم » لأن الياء في مادة « قيمة » أصلها «واوي» كما هو معروف . وإن كنت قرأت منذ سنين مقالاً لباحث لغوي معاصر ، أجاز فيه استعمال اللفظ الشائع « تقييم » ولا أذكر الآن ما استند إليه . لكني أعلم أن أهل الفتوى في اللغة كأهل الفتوى في الشريعة ، منهم المبالغون في الترخص ، ومنهم المغالون في التشدد ، ومنهم المتوسطون ؛ وخير الأمور الوسط .

ورأيي هو وجوب المبادرة إلى تصحيح الأخطاء الشائعة ، وإشاعة الصواب بدلاً منها ، وبذلك يموت الخطأ ، ويحيا الصواب . وأجهزة الإعلام العصرية قادرة على أن تؤدي دوراً خطيراً في ذلك ، بحيث تشيع الكلمة المهجورة على الألسنة والأقلام في مدة وجيزة ، فتألفها الأسماع والعقول ، وتتلقاها بالقبول .

أما القول بأن « الخطأ المشهور » خير من « الصواب المهجور » فهو قول مرفوض ؛ لأنه قول « انهزامي » فهو يدعو إلى الاستسلام للواقع ، والتسليم بالخطأ ، وإعطائه حق البقاء والاستمرار ، لا لشيء إلا لشيوعه وانتشاره .

ولو ساغ هذا في مجال اللغة لساغ نقله في مجالات أخرى ، كالدين والفكر والأخلاق ، وهذا ما لا يقبل ، ولا يقول به عاقل .

وتوقف الأستاذ في كلمات أخرى غدت تتداولها أقلام كثير من كتاب العصر ، وهي « التنظير » و « التحديث » و « الهوية » .

وأبادر فأقول : إن كلمة « الهُويّة » ليست من مستحدثات المعاصرين ؛ بل هي من الكلمات « الاصطلاحية » المستخدمة من قديم ، لدى علماء المنطق والفلسفة وعلم الكلام ؛ وهي منسوبة إلى ضمير الغائب « هو » شأنها شأن كلمة « ماهية » نسبة إلى « ما هو ؟ » أو « ما هي ؟ » (ويعرفها علماء الكلام والفلسفة بقولهم : ما به الشيء هو هو) .

ومعنى « الهوية » لشخص أو شيء ما ، حقيقته التي تميزه عن غيره . وقد أثبت ذلك « المعجم الوسيط » (ج ٢ ص ١٠٠٨) . واستعمال الكلمة للبطاقة الشخصية (في بعض البلاد العربية) مأخوذ من هذا المعنى أيضاً ، لأن فيها ما يثبت « هوية » صاحبها ويميزه عن غيره .

* * *

صدر حديثاً عن « دار البحوث العلمية » بالكويت :

* **دستور الأخلاق في القرآن** ، الدكتور محمد عبدالله دراز
(عربه عن الفرنسية الدكتور عبد الصبور شاهين وراجعه الدكتور السيد محمد بدوي)

* **مبادىء الثقافة الاسلامية** ، الدكتور محمد فاروق النبهان ، جامعة الكويت.

* **التربية الاسلامية وطرق تدريسها** ، عبد الرشيد عبد العزيز سالم ، معهد التربية للمعلمين ، الكويت .

* **همع الهوامع في شرح جمع الجوامع** ، (الجزء الثاني) ، الامام جلال الدين السيوطي ، تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون والدكتور عبد العال سالم مكرم ، جامعة الكويت

* **مقدمة في النقد الأدبي** ، د. محمد حسن عبدالله ، جامعة الكويت

* **فنون بلاغية (البيان والبديع)** ، الدكتور أحمد مطلوب . جامعة الكويت.

* **المرجع في قواعد اللغة الفارسية** ، الدكتور أحمد كمال الدين حلمي ، جامعة الكويت.

* **السلاجقة** ، الدكتور أحمد كمال الدين حلمي ، جامعة الكويت .

(*) تطلب جميع هذه الكتب من الناشر بالكويت ص. ب. ٢٨٥٧ والشركة المتحدة للتوزيع ص. ب ٧٤٦٠ بيروت .

نَقْد العَدَد المَاضِي

محي الدين عطية *

(١) خواطر حول أزمة العقل المسلم المعاصر :

للاستاذ عبد الحليم محمد أحمد

كاتب هذه الخواطر الأستاذ عبد الحليم محمد أحمد ، عرفناه من رجال التاريخ — دراسةً وتخصصاً ، ومن رجال التربية — مهنةً وممارسةً ، ومن رجال النشر — رسالةً وفكراً . ونعرفه اليوم مفكراً حمل القلم بعد طول بحث ومعاناة .

أطلق الكاتب صرخته لتحرير العقل المسلم من الأثقال ، فبدت وكأنها كانت محتبسة زمناً طويلاً ، حال بينها وبين الانطلاق حائل ، ثم أطلقت مخزونها إلى القارىء مرة واحدة ، وكأنها تخشى أن يحول بينها وبينه حائل جديد .

لقد أخذ الكاتب الفاضل شهيقاً طويلاً ، ثم حدثنا عن الدين والعقل

---

* مدير دار البحوث العلمية للنشر والتوزيع . الكويت .

والتراث والحضارة والفكر الإنساني وتاريخ العالم في زفير واحد . وكنت أستحسن له أن يتناول من بين هذه القضايا قضية واحدة ، يطرحها طرحاً مستفيضاً هادئاً ، حتى يمكنها أن تحدث الأثر المرتجى منها : وهو تصحيح المفاهيم التي تراكمت عبر عصور طويلة من الضعف والجمود ، فهي بذلك أكثر حاجة إلى الصبر والأناة في معالجتها ، بغية الوصول إلى الهدف المقصود .

فعندما تناول الكاتب قضية تحرر العقل ، وميز بين التعلم والحفظ والتقليد ؛ كنت أتوقع منه تعريفاً علمياً لكل من هذه المصطلحات ، إذ هي مدار البحث ، ولا يكفي في تمييزها قوله أن التعلم غذاء للعقل ، والحفظ مسخ للعقل ، والتقليد طمس للعقل .

وإذا كان الحفظ مسخاً للعقل ، فهل هذا حكم مطلق لا قيود له ..؟ وكيف نستثني حفظ القرآن الكريم ، وحفظ الحديث النبوي الشريف ، وماذا عن الشعر والتاريخ ؟ وماذا عن المنحى الغربي الحديث الذي بدأ يضع قواعد العلوم في منظومات تذكرنا بألفية بن مالك في النحو ؟ وما هو الحد الفاصل بين ما يحفظ وما لا يحفظ ؟ وما دور الحافظة في التكوين الفكري للإنسان ؟ ..

وإذا كان التقليد طمساً للعقل ، فما هي حدود القدوة والأسوة الحسنة ، ولماذا فرقوا بين التقليد المبصر والتقليد الأعمى ؟ . وهل دعاة التقليد مدرسة واحدة ترى المحاكاة القردية في كل ما فعل الأسلاف وما قالوا ، أم أن لهم في ذلك تحليل وتصنيف وخلاف ، يستحق من كاتبنا الرد والحوار ..؟

وتحدث الكاتب عن سلبية المسلمين في الإسهام في الفكر الإنساني ، وحمل حملة شعواء على عامة الخطباء والكتاب الخطابيين وأصحاب عقد النقص الذين يقرأون بضع كلمات عن نظريات داروين وفرويد وماركس ، فيرفضونها رفضاً باتاً ، أو يتناولونها بعقلية المتعصب الساذج الموغل في الخرافات ..

وقد أجاد في عرض فكره عرضاً منطقياً مرتباً وإن كان شديد التركيز والإيجاز ، مما يدعونا إلى الظن بأنه لم يجد مجالاً للإشارة إلى المحاولات الجادة

التي بذلها بعض المختصين القادرين على النقد العلمي الرصين لتلك النظريات ؛ وأن يبرزها كأمثلة إيجابية تكمل الصورة التي رسمها للموقف الإسلامي المعاصر من الفكر الإنساني .

وبعد أن لهثنا وراء الكاتب عبر موضوعاته الشائقة المتعددة ، اختتم بحثه بالتفريق بين الغزو الفكري وبين التفاعل الحضاري ، فوضع في كلمات قليلة مضغوطة بذور نظرية جديدة تواجه الفكر الرافض للحضارة الغربية ؛ وهو الفكر الذي يسيطر على الربع الثالث من القرن العشرين .. ولعله أراد بذلك أن يطلق صفيراً خافتاً وسط هذا السكون الشامل المستسلم لما يُكتب له ، حتى إذا تهيأت الأسماع لشيء جديد طلع علينا ببحث مستفيض متكامل يناسب خطورة الفكر المطروح .

ولم نكن نحب أن يختم الكاتب بحثه بملاحظة يقرر فيها أن هذا البحث — الذي تصدر باب الأبحاث بل تصدر العدد الافتتاحي من المجلة — ما هو إلا خواطر متناثرة كتبت في فترات متباعدة ، لأن هذه الملاحظة وضعتنا أمام سؤال مباشر : ألا تستحق كل هذه الأمور التي طرحت على بساط البحث ، وفيها من الجديد والخطير ما فيها ، أن تحظى من الكاتب بأكثر مما تحظى به الخواطر المتناثرة المكتوبة في فترات متباعدة ..

فإذا تعدينا هذه الملاحظات — وهي شكلية في أغلبها — فإننا نقر لكاتبنا بالأصالة والجرأة ، وهما صفتان لازمتان لكل من أراد أن يلقي حجراً جديداً في بحيرتنا الآسنة .

(٢) الخصائص الثابتة اللازمة والخصائص المكتسبة للحركة الإسلامية :

للاستاذ توفيق الطيب

إن الذين يضربون بفؤوسهم في الأرض البكر ، يشهد الناس لهم — من بعد — بفضل السبق ، ويذكرونهم بالخير بعد أن تخضرّ الأرض ، وتورق فوق بساطها الأشجار .

ولكننا نحن أبناء جيلهم . لا نعفيهم من النقد ، فنحن نعتقد أننا نساهم بذلك معهم في إخصاب الفكرة الجديدة . مهما بدت كلماتنا كالكفّ المعترضة وسط دويّ التصفيق ..

وتعد هذه الدراسة للأستاذ توفيق الطيب من بين الدراسات الرائدة في أرض الحركة الاسلامية — وهي أرض جديدة لم تلفت انتباه الكتّاب الاسلاميين إلا منذ سنوات قليلة — وله في هذا المجال محاولات جادة متفرقة ، تعكس ممارسته العملية في بعض البلدان العربية والأوربية خلال فترة طويلة من الزمن .

وأول ما يطالعنا في البحث الذي بين أيدينا تعريف الكاتب لاصطلاح الدعوة الإسلامية ، وأنها هي رسالة الحركة الإسلامية ، وأنها « كانت تتمثل أول الأمر بالرسول عليه الصلاة والسلام وحده . فقد كان هو الداعية الأول وهو وحده الدعوة ، ثم لما آمن بدعوته من آمن وكثر عدد المؤمنين بهذا الدين المبايعين على إقامته بحيث أصبحوا فئة تمثل تياراً اجتماعياً جديداً مغايراً للمجتمع الجاهلي أصبح بالإمكان أن نسميهم حركة » ص ٨٧ .

ثم يعود الكاتب فيعرف الدعوة إلى الإسلام في ص ٩٦ فيقول « فالدعوة إلى الإسلام واجب فردي على كل مسلم ، وهو يعني حمل الإسلام إلى العالم واجبا فرديا فحسب ما دام نظامنا السياسي غائبا » .

وفهمنا من تعريفه الأول أنه يقصد بالدعوة الإسلامية أو الرسالة الإسلامية دين الإسلام نفسه الذي عرضه الرسول ﷺ على المجتمع الجاهلي . ثم فهمنا من التعريف الثاني أنه يقصد شيئاً محدداً هو عملية تبليغ دين الإسلام إلى غير المسلمين . وهما أمران مختلفان أولهما هو الأصل وثانيهما فرع من فروعه .

ثم نراه بعد ذلك — ويشاركه في ذلك عدد من الكتّاب — يطلق اصطلاح الدعوة على أمر ثالث أسماه البعث الاسلامي — ص ٩٧ — ويقصد به حركة الإصلاح الديني داخل العالم الاسلامي ذاته .

واستعمال مصطلح الدعوة في كل هذه المجالات يسبب فيما أرى خلطاً كبيراً بين الأحكام والقواعد التي تتناول كلاً منهم ، مما يضعف الاستشهاد

بأحدهما على الآخر أو المقابلة بينهما . فشتان ما بين دعوة المشركين إلى تغيير دينهم وبين دعوة المسلمين إلى التشبث بدينهم ..

ولفظ الدعوة في اللغة – ابن منظور في لسان العرب على سبيل المثال – يتسع لكل هذه الاستعمالات ولغيرها . ولكنه ونحن بصدد التحليل والتحديد لا يصلح في مقال واحد للدلالة على الإسلام مرة . وعلى التبشير به مرة أخرى ، وعلى حث المسلمين على التمسك به مرة ثالثة وهو ما يدخله علماؤنا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ويصنفه علماء الاجتماع تحت عنوان الإصلاح الديني .

وتعرض الكاتب بعد ذلك للحركة الاسلامية الحديثة – ص ٨٧ – فعمّم حيث كان يجب أن يخصص ؛ ذلك أن حديثه عن الحركة الوهابية ثم المدرسة السلفية ثم حركة العشرينات التي لم يسمها لنا وأغلب الظن أنه يقصد بها حركة الأخوان المسلمين ، دلّ على أنه يقصر حديثه على المنطقة العربية وحدها : فهو لم يتعرض لشبه القارة الهندية ولا جنوب شرقي آسيا ولا إيران وتركيا .. مع أن تاريخهم الحديث قد شهد تحركاً اسلامياً أصيلاً .

ووقع كاتبنا في التعميم مرة أخرى عندما تحدث عن الحركة الإسلامية المعاصرة – ص ٨٨ – وقال أنها دخلت طوراً جديداً عقب نكبة فلسطين ؛ ذلك أن تحليله يقتصر على المنطقة العربية أيضا . إذ أن الحركة الاسلامية في اندونيسيا على سبيل المثال مرت بعدة أطوار هامة لا شك في ذلك ، ولكن ليس من بينها نكبة فلسطين .

وإذ يدخل كاتبنا بعد ذلك في صلب البحث ليحدثنا عن الخصائص العامة اللازمة للحركة الإسلامية ، لا أخفي أنني فوجئت بحديث لم أكن أتوقعه .. ذلك أن ما ذكره مفصلاً في خمس صفحات متتالية – ٨٩ إلى ٩٣ – عن الربانية والإيجابية والواقعية والأخلاقية .. الخ لا يعدو فيما أرى حديثاً عن بعض خصائص الإسلام نفسه ، أما الحركة كتيار يسري في جسم المجتمع ، شأنه شأن التيارات المواكبة له والمتعارضة معه ، فقد كنا نتوقع له تحليلاً سوسيولوجيا مفصلاً ، يضع أصابعنا على مكان الحركة الإسلامية بين الحركات العقائدية في

عالمنا المعاصر . ما تشترك فيه معهم وما تختص به عنهم ، تحليلاً فنياً يخرجنا من عصر التعميمات إلى مرحلة التحديد العلمي للقضية مدار البحث .. أما الحديث عن خصائص الاسلام فله مجالات أخرى واسعة .

كما أن الذين وقعوا في هذا اللبس من الكتّاب اختلفوا فيما كتبوا ، فمنهم من حدثنا أن « خصائص دعوتنا هي الأخوّة والتضحية والصبر » ومنهم من قال أن « أساس حركتنا هو الإيمان والعمل » إلى آخر ذلك مما يبدو في ظاهره اختلافاً ، والرأي عندي أنهم متفقون جميعاً في شيء واحد ، وهو أنهم لا يتحدثون عن الحركة ولا عن خصائصها ، وإنما يتحدثون عن خصائص ديننا الحنيف نفسه ؛ وهي خصائص تتسع لكل ما قالوا ولغير ما قالوا من التبويبات والتقسيمات التي لا حدود لها .

بقيت ملاحظة أخيرة ، هي أن كاتبنا اهتم في تحليله بالجماعات دون الأفراد . ولا أظنه يختلف معي في أن مفهوم الحركة يضم تحت مظلته كل الجهود الصادقة في الحقل الإسلامي ، سواء صدرت عن مجموعات منظمة أو عن أفراد أفذاذ كالكتاب والعلماء والصحفيين والسياسيين والنواب وغيرهم ، فلماذا أسقط الجهود الفردية من البحث ، مع أنه أقرها داخل إطار الحركة دون التنظيم ص ٩٦ .

كما أن الكاتب لم يتعرض لقطاع كامل هو القطاع الذي يتمثل في الجهود الإسلامية الرسمية التي تصدر عن أجهزة حكومية أو إقليمية ، والتي لها من الآثار ما لا يجوز تجاهله .

وقد اختتم الكاتب بحثه بحديث عن النقد الذاتي للحركة الإسلامية ، ودوره في تطويرها وفي حمايتها من الانحراف ، ووضع للنقد والناقدين شروطاً نوافقه عليها إلى أبعد الحدود .. ذلك لأنه أجاد تصنيفها وأحسن عرضها ، مما حرّك شوقنا لأن نلتقي معه مرة أخرى على صفحات هذه المجلة ، وهو يمارس النقد — بهذه الشروط — لبعض ما عايشه وخالطه من مجالات العمل الاسلامي المتباينة .

نقد العدد الماضي (١)

يوسف كمال محمد *

(١) الخصائص الثابتة اللازمة والخصائص المكتسبة للحركة الاسلامية للاستاذ توفيق الطيب

المقال جهد مشهور بذل فيه الكاتب بحثا ملموسا وحقق به نتائج لا بأس بها . إلا أن الحقيقة أنني توقفت كثيراً قبل أن أكتب وهممت أن ألقى القلم دون ابداء رأي لأنني لم أستطع أن أغوص إلى الأبعاد الفكرية للكاتب ولا أن أرى بوضوح مراميه الفكرية فقد صيغت بعض العبارات بطريقة تجعلها معقدة . فالتعريف للحركة الإسلامية . (إنها الفئة الاجتماعية التي تحمل الدعوة الإسلامية أو التيار الاجتماعي الذي يحمل الاسلام كدين ويريد اقامة هذا الدين فالدعوة

* مؤلف مستقبل الحضارة ، وكتب أخرى تحت الطبع .

(١) للكاتب نقد مطول لمقال الدكتور عماد الدين خليل عن التفسير الاسلامي للتاريخ أرجأنا نشره للعدد القادم .

إذن هي رسالة الحركة والحركة هي التجسيد الاجتماعي للدعوة ، المحرك هو الدعوة والمتحرك هو المجتمع . والحركة هي الجزء من المجتمع الذي يحمل الدعوة) . فهل هذا تعريف بسيط ؟ . أصبح عندنا دعوة وحركة ثم بعد ذلك تنظيم ومجتمع ودولة . وفهمت بصعوبة الفرق ولكنني لم أستطع أن أحدد الفرق بين المثال والواقع من جهة الأحكام الشرعية ؟ مرة أجد هذه التعريفات تقترب بشدة من رأي الخوارج ومرة أجدها تنتسب إلى أهل السنة والجماعة . ولا أعلم ما الذي يقصده من أهل السنة والجماعة أهم العلماء والقضاة فحسب أم الأمة مجتمعة بكامل أفرادها وهيئاتها وإن كان عليها انحراف جزئي في طريق اختيار الأمير منذ معاوية .

دليل ذلك أنه بينما يبدأ تحليله عن الحركة بتبني رأي « كتاب وجهة العالم الاسلامي » عن صفين مما يؤدي بالتالي إلى تداعي فكرة مؤلف الكتاب بأكملها إلى ذهني ، هذه الفكرة التي تفسر الحضارة على أنها تمر في ثلاث مراحل :—

مرحلة الفطرة وهي النهضة . والثانية مرحلة العقل وبه تتلاشى دفعة التقدم لتسلم الحضارة للمرحلة الثالثة وهي النكسة الممثلة في الغريزة . يقول : (ولا شك في أن المرحلة الأولى من مراحل الحضارة الإسلامية التي ابتدأت من غار حراء إلى أن وصلت إلى القمة الروحية للحضارة الاسلامية وهو يوافق واقعة صفين عام ٣٨ هـ . ولست أدري لماذا لم يتنبه المؤرخون إلى هذه الواقعة التي حولت مجرى التاريخ الانساني إذ خرجت الحضارة الإسلامية إلى طور العقيدة الذي يسوده العقل وتزيين الأبهة والعظمة في الوقت الذي بدأت تظهر فيه بوادر الفتور الدالة على أفول الحضارة)[١] . وهو لذلك يعتبر حركة الخوارج تعبيراً عن روح الاسلام الصافية وأن العقل يؤدي إلى فتور الحضارة ومن ثم يرفض التراث الاسلامي الفقهي والعلمي بعد صفين كزاد للنهضة لأن أي محاولة (لاعادة بناء حضارة الاسلام يجب أن تقوم أولا وقبل كل شيء على أساس سيادة « الفقه الخالص » على « الواقع السائد » والذي نشأ عن صفين ، ولا شك أن هذا يقتضي

---

(١) شروط النهضة ص ٥٠ .

رجوعاً إلى الإسلام الخالص أعني تنقية النصوص القرآنية من غواشيها الكلامية والفقهية والفلسفية) [1] . ويرى أن رجال النهضة رجال لا يزالون على بداوتهم وليس يعوزهم إلا التراب والوقت لتحقيق هدفهم ثم نصح نصيحته الغريبة بالبعثات إلى المنادك حيث (يشهد المسلم الحياة الدينية العجيبة التي يحياها هؤلاء الناس كل يوم ، والذين يعدون من أشداء المتمدينين في العالم حيث يعيش في جو صوفي يلتهب) [2] .

... (وهنا يهز أعماقه انقلاب أصاب من قبله « اقبال » حين كان يشهد تقاليدهم) [3] .

ورغم ذلك نجد كاتب المقال يقول (وفي اعتقادنا أن هذا لا ينبغي أن يقصر على فئة معينة على سبيل الاطلاق لأن بالامكان التماس بعض المواقف الصحيحة لدى مختلف الفئات . وإذا كان لا بد من ترجيح فئة فهي فئة أهل العلم والقضاء . وإذا ما أريد ترشيح تيار فهو بلا شك تيار « أهل السنة والجماعة ») .

وبينما نجده يقول : (يجب أن نفرق بين الهدف البعيد والهدف القريب :

١ ـ هدف بعيد : تجاوز أزمة التحدي للغرب الحديث وحل المشكلات التي يواجهها المجتمع الاسلامي اليوم حلا يتفق مع الاسلام عقيدة وشريعة .

٢ ـ هدف قريب : اقامة الحكم السياسي في الاسلام بإقامة دولة اسلامية وتحقيق هذا الهدف هو الشرط الضروري لتحقيق الهدف الأبعد) ..

ويقول : (إنه لإقامة دولة لا بد من توفير جميع الشروط وأهمها هو أن ننطلق إلى السياسة من الدعوة وإلى الدولة من الوعي الإسلامي لا العكس ، بعبارة أخرى من الحقبة المكية إلى المدنية . من العمر المكي إلى العمر المدني ، إذا استعملنا ذلك على طريق التغليب فحسب) .

---

(١) نفس المصدر ص ٦٩ .

(٢) نفس المصدر ص ٢٠٧ .

(٣) نفس المصدر ص ٢٠٨ راجع ص ٦٩ ، ٨١ .

وتداعى إلى ذهني مع هذا الكلام أيضاً النظرية التي تقوم على فكرة المرحلية من المكية إلى المدنية . وهذه النظرية تقوم ابتداء على أن الكفر عمّ الخلق جميعاً وأن الجاهلية دارت دورتها الأولى بتنحية حكم الله عن الحياة . ولا ينجو من ذلك إلا من انتظم في الجماعة صاحبة هذا الفهم . وترتب على هذا الفهم نتائج الحركة المرحلية من مكة إلى المدينة فلا انفتاح إلا على أصحاب النظرية فكريا باسم قصر التلقي، ولا عبث في دراسات اجتهادية لمجتمع لم يقم فعلا ، ولا جهاد إلا حين تقوم الدولة التي تحكم بحكم الله ... ونبذ بذلك رأي أهل السنة في أحكام الكفر والايمان ودعى إلى التعامل المباشر مع القرآن وارتبط ذلك باعتبار الانحراف بدأ من صفين وجرح الفقهاء من أهل السنة واتهموا بممالأتهم للسلاطين وأسقطت الفترة منذ صفين من التاريخ الاسلامي لتبقى النهضة محصورة في عدد من السنين ... الخ ...

إلا أننا نجد الكاتب يسرع بالابتعاد عن كل هذا بحديثه عن الانفتاح وأن الحركات تنمو بالحوار والممارسة والتجارب والنقد.... ويقول أنه بالدراسة نثبت أن نظام الاسلام الاجتماعي هو وحده الذي يكفل لها العدالة والكرامة . ويتحدث في مكان آخر عن الجماهير المسلمة حديثاً عذبا نديا مبينا أنها مظلومة مضطهدة بائسة محرومة ويقرر أنها الرصيد الحقيقي في أي حركة اجتماعية تود أن يكون المستقبل لها ، فيها الفطرة الصافية وفيها القوة الأخلاقية وفي أعينها بريق التطلع إلى عالم جديد .

هذا هو السبب في أنني قلت في أول الأمر أنني ما استطعت أن أتبين منهج الكاتب من المقال .

وأعتقد أن الكتابة في هذا الموضوع الخطير في هذه المرحلة الدقيقة تحتاج إلى مراعاة بعض الملاحظات التي ترتبط بفقه الحركة :

١ — الفهم :

بالطبع ان الذي يكتب عن خصائص الحركة الاسلامية لا بد أن يكون

على المام كاف بالتيارات المعاصرة بحيث أن تبنى رأي كاتب أو اطلاق تعبير لا بد أن تتداعى معه إلى الذهن ما علق بالرأي واللفظ من أفكار وما يتصل بها من نظريات أو خطط خصوصاً وأنه إذا إتجه إلى تجميع الحركة الإسلامية فلا بد أن يبين نقط اللقاء والافتراق وما يجوز الخلاف عليه وما لا يجوز .

وأنا لا أنكر الأثر المتبادل بين الأفكار والاستفادة من كل خير في كل التيارات الاسلامية . ولكن ما أرفضه هو أن يترك كلٌ يهيم في واديه ونكتب في عموم وغموض ليفهم كل منه ما يهواه حسب فكرته أو موقعه وكأن الناس منعزلون وكأن في إمكاننا أن نبقيهم في عزلتهم .

٢ ــ الصراحة :

ويتساءل الكاتب عن سبب عدم صدور دراسات عن الحركة الاسلامية ومن رجال الحركة الإسلامية نفسهـــا وأن هذا أمر يدعو إلى دهشتـــه . وليس ذلك يدعـــو إلى دهشتي لأن الحركة الاسلامية قد اختارت لنفسها في شكلها الرئيسي لا المظهري ستار السرية . وذلك إن كان مبررا للحركة فلم يكن هناك داع على الاطلاق أن يمتد ذلك للفكر حتى يصبح في طي الكتمان . أن سيرة رسول الله ﷺ تؤكد بإلحاح أنه ما كتم دعوته عن الناس بل كان ينذرهم في كل مجتمع ويناديهم إليه من أعلى مكان ، حتى يعلم كلٌ الحق ويحدد موقفه منه ويتميز بذلك الناس . ولن يفيد اخفاء الفكر إلا في انحرافه ولن يستفيد بذلك إلا دكتاتور مستبد أو صاحب هوى يريد أن يصلــه إلى مأربــه .

وضرورة أخرى تدعو إلى وضوح الفكرة ــ إن الفكرة الصالحة المؤصلة على أسس راسخة قادرة على أن تحدد المسار وتصعد به وإن بعدت الصلة بين القاعدة والقيادة . وغموض الفكرة لا يعطى لأي أحد ضمان بصواب الحركة أو منع استغلالها مهما كانت الصلة بين الناس أو الثقة بينهم فما بالك إن كان حتى لا يعرفهم . وتصبح الصلة كما قال الشاعر :

إنما أنا ابن غزية إن غوت غويت   وإن ترشـــد غزية أرشد

وصدق رسول الله ﷺ حين قال : من قاتل تحت راية عمية يدعو عصبية أو ينصر عصبية فقتلته جاهليته .   (رواه مسلم)

٣ ــ سعة الخلاف :

لا بد أن يضاف بحث هام إلى عناصر الحركة إذا ما كان في النية السعي إلى جمع التيار الإسلامي في حركة واحدة . ذلك الأمر هو ما يجوز الخلاف فيه وما لا يجوز . فقد أراد الاسلام من الانسان أن يبذل جهده فكريا وعمليا . ولما كان الانسان متباينا في قدراته فلا بد أن يختلف في تقديراته . وقد توفر كثير من أساتذتنا الفقهاء خصوصاً ابن تيمية ليحدد هذه المعالم . والقصد في النهاية أن يتعاون المسلمون فيما اتفقوا عليه من رأي يلزمهم وأن يعذر بعضهم بعضا فيما اختلفوا عليه ، ما داموا يلتزمون في حركتهم برأي الامام أو نائبه .

هذه الدراسة لها مكان رئيسي في بحث فقه الحركة وهي ضرورية لجمع شتات الجهد الاسلامي في كل مكان والذي لا يفصله سوى فرعيات وتجمعه أصول واحدة ومبادىء واحدة وآمال واحدة . أما الزام الجميع برأي واحد في عقولهم فهذا أمر مستحيل ورحم الله الامام مالك حين رفض أن يعلق الموطأ على الكعبة وأن يفرض على الناس وعرف لأخوانهم الفقهاء قدرهم .

٤ ــ سعة الأفق :

أقصد هنا بسعة الأفق التمكن العلمي من أحكام الشرع مع النظرة العميقة لواقع المسلمين من جهة والظروف العالمية من جهة أخرى .

وأبدأ بسؤال صاحب المقال لماذا قصر الحركة الاسلامية على التنظيمات وأهمل بالتالي دور الجماهير المسلمة بل ودور حكام البلاد الاسلامية كعناصر مؤثرة على هذه الحركة . لا بد من أخذ كل المتغيرات التي تواجه الحركـــة الجماهيرية كعناصر سلب أو إيجاب بل حتى حكام البلاد الإسلامية في مدى

الاستفادة من عواطفهم وجهودهم حسب الأحوال في هذا المجال .

وبالطبع فإننا إذا عممنا الجاهلية والكفر فلا مجال هنا لهذا لأن وراءه البراء والمفاصلة ولا شيء غير ذلك لأنها تكون قضية كفر أو إيمان لا انصاف حلول ولا يستعان فيها بمشرك على مشرك . أما إذا أخذنا بفقه أهل السنة فإن ذلك يمد الحركة الاسلامية بوعي عميق وحركة متسعة نشطة تختصر المسافات في حنكة ودراية وصبر وحكمة أحوج ما تكون إليها الحركة الاسلامية بعد هذه الحرب الضروس من اليهود والصليبيين ومخططاتهم الطويلة في الغزو الفكري والعسكري المستمرة على الاسلام ، وتخرج الحركة الاسلامية من هذا الحجر الضيق الذي يحول المعارك إلى صدور المسلمين ويحد امكانياتهم العقلية والمادية ويعزلهم عن تاريخهم الطويل من ناحية الزمان وقاعدتهم العريضة من جماهير المسلمين من ناحية المكان، وذلك مع ابقائه للحركة الإسلامية في مكان الريادة والنقاء دون الاعتماد على أحد أو التقيد بظروف الواقع وقيوده . وتضيف إلى أفقها أفق الاصلاح والتغيير لا الثورة والمفاصلة فحسب — وهكذا يمكن جمع الشتات وتركز القوة وتسرع الحركة إلى الهدف وتتسع امكانيات العمل .

والكاتب يرى أنه لا يمكن تحقيق الاسلام من القمة إلى القاعدة عن طريق الحكومات وذلك رأيه أملاه عليه فقه المكية ، ولكنني أرى أنه يمكن أن يتم ذلك ما دمنا نسلم بإسلام الناس بناء على فقه أهل السنة أنه لا يكفر بمعصية إلا من جحد معلوما من الدين بالضرورة أو عمل عملا لا يحتمل تأويلا إلا الكفر وهم والحمد لله لا زالوا قلة بناهم الاستعمار واتخذهم أعوانا .

وهذا وحده الضمان لأن يجعل الأحكـــام مرتبطة بأصول لاهوى ولا ظن . فلا يرمي بعضنا بعضا بالردة أو العمالة لمجرد الخلاف في الرأي ولا نسرع في الاتهام والتجريح خصوصاً وأن الحديث عن العمالة والمخططات سلاح ذو حدين إذا عرفناه عرفنا أعداءنا فاستقامت حركتنا ولكن إذا ما أصابنا ذلك بنوبة تشنجية متوجسة لكان طعنة إلى صدورنا نتهم به أبرياء ونكبل به بالأغلال أيدي يمكن أن يستفيد منها دين الله .

والأجدر بنا حين نتحدث عن المسلمين إذا أردنا لومهم على قعودهم عن التغيير ألا يتخطى قولنا أنهم آثمون . وإذا أردنا أن نحكم على مجتمعاتهم بمعنى جماع الأفراد فلا يتجاوز قولنا مصطلح القرآن في نقص الايمان والاسلام . أما إذا تحدثنا عن النظم والقوانين والمؤسسات فلا ينكر أحد أنها جاهلية وكفر وبهتان لأنها لا تستمد مقوماتها من حكم الله .

وعتاب رفيق لصاحب المقال في قوله (ربط مصير الفرد بمصير الحركة الاسلامية وبمستقبلها رباطا نهائيا لا يفصمه إلا الموت) . فهل يقصد النية ؟ ذلك أمر غيبي ، وهل هو وعظ منه ؟ لا أظن ذلك والكاتب في مجال تحديد المنهاج . ونحب أن نؤكد أن هذا الأسلوب يقتل في نفوس الأفراد أي روح للنقد والتصحيح ويحولهم إلى شخصيات عصبية لا يحركهم الاقتناع وإنما التعصب أو الخوف وهذا يعرفه الكثيرون ممن مارسوا الحركة الاسلامية . وأخطر ما تواجهه الحركة الإسلامية هو أن تحكم الضرورات الحركية على النصوص لأن ما شرعه الله هو أعظم ضمان لنجاح الجهد وإذا أدرج الله أمرا مدرج الحرام فلا يجب أن نزيد فيه أو أن ننقص ، وضمير الانسان المسلم يعتبر الحرام أعظم جرم والذي لا يخاف الله لا يخاف الناس .

وأحيي في الكاتب تذكيره أن الحركة الإسلامية لم تعرف النقد ودعوته إلى معرفة الرجال بالحق لا الحق بالرجال وإن كانت القيود التي وضعها له رغم أنها جديرة بالنظر والتفكير إلا أنها قد ترجعنا مرة أخرى إلى العوائق السابقة التي حرمت الحركة الاسلامية من حق النقد فما استطاعت أن تدرك الخطأ إلا بعد وقوعه وما أحست بأنها بذلك كانت تجفف منابعها وتجمد فاعليتها وتخلق العوائق والمشاكل .

٥ ـ الأصالة :

وأحب أن أنبه إلى أن أي دراسة عن منهج الحركة لا بد أن تعتمد إبتداء على مصادر ثابتة إذا أردنا التجميع والوحدة . ذلك أنه بإمكان العقل الإنساني صنع

الكثير من نماذج التفكير ويمكن وضع مبادىء ثابتة وأخرى مكتسبة على كثير من الأنماط بل يمكن حتى التنويع في التقسيم إلى أكثر من العنصرين ثابت ومكتسب .

والاعتماد على مصادر ثابتة متفق عليها لكتابة منهج الحركة يجعل نقط اللقاء أكثر من نقط الخلاف . وأمور الخلاف لا يمكن أن تنتهي ولكن يمكن أن تضيق الشقة بتقدير الأمور التي يمكن الخلاف عليها فيصبح الخلاف الشاذ غير الملتزم مفضوحاً مرذولا لبعده عن النص وبعده عن المنطق – وأحب أن أذكر بعض المصادر الثابتة لما أحب أن أسميه فقه الحركة : –

١ – سيرة المرسلين في القرآن الكريم (لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب) .

٢ – سيرة رسول الله ﷺ (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة) .

٣ – في أوصاف القرآن عن الناس وتقييمه للأعداء وتطبيق ذلك على العصر .

٤ – في دراسة واقع المسلمين وسبب تخلفهم وسبيل النهوض بهم من منهج القرآن .

٥ – منهج الحركة الجهادية وأهدافها – وهي تعتبر حديث القرآن الأول .

وقاعدة التحليل السياسي السليم والتفسير التاريخي الحق لا بد من الخروج بها من دائرة العموميات والشعارات إلى علم الأصول والفقه إذا دخلنا في قضايا الولاء والبراء والنبذ والصلح والكفر والايمان) ، حيث أن الكتابة العامة البليغة لا يفهمها بعض الناس على أنها مجرد مشاعر وحماس وإنما يتخطونها إلى اعتبار انها أصول للمناهج وأحكام واجبة التطبيق . ولا بد أن نعبر عن منهج الحركة هذا بمصطلحات القرآن .

إذا تحقق ذلك فإننا سنحقق وحدة الحركة الإسلامية ونتجه في الطريق الصحيح مستحقين لمدد الله في النصر وأكثر من ذلك وأهم أننا سنقترب من القرآن ونحس به ونتدبر آياته في أعظم موضوعاته وهذا وحده يستحق كل ما يبذل من جهد في هذا السبيل .

(٢) أتوقع أن تكون هذه المجلة
للأستاذ فتحي عثمان

يقول الأستاذ فتحي عثمان (ان الاسلام مظلوم حين يوضع دائماً مع (اليمين) لمجرد أنه دين ... وحقا ان القرآن يثني على أصحاب اليمين ، ولكن اليمين والشمال في تعبير القرآن على جزاء الآخرة . غير اليمين واليسار في تقويم السياسة الحديثة للعمل لأجل الانسان . ومنهج القرآن لتوجيه الانسان في هذا المجال يجعل المسلم في (قلب) اليسار .

وإني لأعجب — وقد شقي العصر بألفاظ اليمين واليسار وتخبط بين الاستغلال اليميني والتخريب اليساري — كيف لم يستوقف كاتب المقال وصف الأمة المسلمة في القرآن الكريم . (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا) . وكنت أرجو أن يبهره اعجاز القرآن ليقوم به أفكار السياسة الحديثة لا أن تبهره السياسة الحديثة فيجعل المسلم في قلب اليسار .

وأريد أن أذكر أن علينا أن نميز بين أمرين : العلوم الطبيعية والحق أن الغرب تفوق فيها . والعلوم الانسانية والواضح أنها فشلت فشلا معترفا به على ألسنة مفكريهم حين بحثت عن الغاية والمنهج . حقاً ان منها جزء قريب من العلم التجريبي ، وهي تشخيص التفاعل والتأثير كدراسة الغرائز في علم النفس والدراسات التحليلية في علوم الاجتماع وان كان التجريد قد بدأ يصطدم بآفاق أخرى صعبة حين تحول من دراسة السكون static إلى دراسة الحركة dynamic ومن الدراسة الجزئية micro الى الدراسة الكلية macro فتسكين الظاهرة وتجزئتها يبعد الدارس من الدقة ودراستها في حالة حركة وفي تفاعلها مع غيرها من الظواهر أمر بالغ الصعوبة . خصوصاً وأن الانسان غير الظواهر المادية الأخرى التي تحكمها الحتمية في السلوك .

هذا عن الدراسة التحليلية أما دراسة الغاية وما يتلوها من منهاج لتحقيق

هذه الغاية فما تقدم فيها الغرب شيئاً يذكر . وأصبح من المسلم به على ألسنة كتابهم أنهم أصبحوا أغنياء في الأشياء فقراء في الأغراض وأنهم عرفوا الكثير عن المادة ولكنهم ما زالوا في جهل كبير بالنفس الانسانية .

ولنوضح هذا بضرب أمثلة ...

هناك فعلا مجال للتقدم في معرفة كيفية تفاعل الجهاز الاقتصادي كنظرية العمالة لكينز ... الا أننا رغم أننا نجدهم يصلون إلى الأضرار التي يسببها الربا في الجهاز الاقتصادي من بطالة وضياع وأزمات لا نجد أي جهد ايديولوجي لتقييده والقضاء عليه . وفي الأنظمة الاشتراكية نجد تقدما في دراسة التخطيط ورياضيات توزيع الموارد على الاستعمالات المختلفة . ورغم أنها وصلت الى ضرورة وجود حافز الربح والتمييز لضمان حسن استعمال الموارد وتجاوبها مع المستهلكين إلا أنها لم تستطع أن تغير أيديولوجيا جوهر الماركسية القائم على أن كل دخل لغير العامل استغلال .

ثم لقد وجدنا في هذه المجتمعات أناساً بهم انضباط الآلة ونظامها والتزامها ولكن الانسان في أعماقهم قد تضاءل فانعدم فيهم شعور الايثار والتراحم .

هذا الفقر في الغايات الذي يتلوه ضرورة ضعف المناهج للاتصال العضوي بين الغاية والمنهج هو الذي دعى الغرب أن تطغى عليه فلسفة الذرائع (براجماتزم) وهي التي لا ترى الحق إلا فيما يثبت نجاحه في الحياة العملية . .

إن الركام المتزايد من مؤلفات الفلسفة أو علم النفس أو الأخلاق أو السياسة تتعدد مذاهبه تعددا من العسير حصره صعوبة حصر المدارس الكلامية المتأثرة بفلسفة اليونان قديما . وما استطاعت أن تقدم علاجا لداء العصر المتصارع الذي يسعى نحو تدمير نفسه .

هذه الحقيقة تتبين للدارس المتمكن من هذه الكتابات أما الذين يقتربون منها دون دراسة عميقة متأنية وتضغط على مشاعرهم في ألم حال المسلمين اليوم . فانهم ينبهرون بانتفاخها ولا يدركون ما بداخلها من أوجاع .

وأذكر أن هذا القصور فيما كتبه الغرب يغطيه عادة بألفاظ طنانة وشعارات براقة ويؤكد ويكرر ليؤثر بذلك على الجماهير التي لا تحركها إلا الغرائز .

والعصر الحديث يبين لنا الأثر الهدام لهذه الشعارات الفارغة والألفاظ الخاوية فكم أجريت بها مجازر التطهير ومهّد بها لدكتاتوريات وكم دمرت شعوباً وأثارت حروباً وأتعست مجتمعات .

علينا لكل ذلك أن نقرن الدعوة للتحرر من عبودية التقليد للسلف بالدعوة للتحرر من عبودية التقليد للغرب تحت ضغوط أضواء المظاهر الترفية الفارغة التي حققها الغرب في الشكل لا في الجوهر .

* * *

وسؤال أخير أحب أن أسأله للأستاذ فتحي عثمان : ما هو تصوره عن الاجتهاد ؟ إنه يقول : (واليسار المسلم يتمسك بالديموقراطية . إذ هي حكم الله في المصالح والعلاقات الانسانية ، حيث لا يكون النص الالهي الملزم القاطع في وروده ودلالته ؟ .... وما أكثر حاجات الناس التي نرجع بها شريعة الاسلام إلى الإباحة الأصلية والمصلحة المرسلة والاستحسان وتوقي عموم البلوى وتقدير الضرر والضرورة واعتبار العرف — وما إلى هذه القواعد والأصول التي أحال فيها الاسلام الحكم الى اجتهاد العقل وأعمال الشورى « أنتم أعلم بشؤون دنياكم » بعد أن عرض عقائده أصلا على العقول بالحجة والبرهان . وطلب من معارضيه الحجة والبرهان !) .

فأين مكان النصوص ظنية الدلالة وظنية الورود . وهل سكت النص عن العلاقات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية بحيث يمكننا أن ندخلها تحت قاعدة « أنتم أعلم بشؤون دنياكم » كتأبير النخل تماما . ولا يكون لنا مصدر في ذلك إلا العقل يحدد المصلحة فنجعل المسلمين ببساطة مثلا في قلب اليسار !

ولا زلت أسأله عن نوع الفقه الإسلامي الجديد الذي يريده ؟ متفق معه أننا لا نقنن ولكن هل قصارى ما تريده دراسات اسلامية نحو الشمولية واليسار

والديموقراطية ... في التربية والتعليم والأسرة والمعاملات وحقوق الانسان .... إن هذه الفلسفة أقرب الى الفلسفة منها الى الأصول .

ولا زلت أسأله عن المجتهد المخطىء في نظره ؟ وما الفرق بينه وبين من يقول في القرآن برأيه دون علم والذي أنذره رسول الله ﷺ « من قال في القرآن برأيه أو بما لا يعلم فليتبوأ مقعده في النار » (أخرجه الترمذي والنسائي).

والطريف هنا في موقف كاتب المقال الذي كان في أقصى اليمين حين نعى على انسان (ليس ابداعه فقط في تكنولوجيا المسدسات والمدافع السريعة والقنابل الزمنية وغير الزمنية وتدابير الاغتيالات والانقلابات !!) وهي صفة اليسار . لينتقل فجأة إلى أقصى اليسار حين يدعو (الى التميز والتمييز لا إلى الخلط والتمييع .. فما أكثر من يجتمع على (الاسلام) في تعميم ؛ وما أقل من يتضح في ذهنه من بين الجمع الحاشد أبعاد ما يؤمن به) . فأعطى للمتسرعين أداة حادة من التطرف اليساري الذي يخرج من الدائرة كل خلاف في الرأي .

إن الأمور أعمق من كل هذه العموميات . وما أرجوه من الأستاذ فتحي أن يبدأ في إزالة هذه الشبهات التي قد يكون أسيء بها فهم مقالته ، وأن يبين لنا بجلاء ما يريده بالاجتهاد الجديد ليضع بذلك لبنة في الجهد المبذول .

أتوقع أن تكون هذه المجلة مجلة لكل مسلم مثقف معاصر (محاولة للرد على شعار: اليسار الإسلامي)

عبد الحليم عويس *

وللمرة الثالثة .... أعدت قراءة الصفحات الست التي كتبها الأستاذ «فتحي عثمان» في العدد الأول من «المسلم المعاصر» تحت عنوان «أتوقع أن تكون هذه المجلة» ...

وفي كل مرة كنت أعود من قراءتي ببعد جديد من أبعاد الموقف الملائم «للمسلم المعاصر» في مواجهة «الفكر المعاصر» ...

وأريد أن أؤكد هنا – وفي البداية – أنني من هؤلاء الذين لا يريدون أن يواكبوا كثيراً موجة الخضوع لمصطلحات معينة ، وفي الوقت نفسه ... لا أرى أن يستبدّ موقف الرفض بشخص ما .. لدرجة الوقوف عند حد الصراع «اللفظي» أو «الشعاراتي» – كما يقول البعض – وتمييع القضايا الفكرية الأساسية ، ورمي حبة الحنطة الجيدة لمجرد أن قشرتها كانت رديئة اللون ... !!

* * *

* مركز بحوث المناهج . الكويت ، وصاحب عدة مؤلفات .

في العدد الأول من « المسلم المعاصر » كتب الأستاذ (فتحي عثمان) – كما ذكرنا – مقالاً حدد فيه توقعاته لما يجب أن تكون عليه هذه المجلة ...

والمقال المذكور – مع وجود أفكار جزئية طيبة ، فجأ القارىء بفكرة كبرى ، يراها الكاتب . ويقترحها ، كأبرز الخطوط الموجهة – من وجهة نظره – لمجلة المسلم المعاصر .

وهذه الفكرة تتلخص في دعوته « أن تكون هذه المجلة لسان اليسار الإسلامي » ...

ومرشحات هذا الخطّ – من وجهة نظر الكاتب – كثيرة :

* « متابعةً للاصطلاح السياسي الحديث في تقسيم القوى والجماعات والأفكار » .

* « إن الإسلام مظلوم حين يوضع دائماً مع اليمين لمجرد أنه دين » .

* « إن المسلم يحارب الظلم الاجتماعي والسياسي » [كاليسار !!] .

* « عجيب أن نسمع عن « اليسار الكاثوليكي » أو « اليسار المسيحي » بوجه عام ... في حين نرى تصنيف الأفكار والحركات الإسلامية دائماً مع قوى اليمين ... ربما حدث ذلك قصْداً للإساءة للإسلام ، ولكن يبقى على المسلمين وحدهم عبء التصحيح بأقلامهم ودمائهم » .

[فلماذا المسيحية وحدها ؟ ! !]

* ولم يقف الكاتب عند هذا الحد ... بل ذهب إلى تحديد بعض معالم « اليساريّ المسلم » ... التي نظن أنه يراها تميّز – هذا اليساري المسلم – عن المسلم العادي (غير الملتزم باليسار) ، وعن اليساري العادي (غير الملتزم بالإسلام) وهي أيضاً العناصر التي تدرج هذا اليساري المقترح « بصورة مختلفة طبعاً » مع اليسار العالمي تحت شعار واحد ... وقضية واحدة ...

* « اليسار المسلم إذ يجاهد في سبيل الله والمستضعفين ، ويناصر « الأيدي العاملة » التي يحبها الله ورسوله ، ويسعى إلى الحلول الجذرية للقضايا السياسية

والاجتماعية ... يؤمن بأن الجذرية لا بدّ وأن تستوعب الأصول والأسس والجذور في واقع الكيان المادي والروحي معاً ... الخ »

* « واليسار المسلم يتمسك بالديمقراطية ؛ إذْ هي حكم الله في المصالح والعلاقات الإنسانية حيث لا يكـــون النص الإلهي القـــاطع في وروده ودلالته ... الخ » .. « انتهى » ! !

* * *

أذكر أن واحداً من الذين ينسبون أنفسهم إلى « التصوف » أخذ يحاورني حول الصوفي الحقيقي والصوفي الدعي ... ويبسط لي القول في خصائص الأول ... لدرجة أنه سرد كل ما أعرفه عن خصائص الإسلام ... حتّى نسيت أنه يحدثني عن شيء اسمه « التصوف » ....

وقد سألته : لماذا تأخذ ثوب الإسلام يا أخي ، وتمنحه لاتجاهك العاطفي أو الفكري ؟ ... دع الثوب لصاحبه يا رجل ! !

– والحق أن حديث الأستاذ (فتحي عثمان) عن خصائص اليساريّ المسلم .. ليس أكثر من إلباس ثوب الإسلام لمصطلح جديد ... تماماً كما ألبست أكثرية ساحقة من الدعوات التي ظهرت في تاريخ العقل الإسلامي – بفعل ظروف مختلفة – هذا الثوب لآرائها ..

ولست أحاوره في هذه الخصائص ؛ لأنها شيء لا خلاف عليه ؛ إلا أنها – بجملتها – وضعٌ للأمور في غير موضعها ، ولأنها – بجملتها – إلباس للباطل اليساري ... ثوب الحق الإسلامي ... بيد مسلمة كريمة طالما دافعت عن أصالة الاسلام وذاتية الإسلام أمام الذين حاولوا (في مصر من جماعة الكاتب والطليعة) تقسيم الإسلام إلى يسارٍ ويمين ... ووضع بعض رجالاته في كفة ، ووضع الآخرين في كفة أخرى ...

(ونُحيل القارىء هنا (والكاتب أيضاً) إلى كتاب « التاريخ الإسلامي والمذهب الماديّ في التفسير لمؤلفه فتحي عثمان نشر دار القلم بالكويت »

ليعرف رأي المؤلف في « لعبة اليمين واليسار » قبل أن يطلع علينا بمقاله « الجديد» في المسلم المعاصر !!) .

* * *

وينحصر ردّنا هنا في النقطة الأولى التي تمثل اتجاهاً فكرياً يرى الأستاذ فتحي عثمان أن تكون مجلة المسلم المعاصر لسانه : « اليسار الإسلامي » ...

— وفي البداية تحضرنا عديد من التساؤلات التي نسوقها هنا ، وتحتاج في رأينا من الكاتب إلى إجابة شافية :

• هل يمكن أن يكون مصطلح كهذا صحيحاً في ظل تكاملية المبادىء الإسلامية (عقيدة وعبادات ومعاملات إلخ) ؟

• وما خصائص اليمين الإسلامي في ظل هذا التصنيف ؟

• وهل يبقى اليمين إسلامياً مع أنه مخل بشروط أصلية كثيرة لا تقتصر على الفروع ؟

• واليسار الإسلامي : هل سيبقى إسلامياً كذلك مع أنه بالضرورة سيهمل بعض الأساسيات الإسلامية — شاء أو لم يشأ — ؟

• وتاريخنا الإسلامي العظيم : هل سنبدأ تشريحه من جديد بتركيز شديد على الجوانب اليسارية ، وإهمال — بل وإدانة — للمواقف البرجوازية (من عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان وأمثالهما ؟ ! !) .

• وهل يمكن التعامل مع الإسلام من خلال هذه النظرة الجزئية الذاتية النفعية « التي يطغى فيها المذهب على المنهج » والإيمان ببعض الكتاب (خضوعاً للمذهب) والكفر ببعضه (خضوعاً للمذهب كذلك) ؟!!

• واليسار الإسلامي : هل هو مجرد مذهب فقهي جديد (ينحصر في الفروع) أم هو « تجمع عقائدي » حركيٌ مضاد ؟ ...

• ومضاد لمن : لليمين الإسلامي أم لليسار غير الإسلامي ؟

• وهل يقبل اليسار الحقيقي (غير الإسلامي) هذه النظرة التحريفية ؟

تلك التي تهمل أبجديات مذهبه (التفسير الاقتصادي .. المادية التاريخية) لتأخذ ظواهر وانعكاسات اجتماعية تكاد تكون موجودة في كل الأديان والمذاهب ؟

• والمسيحية – في واقعها التشريعي – قاصرة ، وبالتالي لا يُوجَد ارتباط بين عقائدها وعباداتها ومعاملاتها على النحو الموجود في الإسلام ، فإذا جاز تكوين « يسار مسيحي » – لهذه الطبيعة الموجودة في المسيحية .. فكيف سيجوز في الإسلام ؟ ! ! (هذا بالإضافة إلى الشك في وجود مسيحية عقائدية تدين بها هذه التكتلات ، وإنما هي ستار سياسي لأغراض جماهيرية مرحلية سياسية) ! !

• والدلائل تشير إلى نهاية الدور اليساري في التوجيه العقائدي للفكر المعاصر ... فماذا سيكون موقف اليسار الإسلامي في هذا الحين ؛ هل سيصفي نفسه ، ليعود من جديد إلى الصف اليميني الإسلامي الرجعي ؟ أم سيظل اليساري الوحيد في العالم ؟

* * *

العجيب أن الدعوة إلى اليسار الإسلامي أو إلى تقارب بين الإسلام والشيوعية دعوة شيوعية أصلاً .. نادى بها في جريدة الجمهورية وغيرها كثيرون – أثناء سيطرة الشيوعيين على أجهزة الدعاية في مصر ... ومن هؤلاء « محمد عودة ، وسامي داود » ...

وأنا هنا لا أرى رأي القائلين بتفرقة كبيرة بين اليساري والماركسي ، وأرى أن حجم التفرقة المزعومة بينهما لا يزيد عن حجم التفرقة المزعومة لأغراض سياسية وإعلامية بين اليهودي والصهيوني ! !

– وقد غزت فكرة التفرقة بين الماركسية واليسار (باعتبار نشأتهما التاريخية) عقول كثير من المثقفين ، الذين حاولوا .. ضرب الإسلام – من هذا الطريق (وحاشا الأستاذ فتحي عثمان أن يكون منهم) .

– كما غزت هذه الفكرة عقول كثير آخرين حاولوا أن يجمعوا بين

عدائهم الفكري للشيوعية . وعدم استطاعتهم اتخاذ موقف العداء للاشتراكية (بحكم ضغوط معينة) .

وأذكر كلمة قرأتها أخيراً للأستاذ توفيق الحكيم (في حديث صحافي) تظهر فيها هذه التفرقة التي توضح أصل هذا الموقف وجذوره ...

يقول الحكيم :

« اليسار بحسب مفهومي هو الدعوة للتطور والتجديد ونبذ الجمود .. اليسار دائماً ضد المحافظة والجمود .. الإسلام في عصره كان يساراً لأنه كان يدعو للتغيير ، وتحطيم كل التقاليد والأوضاع القائمة (!!) وتطوير المجتمع على نحو جديد (!!) .

... والذين يطالبون بتغيير المجتمع سواء بجعله مجتمعاً إسلامياً أو شيوعياً يُعتبرون يساراً ضد الأوضاع القائمة في المجتمع الحالي ؛ لأن المجتمع الحالي ليس شيوعياً ولا إسلامياً ... هنا أيضاً اليسار الوطني الذي يطالب بتغيير المجتمع والثورة ضد سلبياته وتطبيق نظريات جديدة نابعة من تجربته وتاريخه .. ثورة ٢٣ يوليو (!!) كانت وما زالت ثورة يسارية . وما زالت ثورة يسارية لأنها كانت ضد الأوضاع التقليدية الجامدة في المجتمع المصري .. إلخ

(وأخيراً يقول الحكيم) :

« وبهذا المفهوم الواسع .. أنا يساري من النوع الثالث ... يساري وطني أدعو للتطور والتغيير والاستفادة من كل التجارب الإنسانية والمحلية .... لاستفادة من التراث الإسلامي ... ومن التجربة الاشتراكية ... ومن تجاربنا المحلية .. إلخ » !!

• ومع أننا — كما ذكرنا — لا نؤمن بالفصل بين الماركسية واليسار ، (كما يدعي بعض الماركسيين المرحليين المهادنين) ، وكما يقول توفيق الحكيم (اعتماداً على النشأة التاريخية لأسبقية اليسار على الماركسية كأسبقية اليهودية على الصهيونية !!) .. (مع أننا لا نؤمن بهذا ، فنحن — مع ذلك — نتساءل (كما

تساءل الأستاذ فتحي عثمان نفسه من قبل في كتابه المذكور آنفاً ص ١٠٧) :

– اليمين .. يمين بالنسبة لماذا ؟ واليسار ... يسار بالنسبة لماذا (في الإسلام ؟)

– وأي أوضاع يمينية (ثابتة لا تتغيّر في الإسلام) يريد اليمينيون الجامدون الحفاظ عليها . بينما يريد اليساريون النزاعون إلى التغيير الجذري اقتلاعها من جذورها ؟

– إن مبادىء الإسلام – على اختلاف مستوياتها – تنقسم قسمين رئيسيين : أصول وفروع ....

• فأما الأصول فهي ثابتة لا تتغير ، والخروج عليها كفر صراح ، وردّة (أيديلوجية) تستوجب العقاب في الدنيا والآخرة ، بل إن هناك – حظْراً شديداً في باب العقائد على التلاعب بالشعارات أو استغلال المنطوق والمفهوم ، لأنه في باب العقائد « لا يغني ملزوم عن لازم » .. ! !

• وأما الفروع ... فمن حق الجميع أن يجتهدوا فيها ، وما يمكن أن يصلح به أمر الخليج (في حالته البترولية المزدهرة) قد لا يصلح له أمر بلد كاليمن أو مصر (يحتاج إلى أشْعرية إسلامية) ، ولا يعني اختلاف الظروف هنا أو هناك ضرورة تقسيم الأفكار والمفاهيم ، وتقسيم المسلمين بالتالي إلى قوى يمينية في الخليج ويسارية في اليمن ومصر وأندونيسيا ... وهلم جرا .. ! !

– إن الاجتهاد في الفروع حق للجميع ، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها .. وعلى المسلم أن يأخذ – كما كان الرسول عليه الصلاة والسلام يأخذ – بأيسر الأمور المناسبة للظروف والطاقة ! !

– وعلى امتداد تاريخ المسلمين وجد الأغنياء والفقراء جنباً إلى جنب ، ومع ذلك فإن المجتمع الإسلامي بشهادة المؤرخين المنصفين ... لم يصنَّف طبقياً بالمعنى المفهوم للطبقية الحديثة ، التي تتطلب ظهور قوى ثورية تريد تغيير المجتمع و « يا عمال العالم اتحدوا » من أجل حقوق الطبقة العاملة ..

– فمنذ اللحظة الأولى في الإسلام بنيت حركة المجتمع على « التكاملية والتعاونية » وليس « الصراعية » ، وبالتالي فليس هناك المبرر العملي ولا التاريخي

لظهور طبقة « يسار » في وجه طبقة « يمين » (بالمعنى المفهوم في عصرنا) .

— وإلى الآن لم تنشأ المبررات التاريخية لهذا النشوء ... لأن طبيعة المبادىء الإسلامية المؤثرة في « تراب » العالم الإسلامي وفي « بشره » لا تسمح بمثل هذا النشوء ...

— ومع اختلاف في النسبة طبعاً — كما هي سنّة الله في الحياة — يمكن وصف كل مجتمع من المجتمعات الإسلامية على الجملة بأنه مجتمع فقير أو غني أو متوسط .. ودعك من الشذوذ الذي لا يوجب إسقاط القاعدة بل تأكيدها وتدعيمها ...

— فما هي الضرورة الملحة الحتمية — يا ترى — لتطويع حركة التاريخ الإسلامي لظواهر وأمراض واتجاهات أنبتتها حركة التاريخ المسيحي في ظل إقطاع الكنيسة وما أعطته لنفسها من حق السيطرة على كل شيء ... العقل والمال والضمير بل وأقدس الخصائص التي لا يجوز أن يعرفها إلا الله سبحانه ؟! !

* * *

إنه — في الحق — لا توجد ضرورة ملحة « حتمية » لتطويع الإسلام لهذه الاعتسافات !! بل على العكس توجد الضرورات الحضارية الملحة للتمسك بمصطلحاتنا وشعاراتنا ... فليست هذه المصطلحات أهلاً لأن نلوي عنق الحقائق الإسلامية لها ..

وليس المسلمون — في عصرهم الحديث — بحاجة إلى (إعادة توزيع) على أسس أخرى غير (التوزيعات) و (التمزيقات) التي مُنوا بها .. ! !

* * *

— فلتكن « المسلم المعاصر » مجلة لكل مسلم « مثقف » معاصر ... وليست مسرحاً من المسارح الهزلية للعبة اليمين واليسار ....

— مع تحياتي لها ... في بداية مسيرتها ... الطويلة بإذن الله ...

— وتحياتي — أيضاً — للأستاذ فتحي عثمان ...

نقد كتب

الإسلام يتحدى
(مدخل علمي إلى الإيمان)
لوحيد الدين خان

د . زغلول النجار *

يشتمل الكتاب [1] الذي يقع في ٢٨٧ صفحة على أبواب تسع بالاضافة إلى تمهيد وفهرس وتقديم للمراجع ، وفيما يلي عرض موجز لما ورد في كل من هذه الأبواب :

الباب الأول : قضية معارضي الدين :

بدأ المؤلف هذا الباب بجملة مقتطفة عن جوليان هكسلي أحد الذين حملوا لواء الالحاد في هذا العصر ، وانتقل بعد ذلك إلى تقسيم تطور الفكر الانساني كما أورده أوجست كنت ثم عرج إلى تلخيص الحجج التي يستند اليها معارضو

---

* استاذ ورئيس قسم الجيولوجيا بجامعة الكويت .

(١) تأليف المفكر المسلم المعاصر وحيد الدين خان ، تعريب ظفر الاسلام خان ، مراجعة الدكتور عبد الصبور شاهين ، نشر دار البحوث العلمية ١٣٩٠ هـ ١٩٧٠ م الطبعة الأولى ، والاشارة هنا الى الصفحات وفقاً لهذه الطبعة الأولى .

الدين وأولها ما هو مستمد من بعض المشاهدات في مجال العلوم البحته ، وأساسه الظن الخاطىء الذي أشاعه بعض الكتاب بعد اكتشاف عدد من قوانين الطبيعة فتنادوا بانه « اذا كانت الحوادث تصدر عن قوانين طبيعية فلا ينبغي أن ننسبها إلى أسباب فوق الطبيعة » .

وثانيها مستمد من بعض الاستنتاجات في مجال العلوم النفسية والتي بنيت على شعار باطل مؤداه « أن الدين نتاج اللاشعور الانساني ، وليس انكشافاً لواقع خارجي » .

وثالثها مستمد من « التاريخ حيث نادى معارضو الدين خطأ بان الدين نتيجة لتعامل خاص بين الانسان وبيئته ، وأن القضايا الدينية ما وجدت الا لأسباب تاريخية أحاطت بالانسان ، وأن كل القيم الاخلاقية هي في تحليلها الأخير من صنع الظروف الاقتصادية » .

وقد جاء عرض هذه القضايا بصورة موضوعية متجردة ، في محاولة لطرح القضية على بساط من الحيدة وهنا أود أن أقول انه ربما كان من الأفضل لو استهل الكاتب هذا الباب باستعراض تاريخي موجز لقضية الدين عبر التاريخ بدلا من بدئه من نقطة المعارضين مباشرة ، فالايمان سابق على الكفر وهو فطري في النفوس ، أما المروق والكفر والالحاد فهي حالات مرضية عارضة في تاريخ الانسانية مردها الهوى والاستهتار والرغبة في الخروج على كل ما ينظم حياة البشر ، ومن أسبابها الرئيسية موقف الكنيسة في العالم الغربي بصفة خاصة من رجال العلم في القرون الوسطى وحتى مطلع القرن العشرين ، مما أوجد عداء تقليديا بين كثير من المفكرين والمشتغلين بالعلوم وبين الدين .

الباب الثاني : نقد قضية المعارضين :

وهنا يرد المؤلف على الحجج التي أوردها في الباب الأول فيذكر في رده على المعارضين الذين ينطلقون من زاوية العلوم البحتة بأن الطبيعة حقيقة من حقائق الكون وليست تفسيراً له بينما الدين يبين لنا الأسباب والدوافع الحقيقية

التي تدور وراء الكون وعلى ذلك فان اكتشافات العلوم لا تتوصل الا لبعض صور الهيكل الظاهري للكون ولا تستطيع ان تنفذ إلى ما وراء ذلك . وأن العلم لا يكشف لنا كيف صارت وقائع الكون قوانينا ؟ ولا كيف قامت هذه الوقائع بين الأرض والسماء على هذه الصورة المفيدة المدهشة حتى أن العلماء استطاعوا أن يستنبطوا منها قوانينهم العلمية ؟ والحقيقة ان ادعاء الانسان بعد كشفه لبعض قوانين الطبيعة انه قد اكتشف سر الكون ليس سوى خدعة لنفسه فان الطبيعة لا تفسر شيئاً من الكون وانما هي نفسها بحاجة إلى تفسير . وفي ذلك يقول الأستاذ هاريس في نقد نظرية النشوء والارتقاء « ان الاستدلال بقانون الانتخاب الطبيعي يفسر عملية بقاء الأصلح ولكنه لا يستطيع ان يفسر حدوث هذا الأصلح » .

ثم ناقش حجج المعارضين الذين ينطلقون من زاوية العلوم النفسية وادعاءهم دون استدلال واضح على « أن الاله والآخرة قياس للشخصية الانسانية وأمانيها على مستوى الكون » ، وأردف أن من معايب الفكر الحديث انه يستنبط من حادث عادي دليلا غير عادي وان اللاشعور الانساني في أصله فراغ ، لا شيء فيه قبل مولد الانسان ، وانما يستقر فيه عن طريق الشعور ما يشغله الآن لأن اللاشعور ليس سوى مخزن للمعلومات والمشاهدات التي جمعها الانسان أو شاهدها خلال حياته ، وعلى ذلك فمن المستحيل أن يختزن حقائق لم يعملها من قبل ، والذي يثير الدهشة أن الدين الذي جاء على السنة الانبياء يشتمل على حقائق أبدية لم يشاهدها أحد من الناس ، فلو كان اللاشعور هو مخزن هذه المعلومات فمن اين يأتي بها هؤلاء الذين يتكلمون عن أشياء لا سبيل لهم إلى العلم بها الا بوحي من السماء . ويضيف أن الدين الذي جاء به الأنبياء يتصل من ناحية أو أخرى بجميع العلوم المعاصرة في عرض صادق لم يستطع أحد ان يدل على باطل جاء فيه ، بينما كل حديث في التاريخ الانساني مصدره الشعور فضلاً عن اللاشعور لا يخلو من الاغلاط والادلة الباطلة ولقد مرت قرون

اثر قرون أبطل فيها الاخرون ما ادعى الاولون وما زال صدق كلام النبوة باقياً على الزمن .

ورداً على المعارضين الذين ينطلقون من زاوية التاريخ يذكر المؤلف ان خطأ هؤلاء الرئيسي أنهم لا يدرسون الدين من وجه صحيح لأنهم يتناولونه على انه مشكلة موضوعية بينما الدين علم على حقيقة يقبلها المجتمع كاملة أو ناقصة أو يرفضها ويبقى الدين في جميع هذه الأحوال حقيقة واحدة في ذاتها .

وناقش المؤلف تباين افكار الباحثين الاجتماعيين بين فكرة تعدد الالهة إلى فكرة دين الاله الواحد إلى فكرة الدين بغير الاله وادعاءهم ان فكرة الاله شكل ارتقائي لفكرة تعدد الالهة ويبين أن هذا خلط واضح حيث ان الوحدانية اقدم بكثير من فكرة الشرك . وتعرض بعد ذلك لفكر ماركس وتهجمه غير المنطقي على الدين ونفيه ارادة الانسان وإحالته الأحداث كلها إلى تأثير عوامل الزمن الاقتصادية ورد المؤلف على ذلك أن حقيقة الدين وسفسطة المعارضين تتجلى بوضوح حين نطالع صورة الحياة الانسانية في ضوء الدين ونطالعها في الصورة التي يرسمها لها المعارضون لفكرة الدين ، فصورة الحياة الانسانية في ضوء الدين صورة جميلة لطيفة ، تتوافق مع افكار الانسان السامية كما يتوافق الكون المادي مع القوانين الرياضية بعكس الصورة التي يرسمها معارضوا الدين . فالكون في ضوء الفكر المادي يكاد يفقد اهدافه كلها ولا يبقى غير الظلام الحالك الذي تتلاشى فيه معايير الخير والشر أما الفكر الديني فهو فكر الضوء والأمل ، الموت والحياة فيه مرتبطان بأهداف معينة ، وكل القيم والأفكار الانسانية السابقة تجد لها مكاناً فيه ، واذ كان بعض العلماء يطمئن إلى أنه قد توصل إلى الحقيقة بمجرد تصديق القوانين الرياضية لأفكاره ، فان تصديق العقل الانساني للدين لدليل قطعي على انه الحقيقة التي طالما بحثت عنها الفطرة الانسانية ، وعندئذ لا نجد أساساً واقعياً لانكار قيمة الفكر الديني . الا أنه يبدو كما يقول سير جيمس جينز ان في عقول المعارضين تعصباً يرجح التفسير المادي للحقائق وضرب المؤلف أمثلة عديدة على ذلك منها قول سير آرثر كيث « ان

نظرية النشوء والارتقاء غير ثابتة علمياً ، ولا سبيل إلى اثباتها بالبرهان : ونحن لا نؤمن بها الا لان الخيار الوحيد بعد ذلك هو الايمان بالخلق الخاص مباشرة ، وهذا ما لا يمكن حتى مجرد التفكير فيه » وفي الرد على ذلك التعصب الاعمى يقول العالم الأمريكي جورج بلونت « ان كون العقيدة الالهية معقولة ، وكون انكار الاله سفسطة لا يكفي ليختار الانسان جانب العقيدة الالهية ، فالناس يظنون ان الايمان بالله سوف يقضي على حريتهم ، تلك الحرية العقلية التي استعبدت عقول العلماء واستهوت قلوبهم ، وعلى ذلك فان أية فكرة عن تحديد هذه الحرية مثيرة للوحشة عندهم » .

ولم يخل هذا الباب من بعض الأخطاء وأهمها :

١ - لا يوجد شيء اسمه حقيقة الطبيعة (ص ٤١ السطر السادس) لأن الحقيقة لا يعلمها الا الله أما مشاهدات الناس فهي مجرد محاولة للتفسير ثم ان لفظة الطبيعة ليست ترجمة دقيقة لكلمة nature بالانجليزية فمرادفها الحقيقي هي كلمة الفطرة .

٢ - ان الدليل الذي ذكر في (ص ٤١ السطر السابع) باسم البيولوجيا هو قانون ينطلق من العلوم البحتة بصفة عامة وليس باسم البيولوجيا كما ان المثل الذي أورده في صفحة ٤٨ ، ٤٩ على لسان برستد لا محل له في مجال المناقشة خاصة وان المؤلف لم يورد ردا على افتراءات برستد وان هناك كثير من الردود العلمية في هذا المجال سبق بها القرآن كل الاكتشافات الحديثة وما كان أجدر المؤلف أن يورد في هذا المقام بعضا منها بدلا من استدلاله بافتراءات برستد .

كما كان من الأفضل أن يوضح بجلاء موقف الفكر العلمي الحديث من الدين ورد ذلك الموقف الى الاضطهاد الذي لقيه العلم والعلماء في اوروبا ابان القرون الوسطى والى حب الناس أحيانا في اتباع أهوائهم مما يجعلهم يحاولون التخلص من أي قواعد تضبط تصرفاتهم وتنظمها وهم لا يستشعرون أن في ذلك هلاكا لهم .

الباب الثالث : طريقة الاستدلال العلمي :

استعرض المؤلف طريقة الاستدلال العلمي ولخصها بمحاولة التعرف على الحقيقة بالتجربة والمشاهدة والاستنتاج بينما تتصل عقائد الدين بعالم ما وراء حواسنا ولا يمكن اخضاعها للتجربة ثم استطرد إلى تعريف التجربة والقياس وان هناك من الحقائق ما هو محسوس مدروك ومنها ما هو مستنبط غير مدروك وان حقائق الكون لا تدرك الحواس منها غير القليل والكثير منها مستنبط على طريق التعليل وهذا المنهج صحيح لان الكون نفسه عقلي فالكون كله مرتبط بعضه ببعض . حقائق متطابقة ونظامه عجيب ولهذا فان أية دراسة للكون لا تسفر عن ترابط حقائقه وتوازنها هي دراسة باطلة واستشهد بذلك بتعبير ماندر « ان القول بأننا عرفنا الحقيقة يعني اننا عرفنا معناها ، وبعبارة أخرى اننا بحثنا عن وجود شيء ما وعن أحواله ففسرناه واكثر معارفنا العلمية تدخل في هذا النطاق فهي في الحقيقة تفسيرات للملاحظة » ويستطرد فيقول « عندما نذكر ملاحظة فاننا نقصد شيئاً اكثر من المشاهدة الحسية المحضة فمعناها **الملاحظة الحسية والتعرف** بما يشمل جانب التفسير » .

ثم انتقل بعد ذلك إلى مناقشة مشكلة تعيين حقائق الأمور وفي ذلك يقول بان الدين والعلم كلاهما يعتمد على الايمان بالغيب غير ان دائرة الدين تتعلق بتعيين حقائق الأمور نهائياً وأصلياً أما العلم فيقتصر بحثه على المظاهر الأولية والخارجية واستشهد في ذلك بقول سير آرثر ادنجتن « وهكذا نجد لكل شيء صورة ذات وجهين احدهما ملحوظ والاخر صورة فكرية لا سبيل إلى مشاهدتها بأي مكرسكوب او تلسكوب » والوجه الأول يشاهده العلم غير أنه لا يستطيع ان يدعي انه يشاهد الوجه الآخر . وعندما يجتمع لدى عالم من العلماء قدر مناسب من الحقائق الملحوظة فانه يحس بضرورة وضع نظرية أو فرض علمي « اي فكرة اعتقادية وجدانية » تقوم بتفسير الملاحظات وربط النتائج بعضها ببعض فاذا نجحت هذه الفكرة في تفسير المشاهدات تفسيراً كاملاً عدت حقيقة علمية برغم انها لم تلاحظ قط كما لوحظت غيرها من الحقائق

بالمشاهدة ومعنى ذلك ان العالم التجريبي يؤمن بوجود شيء غائب بمجرد ظهور نتائجه وآثاره وهذا ما نسميه **الايمان بالغيب** وبمعنى آخر فان النظريات العلمية ما هي الا صور ذهنية لتفسير القوانين المعلومة هذا بالاضافة إلى ان المشاهدة الانسانية لا يمكن ان توصف بالكمال وبالتالي فان جميع الاستنتاجات العلمية يمكن ان تتغير وتتطور الملاحظة وهنا يقال بان النظريات العلمية الصحيحة ما هي الا فروض عملية ناجحة وعلى ذلك فان تفسير الدين للطبيعة هو عين الحق وهو تفسير لم يتغير ولن يتغير على مر الدهور على حين انه ما من نظرية صاغها الانسان الا وطورت أو غيرت أو رفضت وان صدق الدين ليتجلى بعد كل خطوة يخطوها العالم في الملاحظة حتى ليصبح كل كشف علمي جديد تصديقاً لحقائق الدين .

ومن الأخطاء الواردة في هذا الباب اطلاق كلمة حقيقة على التجربة والقياس (ص ٦١ السطر ٧) (وصفحة ٧٠ السطر ٣ و ٧١ السطر ٥) ويا حبذا لو حلت كلمة الظواهر محل الحقائق في الصفحتين الأخيرتين كما ان عرض نظرية التطور العضوي في الصفحات ٦٦ — ٦٨ قد تم بصورة غير متكاملة ، ولو أن الموضوع كبير الا أنه كان من الممكن تلخيصه بصورة أفضل .

الباب الرابع : « الطبيعة تشهد بوجود الله » :

حاول المؤلف اثبات ان الكشوف العلمية المؤكدة هي في ذاتها تصديق لحقائق الدين ، وفي ذلك بدأ باستعراض نظرية التشكيك في الوجود وانتهى بأن هذه الفكرة بكل ما تتضمن من الجهالة وانعدام الواقعية فكرة لا معنى لها في ذاتها ولم تحظ بقبول في دنيا العلم ، ثم انتقل بعد ذلك إلى الحديث عن الوجود والخلق فذكر ان الانسان يؤمن بأن له وجوداً وبأن للكون أيضاً وجوداً وعلى هذا الأساس تقوم جميع ألوان النشاط العلمي والحيوي وأردف بانه إذا آمنا بوجود الكون فلا بد ان نؤمن بخالق هذا الكون اذ لا معنى ان نؤمن بالمخلوق ونرفض وجود الخالق فكل شيء عظم أو صغر وراءه علة فكيف يمكن ان يجيء كون

عظيم مثل كوننا ذاتيا دون خالق ؟ وعرج من ذلك على موضوع ازلية الخالق سبحانه وتعالى وعدم ازلية المادة . وفي التدليل على حدوث المادة استشهد بقوانين الديناميكا الحرارية خاصة قانون الطاقةالمتاحة والذي يثبت إنه لا يمكن ان يكون وجود الكون ازلياً حيث ان الحرارة تنتقل دائماً من وجود حراري إلى وجود غير حراري والعكس غير ممكن وبالتالي فلا بد ان سيأتي وقت تتساوى فيه حرارة جميع الموجودات فلا تبقى أي طاقة كافية للحياة فتنتهي العمليات الكيماوية والطبيعية وبانتهائها تنتهي الحياة وبهذا فقد ثبت أن لهذا الكون نهاية وكل ما له نهاية لا بد وان له بداية وان له خالقاً عظيماً فكل ما له بداية لا يمكن ان يبتدي بذاته بل لا بد له من المحرك الأول الخالق البارىء المصور .

ثم عرج المؤلف بعد ذلك على الكشوف الفلكية وتحدث عن اتساع الكون وعظمته ثم على المجموعة الشمسية التي تنتمي اليها أرضنا وشمسنا وقمرنا ومكوناتها وتحدث عن تعقد الكون ودقة نظامه وانضباط حركته مما يؤكد بأن هناك قوة مبدعة تهيمن على ذلك النظام العظيم .

وانتقل المؤلف بعد ذلك إلى الحديث عن بعض الانظمة المعقدة في الكون فأشار إلى أن الذرة وهي وحدة بناء المادة مبنية على نفس نظام المجموعة الشمسية وان هذا النظام يستحيل قيامه بنفسه ، وهو في ذاته دليل واضح على وجود منظم قائم على هذا الكون ، وكذلك الجهاز العصبي في الانسان فانه غاية في الاعجاز وعلى سبيل المثال فان بلسان الإنسان ثلاثة الاف من شعيرات التذوق لكل منها شعيرة عصبية خاصة متصلة بالمخ كما توجد في الاذن عشرة الاف خلية سمعية وفي كل عين مئة وثلاثون مليوناً من الخلايا الملتقطة للضوء وبالجلد ثلاثون الفاً من الخلايا الملتقطة للحرارة وربع مليون من الخلايا الملتقطة للبرودة وثلاثة ملايين من الغدد العرقية ؛ كذلك فان الجهاز العصبي في جسم الانسان ينقسم إلى عدة فروع منها المتحرك ذاتياً ومنها ما هو غير ذلك والنوع الأول يسيطر على الأعمال التي تحدث ذاتياً في جسم الانسان كعملية الهضم والتنفس

ونبضات القلب وغيرها ويندرج تحت هذا النوع نظامان احدهما موجد للحركة والاخر مانع لها وهذان النوعان يباشران عمليهما في دقة فائقة فالنظام الأول يتغلب عند زيادة النشاط واحتياج القلب إلى قوة مسعفة فتزيد سرعة عمليات القلب والرئة ، بينما يسود النظام الثاني عند النوم حين تهدأ جميع المحركات الجسدية ولو تغلب النظام الأول في وقت ما لازدادت حركة القلب زيادة يترتب عليها موت صاحبه ولو سيطر النظام الثاني لتوقفت حركة القلب توقفاً تاماً . فمن الذي أحكم صنع ذلك .... ؟؟

وانتقل بعد ذلك إلى الحديث عن كون الاختراعات العلمية في مجموعها هي محاكات لنماذج حية في الطبيعة وضرب أمثلة كثيرة منها تشابه آلة التصوير بعين الانسان وأجهزة الرادار وغيرها من أجهزة التقاط الذبذبات التحت صوتية بما يملكه كثير من الكائنات الحية وفي ذلك يقول المؤلف اذا كانت أجهزة التصوير وغيرها لا يمكن وجودها بغير عقل انساني فمن المستحيل ان نتصور ان نظام الكون الذي هو اكثر تعقيداً من أي نظام آخر — قد قام بنفسه بغير عقل وراءه بل لا بد له من خالق عظيم هو الله .

ثم انتقل المؤلف إلى الحديث عن أن الكون متوازن ومتناسب إلى حد لا يمكن تصوره وعلى سبيل المثال فان الحياة على كوكبنا الأرض تحتاج إلى ظروف خاصة من المستحيل رياضياً اجتماعها بنسبها المحددة — بمحض الصدفة وهذا وحده يؤكد ان هناك عقلا عظيماً وراء هذا الكون هو الذي أوجده وهو الذي يرعاه فحجم الكرة الارضية اختير بحكمة بالغة ولو ان هذا الحجم نقص أو زاد عن حجمه الحالي لاستحالت الحياة فوق الأرض كما أن مجرد وجودنا على سطح الأرض وهي تدور بسرعتها الهائلة معجز في حد ذاته حيث لا يمسكنا إليها الا جاذبيتها وضغط الهواء عليها ولولا هاتين القوتين لما أمكن تواجد اي مخلوق على سطح الارض .... ثم ان وضع الارض من الشمس ومن الكون ومدة دورانها حول محورها وميل محورها وتكون غلافها الغازي والمائي وسمك قشرتها واعماق بحارها وسمك غلافها الغازي وتركيبه المحدد كل ذلك مصمم

بحكمة بالغة وتدبير محكم .. فلولا الغلافين المائي والغازي لما أمكن أن تتواجد حياة على الأرض ولو كان سمك قشرة الأرض أكثر قليلاً من سمكها الحالي لما وجد الاكسجين في غلافها الجوي وبدونه تستحيل الحياة ... ولو كانت البحار أعمق قليلا لانجذب ثاني اكسيد الكربون والاكسجين إلى تلك الأعماق وانعدمت الحياة على الأرض ... ولو قل سمك الغلاف الغازي لاحرقتنا النيازك التي تقذف الأرض بأعداد هائلة سنوياً بسرعات هائلة ولما أمكن حماية الحياة على الأرض من الأشعة الكونية ولما امكن الاحتفاظ للأرض بمتوسط حرارتها الثابت .... كذلك فان تركيب الغلاف الغازي معجز في حد ذاته فلو قلت نسبة الأكسجين مثلا قليلاً لما امكنت الحياة ... ولو زادت قليلا لكان بامكان عود ثقاب ان يشعل الكرة الأرضية ... واستشهد المؤلف أيضاً بقلة كثافة الثلج عن كثافة الماء مما يحفظ البحار والأنهار من التجمد الكامل في فصل الشتاء وبالتالي يبقى على الحياة المائية تحت الجليد ، وتحدث أيضاً عن الاتزان الدقيق بين مجموعات الحياة الحيوانية والنباتية ....

واستخلص أن هذا كله يشير إلى ما أسماه بقانون الضبط والتوازن وفي ذلك يستشهد بقول أحد علماء الطبيعة « ان العلم لا يملك اي تفسير للحقائق والقول بأنها حدثت بالصدفة انما يعتبر تحدياً وانكاراً للحسابات الرياضية » .

وتحدث الكاتب عن السنن الرياضية المحكمة في الكون وأضاف أنه لو لم يكن هذا النظام والضبط في المادة وعمليات الطاقة لما وجد الانسان أسساً يقيم عليها كشوفه ومنجزاته العلمية ولما أمكن التنبؤ بحدث من الاحداث ولا بنتيجة من النتائج لان الأساس في التنبؤ العلمي هو النظام الدقيق والاضطراد في العمليات المحددة واستشهد في ذلك بالجدول الدوري للعناصر وقال ان الترتيب المحكم لصفات العناصر المختلفة في ذلك الجدول لا يمكن أن يوصف بالصدفة وانما هو قانون محكم ، احكمه الذي خلق العناصر ووهبها هذه الدورية في الصفات وأضاف بأن عدم ايمان العلم الحديث بالاله هو في الواقع انكار لكشوفه العلمية فالنظام في الكون غاية في الدقة والإحكام من الذرة إلى قطرة

الماء إلى الكواكب والنجوم والمجرات في أجواز الفضاء ...... نظام نستنبط على أساسه قوانيننا العلمية التي نستخدمها في تسخير الطبيعة وعمران الأرض .

ثم انتقل المؤلف إلى الحديث عن أن معارضي الدين يسلمون بالنظام العجيب والحكمة غير العادية في هذا الكون ولكنهم يفسرونها بأنها جاءت نتيجة للصدفة المحضة الا أن علوم الرياضيات تؤكد أن عمر الكون وحجمه كما حددهما لنا العلم الحديث غير كافيين في اي حال من الاحوال لتسويغ ايجاد هذا الكون عن طريق الصدفة وضرب مثالاً على ذلك بالجزيء البروتيني الذي تتكون منه كل الخلايا الحية وهو مركب كيميائي من خمسة عناصر هي الكربون والهيدروجين والاكسجين والكبريت . يشمل الجزيء البروتيني الواحد أربعين ألفاً من ذرات هذه العناصر ولما كان في الكون أكثر من مئة عنصر كيماوي فهل يمكن أن تجتمع هذه العناصر الخمسة بنسبها المحددة لتكون الجزيء البروتيني بمحض الصدفة ؟

لقد حسب الرياضي السويسري تشارلز يوجين جواي ان امكانية تكون الجزيء البروتيني عن طريق الصدفة يتطلب مادة مقدارها بليون ضعف المادة الموجودة الان في سائر الكون حتى يمكن تحريكها وضخها ، وان المدة اللازمة لذلك تبلغ اكثر من $١٠^{٢٤٣}$ سنة وهي تبلغ ملايين المرات ضعف عمر الارض الحالي .

ثم أضاف بان جزيء البروتين يتكون من سلاسل طويلة من الأحماض الأمينية يمكن تجميعها فيما يقرب من ١٠ ١٤٨ صورة ، وأخطر ما في العملية هو الطريقة التي تتحد بها هذه السلاسل بعضها مع بعض فانها لو اجتمعت في صورة غير صحيحة لأصبحت سماً قاتلاً بدلاً من ان تصبح مادة حية . وانه من المستحيل تماماً ان تجتمع هذه السلاسل بمحض الصدفة في صورة مخصوصة من هذه الصور التي لا حصر لها .. ثم يضيف ان الجزيء البروتيني ذو وجود كيماوي لا يتمتع بالحياة الا عندما يصبح جزءاً من الخلية فهنا تبدأ الحياة ... ، وهذا الواقع يطرح السؤال التالي : من اين تأتي الحرارة اللازمة لاندماج الجزيء

البروتيني بالخلية ؟ ولا يوجد لدى العلم التجريبي في الوقت الحاضر اجابة على هذا السؤال . وفي جسد كل فرد منا ما يربو على مئات البلايين من هذه الخلايا . فاين المادة والوقت اللازمين لتكوين كل هذه الخلايا ومادة الكون محدودة وعمره أيضاً محدود ؟ .

ومن ذلك يتضح ان المادة العادية غير ذات الروح تحتاج إلى عمر مضاعف إلى بلايين المرات من السنين وكتلة مادية مضاعفة إلى بلايين الأضعاف حتى يتسنى مجرد امكان حدوث جزيء بروتيني واحد بمحض الصدفة . فكيف اذن وجدت هذه البلايين التي لا تكاد تحصى من صور الحياة والتي ينتظمها اكثر من مليون نوع من أنواع الحيوانات واكثر من ربع مليون نوع من أنواع النباتات ؟ .. ثم كيف جاء من خلال هذه الانواع الحيوانية ذلك المخلوق الأعلى المسمى بالانسان كما تفترض نظرية النشوء والارتقاء على اساس من تغيرات تم بالصدفة المحضة ؟ أن الرياضي (باتو) قد حسب ان اكتمال تغير جديد في جنس ما قد يستغرق مليوناً من الأجيال وفي ذلك يقول العالم الأمريكي مارلين ب كرايدر « ان الامكان الرياضي في توفر العلل اللازمة للخلق عن طريق الصدفة في نسبها الصحيحة هو ما يقرب من لا شيء » .

وهذا الباب يعتبر من أروع ما ورد في الكتاب الا أن بعض الأخطاء قد وردت به ويمكن ايجازها فيما يلي :

١ — في ص ٧٥ السطر ١١ يذكر المؤلف « ونحن لا نعلم شيئا جاء الى الوجود من العدم دون أن يخلق » وكلمة من العدم هنا لا معنى لها فالله سبحانه وتعالى قد أوجد الوجود من العدم والا فكيف كانت له بداية ؟

٢ — في ص ٧٦ سطر ١٣ ، ١٤ يذكر المؤلف «فان عدم كفاءة عمل الكون يزداد يوما بعد يوم » وهذا تعبير خاطيء تماما فان الكون في كل لحظة من لحظات وجوده يعمل بكفاءة بالغة والا لما أمكنه أن يستمر في تواجده .

٣ — في ص ٧٨ السطر الثاني يذكر المؤلف « وان كل مجاميع النجوم والأجرام والأجسام الفلكية تتباعد بسرعة مدهشة بعضها عن بعض » والحقيقة أن الذي

يتباعد هو المجرات بينما يبقى حجم المجرات ثابتا وعلى ذلك فوضع الأجرام والأجسام الفلكية في داخل كل مجرة ثابت .

٤ — ص ٧٨ السطر الخامس والسادس يذكر المؤلف « ويقدر العلماء أن هذا الكون قد وجد نتيجة لانفجار فوق العادة وقع منذ ٥,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ سنة » . والحقيقة أن العمر الذي قدره العلماء هو للأرض التي نعيش عليها وليس للكون كله وان كان من المحتمل أن يكون عمر الأرض من عمر الكون الا أن هذا العمر المحدد يبلغ خمسة آلاف مليون سنة وليست خمسة ملايين مليون سنة وربما قد التبس الأمر على المؤلف نتيجة لاختلاف البليون الأمريكي وهو يساوي الف مليون عن البليون البريطاني الذي يساوي مليون مليون .

٥ — ص ٧٩ سطر ١ — ٥ كلام غير دقيق علميا ويمكن الاستغناء عنه .

٦ — ص ٧٩ سطر ٩ يذكر المؤلف « ان هذه الرحلة الخيالية سوف تستغرق ١,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ سنة . والحقيقة أن الجزء المعروف من الكون يبلغ قطره خمسة آلاف مليون سنة ضوئية وبالتالي فان محيطه أكبر بكثير من الألف مليون سنة التي ذكرها المؤلف .

٧ — ص ٧٩ سطر ٩ « يضاف الى ذلك أن هذا الكون ليس بمتجمد » والتعبير الصحيح انه ليس ثابت الحجم لأن لفظة متجمد لها دلالة أخرى .

٨ — ص ٨٠ الفقرتين الأولى والثانية غير دقيقتين علميا وعلى سبيل المثال وردت فيه كلمة كواكب بما يقصد به النجوم والفرق بينهما كبير جدا .

٩ — ص ٨١ السطر من ١٤ — ١٦ (والمجرة التي يقع فيها نظامنا الشمسي تدور حول محورها بحيث تكمل دورة واحدة في ٢٠٠ مليون سنة ضوئية » والحقيقة أن مجموعتنا الشمسية هي التي تستغرق ٢٠٠ مليون سنة لكي تتم دورة كاملة حول مركز مجرتها أما المدة اللازمة لدوران مجرتنا دورة كاملة فتقدر بأكثر من ذلك بكثير .

١٠ — ص ٨١ الفقرة الأخيرة و ٨٢ الفقرة الأولى الأرقام الواردة بها

خاطئة فالجزء المعروف من الكون يبلغ قطره خمسة آلاف مليون سنة ضوئية وان المجرة العظمى (التي تنتمي اليها مجرتنا) يبلغ قطرها ٤٠ مليون سنة ضوئية وسمكها بضع ملايين من السنوات الضوئية بينما يبلغ قطر مجرتها مائة ألف سنة ضوئية وسمكها نحو عشر ذلك . و بمجرتنا من النجوم ما يزيد عن المئة الف مليون نجم كما أن بالسماء من أمثال مجرتنا الف مليون مجرة وان أقرب المجرات الينا تبعد عنا بمقدار ٧٥٠ ألف سنة ضوئية بينما أقرب النجوم الينا يبعد عن الأرض بمقدار ٤,٤ سنة ضوئية .

١١ ــ ص ٨٤ السطر ١١ « وسنجد أن هذه الالكترونات لا تشغل أكثر من $\frac{١}{١٠٠٠٠٠٠٠٠٠}$ من مساحة الذرة » والصواب أن قطر الالكترون يبلغ $\frac{١}{١٠٠٠٠٠}$ من قطر الذرة حيث لا يمكن مقارنة الالكترون بما يسمى مساحة الذرة إذ ليس لها في الحقيقة مساحة .

١٢ ــ ص ٨٤ سطر ١٢ - ١٤ « ولو أننا أخذنا صورة مكبرة لجزيئين من الالكترون والبروتون فسوف يكون الفاصل بينهما ما يقرب من ٣٥٠ » هذا الكلام ناقص ولا معنى له علميا .

١٣ ــ ص ٨٥ السطر ١٥ « أن ملايين الأخبار تجري على أسلاك نظامنا العصبي ـ الذي أوجدته الطبيعة ـ من جانب الى آخر » إن جملة الذي أوجدت الطبيعة جملة خاطئة فالطبيعة لم توجد شيئا ولا تستطيع أن توجد شيئا .

١٤ ــ ص ٨٦ السطر ١٨ « ان ترجمة التعبير (sympathetic system) بالنظام الخالق للحركة ترجمة غير صحيحة فهو معروف باسم « النظام السمبتاوي » أو « النظام العاطفي » ، وفي السطر التالي وردت كلمة (para-sympathetic) بترجمة النظام المانع وترجمتها الحقيقية النظام شبه السمبتاوي .

١٥ ــ ص ٨٩ السطر ٩ « لا بد للحياة فوق الأرض من أحوال كثيرة يستحيل اجتماعها بنسبها الخاصة رياضيا » والصحيح انه يستحيل اجتماعها

بمحض الصدفة وكلمة أحوال ليست سليمة علميا والصواب كلمة شروط جمع شرط .

١٦ - ص ٩١ سطر ٤ « ان يصير وزن الحيوان الذي يزيد رطلا واحدا » وصوابها يزن .

١٧ - ص ٩٤ سطر ٤٠٣ « حتى جاءت الأرض في صورتها الحالية منذ أكثر من مليون سنة مضت وذهبت الغازات من فضاء الأرض الى فضاء الكون » وهذا التعبير خاطىء تماماً حيث أن الأرض تكونت منذ ٥ آلاف مليون سنة وان الغازات لم تذهب من فضاء الأرض الى فضاء الكون لأنها لو ذهبت لما كان هناك غلاف غازي للأرض .

١٨ - ص ٩٥ سطر ٣ « فلولا أن غلاف الأرض الهوائي يقينا من هذه الشهب لاحترقنا » والمقصود النيازك ، لأن الشهاب هو نيزك يحترق بالكامل نتيجة لاحتكاكه بالغلاف الغازي .

١٩ - ص ٩٧ سطر ٤ ، ٥ « تتركب معا فتصبح عناصر عظيمة الأهمية للحياة الحيوانية » ولفظة الحيوانية هنا زائدة لأن المركبات المشار اليها ضرورية للحياة بصفة عامة حيوانية كانت أم نباتية .

٢٠ - ص ٩٨ - الأمثلة التي ضربت على اتزان الحياة بصورة عامة على الأرض ليست كافية وهناك العديد من الأمثلة الأكثر دقة واستفاضة .

٢١ - ص ١٠٠ سطر ٧ كلمة « سنتجراد » من الأفضل أن تذكر درجة مئويـــة .

٢٢ - ص ١٠١ سطر ٢ ، ٣ ، ٥ ، ١٣ كلمة خريطة للعناصر الكيماوية والخريطة الدورية، والخريطة يجب أن تستبدل باسم الجدول الدوري للعناصر .

٢٣ - ص ١٠٢ سطر ٦ كلمة « كورنفال » هي في الحقيقة كورن وول .

٢٤ - ص ١٠٢ سطر ١٣ « الكواكب السحيقة » يجب أن تقرأ المترامية .

٢٥ - ص ١٠٢ سطر ١٥ لفظة « الكرات الفلكية » يجب أن تقرأ الأجرام الفلكيـــة .

٢٦ ـ ص ١٠٣ سطر ٩ « التحليل الكيماوي » يجب أن تقرأ المركب الكيماوي .

٢٧ ـ ص ١٠٣ سطر ١٠ « لتحليل النيتروجين » وصحتها لتثبيت النيتروجين .

٢٨ ـ ص ١٠٤ سطر ١ « احتك الرعد في الفضاء » صحتها رعد الرعد .

٢٩ ـ ص ١٠٤ سطر ١٠ تنقص لفظة « تم » قبل كلمة اكتشافنا .

٣٠ ـ ص ١١٠ سطر ١٧ « عندما يندمج الجزىء بالخلية » وصحتها لاندماج الجزيء بالخلية .

٣١ ـ ص ١١١ سطر ١٩ « إن الأرض لم توجد الا منذ بليونين من السنين » وصحتها ٥ آلاف مليون سنة .

٣٢ ـ ص ١١١ سطر ١٠ « وان الحياة في أي صورة من الصور لم توجد الا قبل بليون سنة » وصحتها لم توجد قبل ٣ آلاف مليون سنة .

٣٣ ـ ص ١١٢ سطر ٢ « ان كوننا موجود منذ ٥,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ سنة » وصحتها ٥ آلاف مليون سنة .

٣٤ ـ ص ١١٢ الفقرة الثانية يجب أن تعاد صياغتها لأن العلم لا يعرف الصورة القاطعة « سطر ٦ » كما ان النظرية الواردة عن أصل الأرض ما هي الا أحد الفروض المطروحة وقد استحدثت فروض أخرى أكثر قبولا .

٣٥ ـ والفقرتين الثالثة والرابعة في ص ١١٢ وكذلك الفقرة الأولى والثانية في ص ١١٣ عن تقدير عمر الأرض يجب أن تعاد صياغتها لما بها من أخطاء علمية واضحة كتعريف عملية الاشعاع وكذكر أن التجارب أثبتت انه قد مرّ ١٤٠٠ مليون سنة على تجمد أقدم جبال الأرض علما بأن أقدم الصخور الظاهرة على سطح القشرة الأرضية قد حدد عمرها بحوالي ٣٦٠٠ مليون سنة وهي صخور جرانيتية تظهر في منطقة دودوما بجمهورية تانزانيا ، وان كوكبنا الأرض قد تحول من صورته الابتدائية الى صورته الحالية منذ خمسة آلاف مليون سنة وليست الفا مليون سنة .

الباب الخامس : دليل الآخرة :

عرف المؤلف الاخرة بأنها عالم آخر غير عالمنا الحاضر هو عالم الخلود بينما عالمنا هذا هو مكان للاختبار والابتلاء وجد فيه الانسان لاجل معلوم ، وان الله سوف ينهي هذا العالم عندما يحين اجله وان الناس سيبعثون مرة اخرى وسوف تعرض اعمالهم خيراً او شراً على محكمة الله الذي يجزي كل انسان بما عمل في الحياة الدنيا . وفي ذلك بدأ المؤلف باستعراض :

أ ــ امكان حدوث الآخرة وقال ان فكرة الاخرة تقتضي اول ما تقتضي الا يكون الانسان والكون في شكلهما الحالي ابديين وقد اوضح في أبواب الكتاب السابقة ان ابدية الكون والانسان مستحيلة فالانسان يموت والكون سينتهي في وقت ما طبقاً لقانون الطاقة المتاحة ، وكما اخفقت كل المحاولات لدرء الموت عن بني الانسان فتخفق محاولاته للاحتفاظ بكونه من الفناء وليس أدل على ذلك من الكوارث الطبيعية والاخطار التي تتهدد أرضنا في كل لحظة من اللحظات كالزلازل والبراكين والعواصف والأعاصير وفي ذلك يستشهد الكاتب بقولة عالم الطبيعة الأرضية جورج جامو « ان هناك جهنم تلتهب تحت بحارنا الزرقاء ومدننا الحضارية المكتظة بالسكان ، وبكلمة أخرى نحن واقفون على ظهر لغم (ديناميت) عظيم ومن الممكن ان ينفجر في اي وقت ليدمر النظام الأرضي بأكمله » . وان الزلازل الارضية لدليل ناطق بأن خالق الارض قادر على تدميرها في اي لحظة يشاء ثم يضيف المؤلف ان مجرد تصور الانسان موضع الكوكب الذي يحيا عليه (الارض) والفضاء الكوني وما يدور حوله من مهالك ، والاشعة الكونية واحتمال التصادم بين الأجرام السماوية ، وارتطام النيازك ليؤكد فكرة الآخرة التي تقرر ان نظام الكون الموجود حالياً سوف يدمر يوماً ما ، فالقيامة حقيقة في اعماقنا مشاهدة أمام ناظرينا وهي تنتظر الارض ومن عليها في واقع الغد .

والمسألة الثانية التي تعرض لها هي فكرة الحياة بعد الموت وفي ذلك يستند المؤلف على ان بعثرة الذرات المادية في الجسم الانساني لا تقضي على الحياة ،

فان الحياة مستقلة بذاتها باقية بعد بعثرة الذرات المادية وتغيرها : فمن المعروف ان بجسم الانسان اكثر من ألف مليون مليون خلية يتبدل منها في كل ثانية ١٢٥ مليون خلية في المتوسط ولو حسبنا معدل التجدد في هذه العملية فسنجد ان الانسان يغير خلايا جسده بالكامل مرة كل عشر سنين تقريباً بمعنى ان فناء الجسد المادي يستمر ولكن الانسان في الداخل يبقى كما كان : شخصيته ، علمه ، عاداته ، حافظته ، امانيه وأفكاره تبقى كلها كما كانت ، انه يشعر في جميع مراحل حياته انه هو هو الانسان السابق الذي وجد منذ عشرات السنين ولا يحس بان شيئاً من اعضائه قد تغير ، ولو كان الانسان يفنى بفناء جسده لكان لزاماً ان يتأثر بفناء الخلايا وتبدلها بالكامل وهذا في حد ذاته يؤكد ان حياة الانسان شيء آخر غير جسده وهي باقية رغم تغير الجسد وتحلله . وعلى ذلك فإن الشخصية تعرف بأنها عدم التغير في عالم التغيرات .

ب — **ضرورة الآخرة** : وبعد هذه المقدمة عرج المؤلف على ضرورة الآخرة فقال ان الحياة الاخرة ذات هدف عظيم هو المجازاة على اعمال الدنيا خيراً كانت ام شراً ويتضح ذلك حين تعلم ان اعمال كل انسان تسجل وتحفظ بصفة دائمة وبغير توقف ، وان للانسان ابعاداً ثلاثة يعرف من خلالها هي نيته وقوله وعمله ... وهذه الابعاد الثلاثة تسجل بأكملها في الفضاء الكوني فكل خاطرة تخطر على بال ، وكل حرف يتحرك به اللسان وكل عمل يصدر عن عضو من الأعضاء يسجل في الأثير (اي الفضاء) ، ويمكن عرضه في اي وقت من الأوقات بكل تفاصيله ليعرف الانسان كل ما قدمت يداه في هذه الدنيا .

وكما تسجل اعمال الانسان في الاثير فهي أيضاً تنقش في صفحة اللاشعور فلا تزول إلى الأبد ولا يؤثر فيها تغير الزمن ، ويحدث هذا على الرغم من الارادة الانسانية ، وهذا يؤكد بكل صراحة امكان وجود سجل كامل لاعمال الانسان في حيازته عندما يبدأ حياته الآخرة ، فوجوده نفسه سوف يشهد على أقواله وأعماله ونياته . هذا بالاضافة إلى ان اجهزة الكون تقوم بتسجيل كامل

لأقوال الانسان واعماله وتفكيره بدقة فائقة وإلى الابد فكأننا نعيش أمام الات تصوير وتسجيل دقيقة تعمل بلا انقطاع ولا تفرق بين ليل او نهار وجميع اعمالنا واقوالنا وافكارنا تسجل بدقة تامة وانها سوف تعرض امام المحكمة الالهية .... والتاريخ يدلنا على وجود الحاجة إلى الاخرة كغريزة انسانية منذ اقدم العصور .... فان تطلع الانسان نفسه إلى عالم اخر لدليل في ذاته على أن شيئاً مثل ذلك موجود في الحقيقة التي اعدت هذا النظام العظيم لتحضير الشهادات التي لا يمكن تزويرها .

جـ ـ **الحاجة الى الآخرة** : ثم عرج المؤلف إلى الحديث عن الحاجة إلى الآخرة ، عن **ضرورة نفسية وضرورة أخلاقية** حيث لم يخلق هذا العالم ليكون مسرحاً للمآسي والهمجية والقرصنة ثم لا يلقى الظالم والمظلوم جزاءهما وفاقاً ، **ضرورة السلوك** ، اذ ان حاجتنا الملحة إلى الاخرة لتنظيم الحياة واقامتها على أسس عادلة حقيقية هي في حد ذاتها تأكيد بأن الاخرة من كبريات حقائق الكون ، ثم **الضرورة الكونية** لتفسير حكمة الخلق نفسها **وضرورة عمران الأرض** ثم **الشهادة التجريبية** أو كما يقول المؤلف ان أول دليل على الحياة الثانية هو حياتنا الأولى في حد ذاتها فامكان حدوث الحياة الاخرى اقوى نظرياً من حدوث الحياة الاولى ، ثم **البحث النفسي** وأساسه اللاشعور الذي لا يدرك العلم له وجوداً محسوساً فلو كان منقوشاً على الخلايا كالصوت مسجلاً على الاسطوانات فان تلك الخلايا التي سجلت ذلك الحادث قبل سنين قد تحطمت وتبدلت ولم تصبح لها علاقة بالجسد الموجود الان وهذا في حد ذاته شهادة تجريبية تثبت ان هناك عالماً آخر خارج اجسامنا المادية مستقلاً بذاته ، ولا يفنى بفناء الجسد جزئياً او كلياً ، وكذلك **البحوث الروحية** والتي تؤكد ان الشخصية الانسانية تواصل بقاءها بعد فناء الجسد المادي في صورة لا نعلمها مما يؤكد ان الحياة بعد الموت واقع حقيقي وفي ذلك يقول الدكتور دوكاس « ويتضح من هذا ان عقيدة بقاء الحياة بعد الموت ـ التي يؤمن بها الكثيرون منا كعقيدة

دينية — ليس من الممكن ان تكون واقعاً فحسب ، وانما لعلها هي الوحيدة من عقائد الدين الكثيرة التي يمكن اثباتها بالدليل التجريبي ... »

الباب السادس : اثبات الرسالة :

ذكر المؤلف ان من العقائد الهامة في الدين ، بعد الايمان بالله ، الايمان بالرسالة (او الوحي والالهام) ومعناها ان الله تعالى ينزل كلامه على انسان يختاره من بين الناس ليخبرهم بما يرضيه سبحانه وتعالى وللتدليل على ذلك ذكر ان كثيراً من الوقائع التي تجري من حولنا نعجز عن ادراكها بواسطة حواسنا بينما يستطيع العلم ان ييسر لنا ادراكها بفضل الاختراعات الحديثة التي تمكننا ان نسجل صدام الاشعة الكونية في الفضاء مثلا . وكان اختراع هذه الأجهزة الدقيقة استنباطاً مما تتمتع به بعض المخلوقات الحيوانية من أجهزة غاية في الدقة فهناك كثير من الحيوانات تستطيع ان تسمع موجات صوتية لا تدركها حاسة السمع في الانسان وهو ما يسمى بقوة الاشراق . وهنا يستدرك الكاتب فيقول « واذا كان الأمر كذلك فما وجه الغرابة في « قول انسان انه يسمع صوتاً من لدن ربه لا يدركه عامة الناس » ويضيف « ان الله تعالى — لحكمة يعلمها — يرسل رسائله بوسائل خافتة خفية إلى الانسان المختار للرسالة بعد ان يودع فيه صلاحية التقاطها وفهمها » ويستخلص المؤلف انه لما كان الانسان يستطيع تحويل الافكار بأكملها إلى انسان آخر على بعد غير عادي منه وبدون استعمال اي واسطة مادية ظاهرية ، فلماذا تستحيل هذه العملية بين الاله وعباده ... !!! ان الاشراق امر معروف لدى الناس وهو يدلنا على فهم النظام الاشراقي العظيم بين الاله والعباد ، والذي يكون في اكمل صورة حين يبلغ درجة الوحي الذي يمكن وصفه بأنه اشراق كوني من نوع الاشراقات التي نعهدها في حياتنا على مستويات محدودة .

ثم انتقل المؤلف إلى الحديث عن ضرورة الرسالة فقال ان اكبر دليل على ذلك هو ان الامر الذي يخبر عنه الرسول من اهم ما يتعلق بحياة الانسان ومصيره

وهي من الحقائق التي لم يستطع الانسان ان يهتدي اليها بجهوده الشخصية وفي هذا اكبر دليل على ان الانسان في حاجة إلى هدى الله .

وانتقل بعد ذلك إلى الحديث عن مقياس الرسالة فقال ان من أعظم الادلة على صحة دعوى نبوة سيدنا محمد ﷺ أنه رجل مثالي بصورة غير عادية وهذا طبيعي لأن الذي يصطفى ليكون كليم الله وليكشف للانسان دوره في الحياة لا بد ان يكون أسمى شخصية في النوع الانساني كما لا بد ان يكون حاملاً مثل الحياة العليا . فاذا كانت حياته الذاتية متصفة بكل ذلك فهي أكبر دليل على صحة ما يقول ثم ان كلامه ورسالته صلوات الله وسلامه عليه مملوءتين بجوانب يستحيل حصولها للانسان العادي ، ولا يمكن لبشر محاكاتهما وفي ذلك يقول الدكتور لتز « انني لأجرؤ ، بكل أدب ، أن أقول : ان الله الذي هو مصدر ينابيع الخير والبركات كلها ، لو كان يوحي إلى عباده فدين محمد هو دين الوحي ، ولو كانت آيات الايثار ، والامانة والاعتقاد الراسخ القوي ، ووسائل التمييز بين الخير والشر ودفع الباطل ، هي الشاهدة على الالهام ، فرسالة محمد هي هذا الالهام » .

الباب السابع : القرآن صوت الله :

يقول المؤلف ان الكتاب الذي جاء به صاحب الرسالة مثبتاً أنه منزل من عند الله يفيض بما يدل صراحة على انه ليس بكلام انسان وانه حقاً وحي من الله واستدل على ذلك باعجاز القرآن من النواحي اللغوية والتاريخية والعلمية فمما لا شك فيه ان العرب – وهم الذين لم يعرف لهم مثل في التاريخ ، في البلاغة والبيان قد ركعوا أمام القرآن معترفين بعجزهم عن الاتيان بمثله فلزمتهم بذلك الحجة ومن الناحية التاريخية لا نجد غير القرآن الذي تحققت نبوءاته حرفاً حرفاً وهذا الواقع وحده يكفي لاثبات ان هذا الكلام صادر عن عقل فوق الطبيعة يمسك بزمام الأحوال والحوادث وهو على معرفة بكل ما سيحدث منذ الازل وإلى الأبد وفي ذلك يستشهد المؤلف بالايات الكريمة « كتب الله لا غلبن انا

ورسلي » . « يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ، والله متم نوره ولو كره الكافرون » . « هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » . وهي نبوءات بانتصار المسلمين جاءت في وقت كانوا فيه في أسوأ أحوالهم مكشوفين في عراء المدينة المنورة ، يترقبون الاعداء من كل جانب . وكذلك الاية الكريمة « الم . غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين » .

ومن مزايا القرآن الكريم التي تشهد بأنه وحي من الله العظيم هي أنه على الرغم من نزوله قبل قرون كثيرة من عصر العلوم الحديثة فان جميع الاشارات العلمية التي وردت به صحيحة غاية الصحة ، دقيقة غاية الدقة يبدو اعجازها بازدياد الكشوف العلمية ولم يستطع احد على مر التاريخ ولن يستطيع اثبات اية أخطاء علمية فيه علماً بان أعمال العلماء المتخصصين والبارزين في تخصصاتهم لا يكاد ينقضي عليها بضع سنين حتى تتكشف عيوبها ويتضح قصورها وتبين جوانب النقص بها .

في ذلك يقول المؤلف ان من آيات القرآن الكريم ما عرف عنه الانسان – حتى ذلك العصر – أموراً جانبية وسطحية ومنها ما لم يعرف عنه شيئاً ، وعلى ذلك فان مطابقة كلمات القرآن والفاظه لكثير من الكشوف العلمية الحديثة مفاده ان العلم الحديث قد استطاع الكشف عن اسرار الواقعة موضوع البحث ، فتوفرت لدينا أفكار نافعة لتفسير الاشارات القرآنية في ذلك الموضوع ولو ان دراسة المستقبل في موضوع ما تبطل واقعة من وقائع العلم الحديث كليا أو جزئياً فليس هذا بضائر صدق القرآن بل معناه ان المفسر قد أخطأ في محاولته لتفسير اشارة مجملة في القرآن . ويقول المؤلف انه لعلى يقين راسخ بأن الكشوف المقبلة ستكون اكثر ايضاحاً لاشارات القرآن واكثر بياناً لمعانيه الكاملة .

واستشهد في ذلك بعدد من الآيات القرآنية واستنتاجاتها العلمية في كثير من المجالات واتفاق ذلك مع أحدث الكشوف العلمية وأدقها .

ومن الأخطاء التي وردت في هذا الباب :

١ – ص ٢١١ ، سطر ١٤ ، ١٥ « ويبقى الماء عذبا تحت الماء الأجاج » والحقيقة أن الماء العذب أقل كثافة من الماء المالح ولذلك يطفو على سطحه لا يوجد تحته .

٢ – ص ٢١١ ، سطر ٢١ « قانون المط السطحي » وصحته التوتر السطحي .

٣ – ص ٢١٥ الفقرة الأولى تمثل احدى النظريات الواردة في هذا المعنى وهي كثيرة ومنها ما هو أحدث من تلك النظرية التي أوجزت وربما كان من الأنسب سرد النظريات كلها أو على الأقل أحدثها . وقد ورد في هذه الفقرة ما يلي « وقد حدث انفجار شديد في هذه المادة قبل ٥,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ سنة على الأقل « بينما يثبت العلم الحديث أن العناصر في مجرتنا قد تكونت في الفترة من ٧٠٠٠ الى ٦٥٠٠ مليون سنة مضت وأن الشمس قد تكشفت على هيئتها الحالية منذ ستة آلاف مليون سنة وان الكواكب الابتدائية قد تحولت الى كواكب عادية (ومنها أرضنا) منذ حوالي ٥٠٠٠ مليون سنة مضت . وفي الفقرة الثانية يذكر المؤلف « ويعتقد العلماء أن دائرة المادة كانت الف مليون سنة ضوئية في أول الأمر وقد أصبحت هذه الدائرة الآن كما يقول البروفسور إدينجتون عشرة أمثالها وهذه العملية من التوسع والامتداد مستمرة دونما توقف وفي الحقيقة اذا رجعنا بعملية الاتساع هذه مع الزمن الى الوراء بعملية معاكسة لسرعة انتشار المجرات وتشتتها في الفضاء يثبت انها كانت كلها في الماضي البعيد متقاربة من بعضها وان المسافات بينها تقل كلما تقادم بنا الزمن حتى نصل الى الجرم الأول الذي احتوى على كتلة وطاقة الكون الذي نراه الآن لاجتمعت في حجم لا يتجاوز أكثر من ثلاثين مرة حجم الشمس وبكثافة تقارب ٢٥٠ مليون طن للسنتمتر المكعب .

٤ – ص ٢١٨ ورد عنوان علم طبقات الأرض وصحته علوم الأرض .

٥ — ص ٢٢٠ سطر ١٩ « وكأن نجد فيها دواب وأسماكا ونباتات » والصحيح بقايا كائنات حيوانية ونباتية .

٦ — ص ٢٢٢ الأرقام الواردة على الخرائط غير دقيقة .

الباب الثامن : الدين ومشكلة الحضارة :

وفيه يثبت المؤلف ان البشر لا يستطيعون وضع دستور لهم بدون هدى من الله ويستشهد في ذلك بقول الدكتور فريدمان « .... لا بد من هداية الدين لنقيم المعيار الحقيقي للعدل . والاساس الذي يحمله الدين لاعطاء العدل صورة عملية ينفرد هو به في حقيقته وبساطته » . ثم ينتقل المؤلف بعد ذلك إلى مصدر التشريع فيقول ان مصدر التشريع هو الله وحده خالق الكون فالذي أحكم قوانين الطبيعة هو وحده الذي يليق به ان يضع دستور حضارة الانسان ومعيشته، وليس هناك من أحد غيره سبحانه يمكن تخويله هذا الحق فلا يمكن قبول انسان حاكماً ومشرعاً للانسان حيث انه لا يتمتع بهذا الحق الا خالق الانسان وحاكمه الطبيعي الله . وينتقل بعد ذلك إلى العناصر الأساسية للتشريع فيقول ان الحل الوحيد لمشكلتنا هو الشرع الالهي الذي يمنحنا جميع العناصر الأساسية الضرورية ويترك الباقي مفتوحاً للاجتهاد بحسب الزمان والمكان ، والتشريع الالهي لا يستطيع الانسان أن يأتي ببديل عنه .

وبعد ذلك ينتقل إلى تحديد مفهوم الجريمة والقانون والاخلاق ويتحدث عن القانون والفرد، والقانون والعدل ثم يعرج على موضوع المرأة والمجتمع ثم يتحدث عن قضية التمدن والمعيشة ويوجز ذلك كله بقوله ان التجارب القاسية التي خاضتها البشرية تؤكد لنا ان الله الذي يعرف دقائق الطبيعة البشرية ويفهم عمق مسائلها ومشكلاتها يجب ان يكون هو ولا سواه واضع قوانينها فهو منبع القانون الحقيقي ويؤكد ذلك أن في الدين جواباً محدداً لكل الاسئلة التي تؤرقنا في حياتنا الدنيوية وفي ما بعد هذه الحياة الدنيوية . انه يوجهنا إلى المشرع الحقيقي ويضع لنا الاساس السليم للقانون الالهي وهو يمنحنا اساساً صائباً لكل

مسألة في الحياة البشرية وهو الصورة الوحيدة للمساواة الكاملة بين الحاكم والرعية ويهيء الاساس النفسي الذي يصبح القانون بدونه بلا فائدة كما يخلق لنا ذلك المناخ المناسب الذي لا بد منه لتطور اي مجتمع تطوراً حيوياً وفعالاً .

الباب التاسع : الحياة التي ننشدها :

يصور المؤلف في خاتمة مطافه صورة الحياة التي ننشدها فيقول ان الحالة التي تنعدم فيها الطمأنينة والاستقرار لدى القلوب المحرومة من رحمة الله ليست مسألة أيام هذه الدنيا المؤقتة وسنيها ، وانما هي اهم من ذلك بكثير ، أنها مسألة ازلية وأبدية ، تتمثل فيها اثار الحياة المعتمة الحالكة التي يقف عليها هؤلاء ، انها البادرة الاولى لحياة الحنق الابدية التي سوف يواجهونها بعد موتهم ... انها أجراس التنبيه الاولى في حياتهم تنذرهم بالاحوال الرهيبة والظروف المردعة التي تنتظرهم ... !!

واختتم كتابه بجزء من حديث كريسي موريسون الذي يقول فيه « ان الاحتشام ، والاحترام والسخاء وعظم الاخلاق ، والقيم والمشاعر السامية ، وكل ما يمكن اعتباره نفحات الهية — لا يمكن الحصول عليها عن طريق الالحاد ، فالالحاد نوع من الانانية حيث يجلس الانسان على كرسي الله. لسوف تقضي هذه الحضارة بدون العقيدة والدين ، سوف يتحول النظام إلى فوضى .... سوف ينعدم التوازن وضبط النفس والتمسك بالقيم .... ، سوف يتفشى الشر في كل مكان .... ، انها لحاجة ملحة أن نقوي من صلتنا وعلاقتنا بالله » .

تعليـــق :

على الرغم من أن الكتاب لم يخل من بعض الأخطاء العلمية والتي سبق أن أشرنا اليها بايجاز خلال العرض السابق . الا أنه يعتبر فتحا جديدا في أسلوب مخاطبة العقل البشري في عصر طغت فيه المادة وبعد فيه الناس عن طريق الله وفتنوا بما حققه العلم والتقنية الحديثة فتنة كبيرة سواء كان ذلك في الغرب أو

الشرق . ففي الغرب كان فشل الكنيسة في اقناع الناس سببا في الموقف العدائي الذي اتخذه عدد كبير من الكتاب والمفكرين من معاني الايمان .... وفي الشرق كان تخلف المسلمين علميا وتقنيا سببا في فتنة بعضهم بالانجازات العلمية الحديثة كما كانت سببا رئيسيا في ندرة العالم المسلم الذي يكتب في مجال تخصصه انطلاقا من قاعدة الايمان ولذلك عاش المسلمون في هذا العصر على فتات موائد الفكر الغربي فجاءت كتب العلوم والفنون في أغلب الأحوال ترجمة مشوهة للفكر الغربي الذي ينطلق في أساسه من قاعدة مادية بحتة ، وضاع وسط هذا البحر الزاخر من البلبلة الفكرية والتشويه والتحريف المقصود وغير المقصود كثير من المفاهيم الأساسية التي حققها العلم الحديث في اثبات عظمة الكون وعظمة خالقه واثبات ان لهذا الكون بداية وانه لا بد ان ستكون له في يوم من الأيام نهاية وان هذا الكون كله على دقته وعظمته واتساعه محفوف بالمخاطر وانه لولا رحمة هذا الخالق العظيم الذي خلق هذا الكون على أدق صورة وأروعها ، ولولا رعايته لنا ولكل ما في هذا الكون من وجود لهلكنا وهلك كل ما حوالينا . هذه حقائق أكدها العلم الحديث بما لا يرقى اليه شك كما أكدتها الفطرة السوية والمنطق السليم ، ولم يبق الا أن يحمل مشاعلها أناس يؤمنون بها ويفهمونها حق فهمها ويحملونها الى الناس بلغة العصر ... وهنا يأتي كتاب « الاسلام يتحدى » خطوة على الطريق أرجو أن تتبعها خطوات فنرى كتب العلوم والفنون والآداب التي يدرسها طلابنا في المدارس والمعاهد والجامعات والتي يتداولها عامة الناس وخاصتهم على حد سواء تبنى على هذا الفهم الايماني العميق وتنطلق من منطلقه .... وحينئذ سوف يتربى الشاب المسلم والفتاة المسلمة على مفاهيم حقة ويتجنب الجميع ما يعانونه الآن من تشتت نفسي بين ما أشبعت به نفوسهم في بيوتهم ومجتمعاتهم المسلمة وبين ما يلقنون من فكر غربي مستورد أساسه الالحاد ومنطلقه أبعد ما يكون عن الايمان .

ويوم أن نتمكن من ايجاد الكيميائي المسلم والفيزيائي المسلم والجيولوجي المسلم والمهندس المسلم والطبيب المسلم ... الخ .. ويوم أن يفهم كل من هؤلاء

تخصصه من منطلق ايماني ويكتب فيه من هذا المنطلق بلغة العصر ومنطقه سيفتح الله بهم أرجاء العالم شرقه وغربه فان الأصل في النفس البشرية الخير وان هذه النفوس الظمأى في مختلف أنحاء العالم لتتطلع الى رواد مسلمين جدد ينبغون في علوم العصر ويحملون بيد أفكاره وباليد الأخرى يحملون مشعل الايمان ....

وجزى الله الكاتب المؤمن والمترجم الصادق والمراجع الأمين خيرا على هذا الجهد الطيب الذي أرجو أن يكون بداية تتبعه جهود أشمل وأكمل وأتم والله من وراء القصد وهوالموفق وبه نستعين .

خدمات مكتبية

٢ـ دليل الباحث في الاقتصاد الإسلامي

د . يوسف القرضاوي *

تنبيه : ما لم ينص على مكان نشره فهو في القاهرة

من كتب التراث :

١ — الاكتساب في الرزق المستطاب ، للامام محمد بن الحسن صاحب ابي حنيفة ..

٢ — البركة في فضل السعي والحركة ، أبي عبدالله الوصابي الحبشي ؛ المكتبة التجارية

٣ — الاستخراج في أحكام الخراج ، ابن رجب الحنبلي

٤ — الحسبة ؛ شيخ الاسلام ابن تيمية

٥ — السياسة الشرعية . « « « «

٦ — المظالم المشتركة . « « « « ، المكتب الاسلامي . بيروت

٧ — الطرق الحكمية . ابن القيم

٨ — الأحكام السلطانية ، أبو الحسن الماوردي الشافعي ، مطبعة الوطن

٩ — « « ، أبو يعلى الفراء الحنبلي ، مطبعة السنة المحمدية

(*) الاستاذ بكلية التربية . الدوحة . قطر وصاحب عدة مؤلفات مشهورة .

١٠ ــ احياء علوم الدين ، الامام ابو حامد الغزالي ، عيسى الحلبي

(كتاب « آداب الكسب والمعيشة » وكتاب « الحلال والحرام » من الربع الثاني . وكتاب « الشكر والصبر والفقر والزهد من الربع الرابع ... وغيرها) .

من كتب المعاصرين :

١١ ــ الدولة والحسبة عند ابن تيمية ، محمد المبارك ، دار الفكر ــ بيروت

١٢ ــ نظام الاقتصاد في الاسلام ، » » » » »

١٣ ــ الاقتصاد الاسلامي : مدخل ومنهاج ، عيسى عبده ، نهضة مصر

١٤ ــ نظرية الاسلام الاقتصادية (الفلسفة والوسائل المعاصرة) ، عبد الحميد أحمد أبو سليمان مؤسسة الخانجي بمصر

١٥ ــ الاسلام لا شيوعية ولا رأسمالية : العمل والعمال ، البهي الخولي

١٦ ــ الاشتراكية في المجتمع الاسلامي (بين النظرية والتطبيق) ، » » مكتبة وهبة

١٧ ــ الثروة في ظل الاسلام ط. ثانية ، الناشرون العرب ، القاهرة وبيروت ،

١٨ ــ اشتراكية الاسلام ط. ثانية ، د . مصطفى السباعي ، دار المطبوعات العربية بدمشق

١٩ ــ الاسلام والمناهج الاشتراكية ، محمد الغزالي ، دار الكتب الحديثة

٢٠ ــ النظام الاقتصادي في الاسلام ، تقي الدين النبهاني ، من منشورات حزب التحرير القدس

٢١ ــ المجتمع المتكافل في الاسلام ، عبد العزيز الخياط ، مؤسسة الرسالة ــ بيروت

٢٢ ــ الاسلام والشيوعية د . عبد المنعم النمر

٢٣ ــ الاسلام والواقع الايديولوجي المعاصر ، د . محمد البهي ، دار الفكر ــ بيروت

٢٤ ــ تهافت الفكر المادي التاريخي » » » » » »

٢٥ ــ الفكر الاسلامي المعاصر : مشكلات الأسرة والتكافل » » » » » »

٢٦ ــ الدين في موقف الدفاع ، فتحي عثمان ، مكتبة وهبة

٢٧ ــ المدخل الى الاقتصاد الاسلامي ج ١ ، د . محمد شوقي الفنجري ، دار النهضة العربية

٢٨ ــ الموارد المالية في الاسلام ، د . ابراهيم فؤاد أحمد علي ، معهد الدراسات الاسلامية

٢٩ ـ المساواة في الاسلام . د. علي عبد الواحد وافي . سلسلة « اقرأ »
٣٠ ـ الشيوعيــة والاسلام (بحث موضوعي) ، لبيب السعيد ، مطبعة المعرفة
٣١ ـ الاسلام والاشتراكية . ميرزا محمد حسين (ترجمة د . عبد الرحمن أيوب) ،
المؤسسة المصرية العامة للترجمة والنشر
٣٢ ـ الاسلام وتوازن المجتمع ، « « ترجمة فتحي عثمان ، سلسلة الثقافة الاسلامية
٣٣ ـ حكم الاسلام في الاشتراكية . عبد العزيز البدري ، المكتبة العلمية بالمدينة المنورة
٣٤ ـ موقف الاسلام من الاشتراكية . مناع القطان ، الرياض
٣٥ ـ الاشتراكية العربية في ضوء الاسلام ، عبد الرحيم فودة ، دار الطباعة المحمدية
٣٦ ـ المجتمع الاشتراكي في ظل الاسلام ، « « «
٣٧ ـ الاقتصاد الاسلامـــي مذهبا ونظاما (جزءان) ، د. ابراهيم الطحاوي ،
مجمع البحوث الاسلامية
٣٨ ـ من قضايا العمل والعمال في الاسلام ، أبو الوفا المراغي ، « « «
٣٩ ـ أحكام العمل وحقوق العمال في الاسلام ، محمد فهر شقفة ، دار الارشاد
٤٠ ـ الاسلام وضع الاسس الحديثة للضريبة ، د . أحمد ثابت عويضة ،
محاضرات الموسم الثقافي الأول لادارة الثقافة بالأزهر
٤١ ـ العمل والضمان الاجتماعي في الاسلام ، د . صادق مهدي السعيد ،
مطبعة المعارف ـ بغداد
٤٢ ـ التكافل الاجتماعي في الاسلام محمد أبو زهرة ، الدار القومية للطباعة والنشر
٤٣ ـ النظم الاسلاميــة : نشأتها وتطورها ، د. صبحي الصالح ، بيروت
٤٤ ـ عقد التأمين (السوكرة) وموقف الشريعة منه ، مصطفى الزرقا ، جامعة دمشق
٤٥ ـ التأمين وموقف الشريعة منه محمد السيد الدسوقي
٤٦ ـ أحكام عقود التأمين ومكانها من شريعة الدين ، عبدالله بن زيد المحمود ،
رئاسة المحاكم الشرعية في قطر
٤٧ ـ المعاملات الحديثة وأحكامها ، عبد الرحمن عيسى ، مطبعة مخيمر
٤٨ ـ فلسفة الزكاة عند المسلمين ، عبد العزيز سيد الأهل ، المكتب التجاري ـ بيروت
٤٩ ـ التكافل الاجتماعي في الاسلام ، عبدالله علوان ، حلب
٥٠ ـ التبيان في زكاة الأثمان ط ٢ ، محمد حسنين مخلوف ، دار الكتاب العربي

٥١ ـ النظام المالي الاسلامي : دستوره وقوانينه ، د . محمد كمال الجرف ؛ مطبعة النهضة الجديدة
٥٢ ـ المصارف والأعمال المصرفية في الشريعة الاسلامية والقانون ، د . غريب الجمال ؛ دار الاتحاد العربي للطباعة
٥٣ ـ مصادر الحق في الفقه الاسلامي جـ ٣ ، د . عبد الرزاق السنهوري ، معهد الدراسات العربيـة العالية
٥٤ ـ الملكية ونظرية العقد ، محمد أبو زهرة
٥٥ ـ الفقه الاسـلامي والبيوع المعاصرة ، د. محمد يوسف موسى ، دار الكتاب العربي
٥٦ ـ « : مدخـل لدراسة المعاملات فيه ، « « « ، دار الكتاب العربي
٥٧ ـ الأموال والعقود في الشريعة الاسلامية ، « « « « « «
٥٨ ـ المعاملات الشرعية المالية ؛ أحمد ابراهيم ، المطبعة السلفية
٥٩ ـ أحكام المعاملات الشرعية : علي الخفيف
٦٠ ـ ملكية الأراضي في الاسلام : تحديد الملكية والتأميم ، د . محمد عبد الجواد محمد ، المطبعة العالمية

هذا الى بحوث عديدة ضمتها أعمال مؤتمرات وحلقات وندوات مختلفة ، نذكر منها :

كتاب المؤتمر الأول لمجمع البحوث الاسلامية بالأزهر (١٩٦٤ م) وفيه من الموضوعات المتصلة بالاقتصاد الاسلامي :

٦١ ـ الملكية الفردية وتحديدها في الاسلام ، للشيخ علي الخفيف
٦٢ ـ الملكية الخاصة وحدودها في الاسلام ، د . محمد عبدالله العربي
٦٣ ـ ملكية الأفراد للأرض ومنافعها ، للشيخ محمد علي السايس
٦٤ ـ الملكية الفرية في الاسلام للشيخ عبدالله كنون
٦٥ ـ الموارد المالية في الاسلام ، عبد الرحمن حسن
٦٦ ـ حقوق الفقراء في أموال الأغنياء ، د . ابراهيم اللبان
٦٧ ـ نظام الحسبة في الاسلام ، د . اسحاق الحسيني

وفي كتاب المؤتمر الثاني للمجمع بحوث ثلاثة عن :

٦٨ ـ استثمار الأمـــوال في الاســـلام ، د . محمد عبدالله العربي
٦٩ ـ المعاملات المصرفية المعاصرة ورأي الاسلام فيها « « «
٧٠ ـ الزكاة ، للشيخ محمد أبو زهرة

وفي كتاب المؤتمر الثالث (١٩٦٦) بحثان عن :

٧١ ـ الاقتصاد الاسلامي والاقتصاد المعاصر ، د ـ محمد عبدالله العربي

٧٢ ـ المجتمع الانساني في ظل الاسلام . للشيخ محمد أبو زهرة

ومن ذلك ما نشرته جامعة الدول العربية من أعمال حلقة الدراسات الاجتماعية التي عقدت بدمشق ديسمبر ١٩٥٢ . وكان موضوعها هو « التكافل الاجتماعي » . وفيها عدة بحوث أهمها :

٧٣ ـ الزكاة ، ونظام الوقف ونفقات الأقارب ـ للأساتذة : عبد الرحمن حسن
عبد الوهاب خلاف
محمد أبو زهرة

ومن ذلك أعمال أسبوع الفقه الاسلامي المنعقد بدمشق أيضا في ابريل ١٩٦١ . وفيه :

٧٤ ـ مجموعة بحوث عن التأمين ، وعن الحسبة (طبعها المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية في القاهرة سنة ١٩٦٣ م)

اعمال أسبوع الفقه الاسلامي المنعقد بالقاهرة في مايو ١٩٦٧ وتدور بحوثه حول موضوع :

٧٥ ـ التكافل الاجتماعي في الاسلام (طبعها المجلس الأعلى أيضا ١٩٦٧)

اعمال ندوة التشريع الإسلامي المنعقدة في ليبيا في مايو سنة ١٩٧٢ . وفيها جملة بحوث منها :

٧٦ ـ التأمين للشيخ علي الخفيف

٧٧ ـ الغرر » » »

٧٨ ـ الربا » محمد أبو زهرة

مؤتمرات

ندوة الفاتيكان
حول حقوق الإنسان الثقافية

لماذا لم توقع المملكة العربية السعودية وثيقة اعلان حقوق الانسان الدولية ؟

صدر هذا التساؤل من عدة جهات أوربية ، ردت عليها وزارة الخارجية السعودية بمذكرة أوضحت ثلاث تحفظات لها على وثيقة حقوق الانسان وان الشريعة الاسلامية باعتبارها دستور البلاد تصون هذه الحقوق نظريا وعمليا بما يتجاوز ما في المواثيق الدولية .

وكان بدء الحوار حول هذا الموضوع أثناء زيارة قام بها الى الرياض وفد أوربي يضم فريق جمعية الصداقة السعودية الفرنسية وفريقاً من المتخصصين الأوربيين في حقوق الانسان ، كان من بينهم رئيس لجنة حقوق الانسان في المجلس الأوربي وسكرتير اللجنة الأوربية لحقوق الانسان والمستشرق المعروف هنري لاوست وكان يرأس الوفد مستشار البابا لشئون حقوق الانسان ...

وعلى أثر هذه الندوة وما تلاها من زيارات واتصالات وجهت دعوة إلى علماء المملكة العربية السعودية من أربع جهات أوربية : دعوة من باريس من

جمعية الصداقة السعودية الفرنسية وبعض القانونيين ، ودعوة من الفاتيكان ، ومن جنيف دعوة من مجلس الكنائس العالمي ، ومن استراسبورج دعوة من المجلس الأوربي

وتلبية لهذه الدعوات قام وفد من علماء المملكة برئاسة وزير العدل بهذه الزيارات حيث عقدت ندوات بحثت فيها بعض الموضوعهات وفي مقدمتها موضوع حقوق الانسان في الاسلام .

* * *

وفيما يلي نص البحث الذي قدمه الوفد السعودي الى ندوة الفاتيكان :

١ — اننا ليسعدنا أن نستجيب الى دعوة الفاتيكان الكريمة لاقامة هذه الندوة العلمية في رحاب عاصمتها حول « حقوق الانسان الثقافية في الاسلام وفي الكاثوليكية » ، وذلك بناء على مساعي جمعية الصداقة الفرنسية — السعودية في باريس ، والتي نسجل لها سابق رغبتها في عقد أول ندوة عن حقوق الانسان في الاسلام ، مع فريق من كبار رجال الفكر والقانون الذين حضروا لهذا الغرض الى الرياض عاصمة المملكة العربية السعودية في ٢٢ (آذار) مارس سنة ١٩٧٢ ، ثم أكدوا في نهاية تلك الندوة على مطالبتنا بقبول الدعوة لمتابعة أمثال تلك الندوة في عدد من البلدان الأوروبية التي لا تزال تجهل ما قد لمسه ذلك الفريق الكريم من حقائق عن الاسلام وعن مزاياه في حقوق الانسان مما يستوجب اطلاع العالم عليه ، تمهيدا لتعارف الشعوب فيما بينها ، ولتعاون الأيدي البناءة ، ولتلاقي الأفكار النيرة على النهوض بالانسان ، وعلى الدفاع عن كرامته ، وعن حقوقه الانسانية .

٢ — هذا وأنه ليسرنا أن تكون أولى هذه الندوات فيما يتعلق بحقوق الانسان بالنسبة لأوروبا في مدينة الفاتيكان ذاتها ، وبناء على رغبة كبار المسؤولين فيها ، وأن نرى منهم اليوم هذا الترحيب الكبير بوفد علماء المملكة العربية السعودية . وأن نرد على ترحيبهم بالمثل وبالشكر ، آملين أن تكون هذه

الندوة حدثا تاريخيا في عالمنا الحديث ، الغارق في أوحال المادية ، والذي أصبح في حاجة ماسة الى من يسمعه صوت السماء . وينقذه من الضياع ، ويشق له الطريق الى السلام الآمن من غير خوف ، ضمن أسرة انسانية واحدة ، جعلهم الله سبحانه وتعالى شعوبا وقبائل ليتعارفوا ، وليتعاونوا على البر والتقوى لا على الاثم والعدوان . كما دعا اليه صريح القرآن حين نادى بالبشر قائلا : « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان أكرمكم عند الله أتقاكم » . وقال « وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الاثم والعدوان » لأن التعاون على الاثم والعدوان يمحو كل كرامة الانسان .

*** موقفان تاريخيان :**

٣ — وقبل أن ندخل في صلب موضوعنا عن « مكان حقوق الانسان في الاسلام » نرى لزاما علينا — ونحن في ندوة تضم كبار قادة المسيحية الكاثوليكية في مدينة الفاتيكان — أن نستعرض بكلمات قليلة موقفين تاريخيين من مواقف بر القرآن وبر الاسلام من نفس العالم المسيحي في ظل الروم ، على الرغم من الخلاف الأساسي في أصول العقيدة فيما بين الاسلام والنصرانية .

٤ — أما الموقف الأول ، فذلك منذ ظهور الاسلام في مطلع القرن السابع ، يوم كانت بيزانس الكاثوليكية في أوج معركتها مع الفرس المجوس ، وكان الاسلام في أوج معركته مع العرب الوثنيين ففي تلك الفترة انتصر المجوس على الكاثوليكية في سورية ففرح الوثنيون العرب تعبيرا عن شعورهم المعادي للاسلام الذي كان يشيد بذكر السيد المسيح وأمه الطاهرة العذراء بكل اجلال واحترام . ولقد أحزنت أفراح الوثنيين العرب قلوب المسلمين . ولذلك جاءت آيات القرآن لتخفف من أحزانهم وتبشرهم جزما بقرب عودة المعركة ، ولتؤكد لهم أن الدولة الرومية الكاثوليكية سوف تنتصر قريباً على الدولة المجوسية ، وان المسلمين سوف يفرحون حينذاك وقد شجع هذا التأكيد أصحاب النبي على تحدي الوثنيين

العرب وعلى اعلان ثقتهم وايمانهم بما بشر به القرآن ، ولم تمر بضع سنين حتى نشبت المعركة من جديد وأذن الله في آن واحد بانتصار الروم الكاثوليك على المجوس . وبانتصار المسلمين العرب أيضا على الوثنيين في معركة بدر ، وقامت الأفراح لدى المسلمين كما وعدهم القرآن الكريم ونزلت الأحزان مضاعفة على الوثنيين

٥ ــ بل ان الاسلام ذهب الى أبعد من ذلك : فأمر بالبر بسائر الناس مهما اختلف المسلمون معهم في الدين والعرق والأوطان كما نص على ذلك القرآن ، ما لم يقاتلونا في الدين أو يخرجونا من ديارنا . وقد قال القرآن في ذلك « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم ، أن تبروهم وتقسطوا اليهم ، ان الله يحب المقسطين » .

وبذلك وضع القرآن أعظم قواعد التعاون الانساني ، مقرونا بعرض البر من جانب واحد هو الاسلام ، منطلقا في ذلك من حرية العقيدة وعدم جواز الاكراه فيها ، ومنفتحا بموجب عقيدة الاسلام على كل انسان ، وبخاصة المسيحيين على اختلاف مذاهبهم ، حيث جهر القرآن بقوله : « ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا انا نصارى ، ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون » .

ولكن هذا النص القرآني في التنويه بمودّة النصارى للمسلمين لم يرق لأعداء المسيحية والاسلام الذين أثارهم دفاع القرآن المجيد عن السيد المسيح وعن أمه مريم الطاهرة العذراء ، ولم تعجزهم الوسيلة للاسهام بصورة فعالة لدفع قادة بيزنس الى الحرب مع الاسلام منذ عهد النبي .

٦ ــ وأما الموقف الثاني التاريخي من مواقف بر الاسلام بالعالم المسيحي فهو الذي يعود على كنيستهم الأم في القدس حين انتصار الاسلام واندحار بيزانس .

وذلك أن الحرب التي شنها البيزانطيون على المسلمين ، وما انتهت اليه من

نصر للمسلمين ، لم ينقص شيئاً من بر الاسلام والمسلمين بالكاثوليك خاصة وبالمسيحيين عامة ، وقد ظهرت هذه الحقيقة كأروع ما تكون بالعهد الذي أعطاه الخليفة عمر بن الخطاب بعد دخوله القدس بناء على طلب بطرك الكنيسة الكاثوليكية في القدس صفرونيوس حيث : « أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم . وأن لا تسكن كنائسهم ، ولا تهدم . ولا ينقص منها ولا من حيزها ، وأن لا يسكن معهم أحد من اليهود » . وذلك في ميثـاق تاريخي مكتوب وموقع منه الى بطرك الكنيسة صفرونيوس ، وقضى بذلك على كل ما يمكن أن يكون من مخاوف لدى المسيحيين من الفاتحين المسلمين ، وظل المسلمون على الوفاء بهذا العهد حتى يومنا هذا ، مما قد انفرد به الاسلام على الدوام في تاريخ حروب الأديان المنتصرة .

٧ — وبالاختصار هذان موقفان تاريخيان عظيمان من مواقف الاسلام وسبقه في البر للعالم المسيحي بصورة عامة ، وللكنيسة الكاثوليكية بصورة خاصة . بل شاهدان على ما يتمتع به الاسلام من حسن رعاية وحماية لغيره من الأديان ، وذلك عملا بالنصوص القرآنية في حرمة حقوق الانسان . وخاصة في حرية الدين والايمان ، رأينا أن نشير اليهما في هذا الاجتماع التاريخي في مدينة الفاتيكان ، لأنهما حدثان تاريخيان يفسران من هذه الناحية أعظم حقوق الانسان وتطبيقاتها في الاسلام ..

* حقوق الانسان :

٨ — وبعد هذه المقدمات التي لا بد منها حول تاريخ فكرة الندوات عن حقوق الانسان في الاسلام ، التي بدأت في الرياض منذ سنتين لتتابع اليوم حلقاتها بدعوة من الفاتيكان ثم في غيرها من البلدان .

وبعد ما أشرنا اليه من مواقف اسلامية كريمة تاريخية تجاه العالم المسيحي الكاثوليكي في ظل بيزانس ، ثم تجاه الكنيسة الكاثوليكية بالذات في ظـــل لاسلام ، مما يتصل أيضا بحقوق الانسان في الاسلام . ننتقل الآن الى كلمة

موجزة عن مجمل حقوق الانسان ، لنركز بصورة خاصة هنا في مدينة الفاتيكان على حقوق الانسان الثقافية في شريعة القرآن .

٩ — ومن المعلوم أيها السادة أن حقوق الانسان اليوم في عرف المواثيق الدولية العالمية الخاصة بحقوق الانسان قد قسمت الى ثلاثة أقسام هي على الترتيب التالي : الحقوق الاقتصادية ، والحقوق الاجتماعية ، والحقوق الثقافية ، وانه من العسير علينا أن نتناول جميع هذه الحقوق في ندوتنا اليوم في الفاتيكان مع ضيق الوقت المخصص لها . ولما كانت هناك ندوات أخرى سوف تتبعها في الأيام القادمة ، في كل من جنيف وباريس وستراسبورغ ، فقد رأينا أن نبدأ في هذه الندوة في مدينة الفاتيكان بالحقوق الثقافية للانسان في الاسلام كأساس مقدم في رأينا على غيره من بقية حقوق الانسان ، آملين أن نجعل من مجموعة الندوات الأخرى ندوات متممة في فروع أخرى من حقوق الانسان في الاسلام ، بالاضافة الى ما تجدونه موزعا بين أيديكم عن ندوة الرياض في عام ١٩٧٢ مع فريق من كبار رجال القانون والفكر في أوروبا ، وما قد ألحق بها من مذكرة حكومة المملكة العربية السعودية حول شريعة حقوق الانسان في الاسلام ، وتطبيقاتها في المملكة ، الموجهة في حينها للهيئات الدولية حينذاك والتي اتخذت أساسا للبحث في ندوة الرياض عام ١٩٧٢ م .

• نظرة الاسلام :

١٠ — ولا بد لنا اذا أردنا فهم أبعاد الحقوق الثقافية للانسان في الاسلام من أن نلفت النظر الى أن نظرة الاسلام الى « الحقوق الثقافية للانسان » انما هي « نظرة جزئية » من أصل « نظرة كلية » هي نظرة الاسلام الى « الله ، والكون ، والانسان » .

ونحن لسنا في مقام شرح « النظرة الكلية » للاسلام ، ولكن ارتباط « النظرة الجزئية » في الاسلام بتلك « النظرة الكلية حول الله ، والكون ، والانسان » يوجب علينا الاشارة اليها بالقدر الذي لا بد منه ، وذلك من أجل تحديد

« خصائص » الحقوق الثقافية في الاسلام ، والكشف عن أبعادها في حياة الانسان . ونقطة الانطلاق منها الى الثقافة والعرفان .

* حول الله والكون والانسان :

١١ — فالانسان بموجب « النظرة الكلية » للاسلام حول « الله والانسان » مفروض عليه باسم الدين « النظر فيما في السموات والأرض وفي نفسه » وذلك لمقاصد عليا مطلوبة منه طلباً حتمياً ، ويمكن أن نجمل هذه المقاصد فيما يلي :

أولا — الايمان العلمي « بحقيقة الوجود الأولي » التي لا بد منها لخلق الكون والانسان .

ثانياً — المعرفة العلمية أيضا « بعظمة » خلق هذا الكون ، وبمنتهى الاتقان في صنعه وفي صنع هذا الانسان ، والوصول الى الاقرار بعظمة الابداع فيهما ، وبأن كل شيء في هذا الكون يسير بحسبان وميزان ونظام مما يدل دلالة جازمة على وجود خالق لهذا الكون ، قادر ، عالم ، حكيم ، مستحق للعبادة وحده .

ثالثا — المعرفة العلمية أيضا بأن الانسان انما يشغل « جزءا صغيرا » من هذا الكون العظيم في أبعاده والعجيب في نظامه ، ولكن الله « كرم الانسان » وسخر له جميع ما في السموات والأرض رغم عظمتها ، ولم يسخره لها ، وأمره بالاصلاح في هذه الأرض وعدم الافساد فيها .

رابعا — وأخيرا ، وتبعاً لذلك الايمان بالله ، ولهاتين المعرفتين بعظمة الوجود « وبكرامة الانسان » على الله الذي سخر له جميع ما في السموات والأرض ، انه مطلوب من الانسان طلبا جازما بأن يعمر هذه الأرض بجهده ، وأن يتمتع بطيباتها ، ولكن بموجب نظام يحفظ الايمان بالله ، ويضمن الكرامة والعدل والمساواة والحرية والسلام للانسان من غير تمييز بين انسان وانسان ، ويكون بكل ذلك عندئذ عاملا بشريعة الله ، وعابدا لله حتى في لذائذ الفم ومطالب الجنس ، وما دام كل ذلك لا عدوان فيه على شريعة الله ، ولهذا أنزل كتبه وبعث رسله .

١٢ — وهكذا فان « النظرة الكلية » للاسلام حول « الله والكون والأنسان » تفرض « العلم » على الانسان بكل ما يحيط به وبحياته ، بدءا من الله . وأخيراً في واجباته في هذه الأيام ، لا فرق بين واجباته نحـــو الله وبين واجباتـــه نحو الانســـان ، وبين واجباته في العمل المحتوم عليه لعمارة هذه الأرض والاصلاح فيها وعدم الافساد لها . وكل ذلك يدخل في مفهوم « العلم والدين » الذي يطلق عليه كلمة « الفقه » . أي العلم بما للانسان وما عليه ، ولذلك قال رسول الاسلام : « من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين » .

• العلم والايمان :

١٣ — وانما كان على الانسان في الاسلام أن يبدأ في العلم بما يوصله الى الايمان بالله ، لأن الاسلام يرى من الواجب البدائي على الانسان : المفطور على روح الاجتماع . أن يحاول في محاولة علمية وثيقة بحياته الاجتماعية على هذه الأرض أن يكشف أولا صلته بهذا الكون : وصلته بمبدع هذا الكون ، ذلك الذي فطر هذا الكون وسخره لمصلحة الانسانية كلها أو لأفراد منها .

ولذلك يجب على الانسان أن يعلم أن قيامه على أرض هذا الكون : مثله مثل قيام أي فرد من الانسان الحديث على أرض دولة من الدول الحضارية الحديثة من حيث أن الواجب الأول على الانسان الحضاري في تلك الدولة هو أن يعرف أولا معرفة واجبة صلته بهذه الدولة التي يعيش في حمايتها ، وأن يعرف صلته المدنية بأصحاب السلطة فيها ، وبأنه فرد من رعاياها ، وعليه نحو أصحاب السلطة فيها واجبات الاقرار بوجودها ، والاطاعة لأوامرها والكف عن نواهيها ما دام قائما على أرضها ، والا فيكون انسانا خارجا على الدولة ، ومعطلا لأنظمتها الانسانية الاجتماعية ، ومسؤولا مسؤولية جزائية فيها .

• العلم الشامل في الاسلام أساس لكرامة الانسان .

١٤ — وهكذا فان هذا المفهوم « لفريضة العلم » في الاسلام قد اعتبر « العلم » في أوسع آفاقه الروحية والمادية أساساً لكرامة الانسان ، ولذلك ، رفع القرآن من شأن العلم فقال : « هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون »

وقال أيضا « انما يخشى الله من عباده العلماء » .

وقد أوجب هذا العلم على كل انسان أن ينظر في عجائب خلق السموات والأرض وخلق الانسان واتقان الصنع في كل شيء ، وبذلك فتح أمامه آفاق العلم وميادينه من غير حد ، وألزمه بالأخذ بجميع وسائل التكنولوجيا من غير خوف ، واعتبر هذا العلم انه الطريق الى معرفة الله وعبادته وعمارة هذه الأرض بسلام . ولذلك أطلق الاسلام على مجمل دعوته القائمة على هذا الأساس أنها « دعوة الى الحياة » وآخى في كل ذلك ما بين الدين والعلم ، وما بين الدين والعقل : وما بين الدين والفكر وبالجملة فقد آخى « ما بين الدين والحياة » كما أكدت ذلك آيات عديدة في القرآن ، وخاصة ما جاء في القرآن الكريم « استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم » .

١٥ — وعلى ضوء ما شرحناه أعلاه من هذا الارتباط بين الحقوق «الثقافية» في الاسلام وبين نظرة الاسلام الى « الله ، والكون ، والانسان » ،

وكذلك على ضوء ما شرحناه أيضاً من آفاق واسعة « لمفهوم العلم » في الاسلام وشموله للايمان بالله عن طريق جميع علوم الحياة وتكنولوجياتها اللازمة للنظر في خليقة الكون والانسان ، ثم لشموله « معرفة الانسان لواجباته » نحو الله ونحو الانسان على اساس « الكرامة للجميع » أمام الله ، من غير تمييز ما بين انسان وانسان الا بالتقوى ، كما جهرت به أحكام شريعة الاسلام ،

فعلى ضوء كل ذلك نجد أن الاسلام يؤكد على أن « العلم هو أساس لكرامة الانسان » وان العالم والمتعلم شريكان في الخير وأنه لا خير في سائر الناس ، أي لا خير في من عداهما كما سوف ننقله بالنص عن رسول الاسلام .

*** معالجة مشكلة الامية :**

١٦ — ولذلك ، ولما كان العرب في كثرتهم لدى ظهور الاسلام أميين لا يقرأون ولا يكتبون ، بدأ الاسلام اولا بمعالجة الامية بشكل سريع وناجع قبل معالجة أية مشكلة أخرى من مشكلات الحياة ، وفرض العلم على كل مسلم

ومسلمة وقال النبي عليه الصلاة والسلام « طلب العلم فريضة على كل مسلم » أي على كل من أسلم ويشمل الذكور والاناث ثم فتح لهم « آفاق » السموات والارض للنظر فيها وقال لهم : « انظروا ماذا في السموات والارض » . معتبراً ان هذه النظرة الى مفهوم « العلم الشامل » في الاسلام هو الأساس الذي لا بد منه « للتفتح الكامل لشخصية الانسان » على حقائق وجود الكون الدالة على خالق الكون .

١٧ — وهكذا لما وقع في أيدي المسلمين بعض الاسرى من رجال قريش الوثنيين في أول حرب للاسلام معهم في معركة « بدر » جعل الرسول فدية الكثيرين منهم تعليم الاميين من المسلمين ، وفرض على بعض الاسرى من الوثنيين المتعلمين تعليم عشرة من المسلمين جزاء فكاكه من الاسر معتبراً أن القراءة والكتابة هي مفتاح العلم وأول مبادىء التكنولوجية . وبذلك ضرب النبي عليه الصلاة والسلام مثلا لم يسبقه اليه احد من العالمين ، ولم يحدثنا بمثل ذلك بعده احد من المؤرخين ، وخاصة اذا علمنا حاجة المسلمين الشديدة حينذاك إلى المال قبل حاجتهم إلى العلم .

١٨ — وانطلاقاً من قاعدة فريضة العلم على كل مسلم في الاسلام ، مضى الرسول في تعاليمه هذه يتوعد تارة ، ويعد تارة أخرى ويقول : « العالم والمتعلم شريكان في الخير ، ولا خير في سائر الناس » بل ويقول مفضلا الزيادة في العلم على الزيادة في العبادة ويجهر أخيراً بقوله « ما اكتسب مكتسب مثل فضل علم يهدي صاحبه إلى هدى أو يرده عن ردي ، وما أستقام دينه حتى يستقيم عمله » وفي رواية أخرى « حتى يستقيم عقله » .

أثر العلم في نفوس المسلمين كفريضة اسلامية :

١٩ — ولقد كان لهذه الدعوة الاسلامية إلى العلم ، واعلان النبي عليه الصلاة والسلام أن طلب العلم فريضة على كل مسلم أثر في نفوس المسلمين عجيب اذ أن ذلك كون فيهم غراماً بالتعليم ، وبعث فيهم باسم الدين نشاطاً لطلب العلم أصبح مثلاً وحيداً في التاريخ ، ولذلك أعجب كوستاف لوبون

في كتابه « حضارة العرب » أعظم الاعجاب من شغف العرب بالعلم ولقد كان اعجابه أعظم ان رأى هذا الشغف منبعثاً منهم عن الدين نفسه ، وقال في ذلك : « ان العلم الذي قد استخفت به أديان اخرى قد رفع المسلمون من شأنه عالياً واليهم ترجع في الحقيقة هذه الملاحظة الصائبة القائلة باسم الدين : انما الناس هم الذين يتعلمون والذين يعلمون ، واما من هداهم فمضر ، او لا خير فيه » مشيراً بذلك إلى ما سبق نقله عن رسول الاسلام « المادة ١٨ » .

٢٠ – ولذلك ذهب غوستاف لوبون في مكان اخر من كتابه فقال : « ان النشاط الذي أبداه العرب في الدراسة كان مذهباً مدهشاً جداً ، ولئن ساواهم في ذلك كثير من الشعوب ، فلم يكن منهم فيما اظن من سبقهم ، وكانوا اذا ما استولوا على مدينة وجهوا عنايتهم في الدرجة الاولى إلى تأسيس جامع واقامة مدرسة » .

وقال ايضاً « وعدا مدارس التعليم البسيطة ، فان المدن الكبرى مثل بغداد ، والقاهرة ، وطليطلة ، وقرطبة ، الخ ... كان فيها جامعات علمية مجهزة بالمخابر ، والمراصد ، والمكتبات الفنية ، وبكلمة واحدة كانت هذه الجامعات مجهزة بكل المواد الضرورية للبحوث العلمية ، وكان في اسبانيا وحدها سبعون مكتبة عامة . وكانت مكتبة الخليفة الحكم الثاني في قرطبة تحتوي كما ذكره المؤلفون العرب على ستمائة ألف مجلد ، كان منها أربعة وأربعون مجلداً للفهرس فقط . وقد لوحظ بحق أن شارل الحكيم لم يستطع بعد اربعمائة سنة من هذا التاريخ ان يجمع في مكتبة فرنسا الملكية اكثر من تسعمائة مجلد ، وكاد ان يكون ثلثها فقط خارجاً عن علم الكهنوت .

٢١ – وقال لوبون ايضاً في مكان آخر من كتابه : « لقد بلغ شغف العرب بالتعليم مبلغاً عظيماً جداً ، حتى أن خلفاء بغداد كانوا يستعملون كل الوسائل لجذب العلماء وأشهر الفنيين في العالم إلى قصورهم . وان احد هؤلاء الخلفاء بلغ الامر منه حد اعلان الحرب على قيصر القسطنطينية ، وذلك ليجبره على السماح لاحد الرياضيين المشهورين بالمجيء إلى بغداد والتعليم فيها » .

* **استعراض ومقارنة :**

٢٢ – وعلى ضوء ما سبق من نصوص الاسلام وتطبيقاته حول الحقوق الثقافية في الاسلام : بقي علينا الان إتماماً للبحث استعراض خصائص هذه الحقوق في الاسلام ، ومقارنتها مع نصوص المواثيق الدولية الصادرة لحماية حقوق الانسان ، وخاصة منها :

أ – الميثاق الدولي لحقوق الانسان الصادر عن الهيئة العامة للامم المتحدة في ١٠ ديسمبر ١٩٤٨ .

ب – الاتفاقية الدولية في شأن الحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية الصادرة أيضاً عن الهيئة العامة للامم المتحدة في ١٦ ديسمبر ١٩٦٦ م .

ج – اتفاقية حماية حقوق الانسان وحرياته الاساسية الصادرة عن حكومات المجلس الاوروبي بروما بتاريخ ٤ نوفمبر ١٩٥٠ م ، ثم البروتوكول رقم (١) المضاف إلى هذه الاتفاقية والموقع في باريس بتاريخ ٢ آذار ١٩٥٣ م .

د – تصريح عن حقوق الطفل الصادر عن الهيئة العامة للامم المتحدة في ٢٠ نوفمبر ١٩٥٩ م .

* **في المواثيق الدولية :**

٢٣ – وها نحن ننقل اليكم نصوص هذه الاتفاقيات الدولية الخاصة بالحقوق الثقافية للانسان وهي كما يلي :

أولا – ما جاء في الفقرة الاولى من المادة – ٢٦ – من الميثاق الدولي لحقوق الانسان ونصها :

« كل شخص له حق في التربية » .

ثانياً – ما جاء في الفقرة الثالثة من هذه المادة ونصها : ان الآباء لهم الحق في المقام الاول باختيار نوع التربية لاولادهم .

ثالثاً – ما جاء في الفقرة الثانية من هذه المادة ايضاً ونصها : ان التربية

يجب ان تهدف إلى التفتح الكامل لشخصية الانسان . وإلى دعم الاحترام لحقوق الانسان وحرياته الاساسية .

رابعاً — ما جاء في الفقرة الاولى من المادة ١٣ من الاتفاقية الدولية في شأن الحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، ونصها ، أن الدول المشتركة في هذه الاتفاقية تعترف بحق كل انسان بالتربية ، وتتفق على ان التربية يجب أن تهدف إلى التفتح الكامل لشخصية الانسان والشعور بكرامته ، وإلى دعم احترام حقوق الانسان وحرياته الاساسية ، كما تتفق ايضاً على أن التربية يجب ان تجعل كل انسان أهلا للقيام بدور نافع في مجتمع حر .

خامساً — ما جاء في الفقرة ٣ من المادة السابقة ، ونصها ان الحكومات المشتركة في هذه الاتفاقية تتعهد بأن تحترم حرية الآباء والاوصياء الشرعين في الاختيار لاولادهم مدارس من غير المدارس الحكومية ، وفي ضمان التربية الدينية والادبية لاولادهم وفقاً لعقائدهم الخاصة .

سادساً — ما جاء في المادة ٢ من البروتوكول رقم ١ المضاف إلى اتفاقية حماية حقوق الانسان وحرياته الاساسية الصادرة عن حكومات المجلس الاوروبي ، ونصها :

لا يجوز أن يرفض حق أحد في التعليم ، وان الدولة ستحترم في ميدان التربية والتعليم حق الآباء في ضمان التربية والتعليم وفقاً لعقائدهم الدينيةوالفلسفية.

سابعاً — واخيراً ما جاء في الفقرة الثانية من المبدأ السابع من تصريح حقوق الطفل ، ونصها : ان المصلحة العليا للطفل هي المرشد لاولئك الذين يحملون مسؤولية تربيته وتوجيهه وان هذه المسؤولية تقع بالدرجة الاولى على أهله .

٢٤ — ويمكن تلخيص هذه النصوص جميعاً في الكلمات أو الخصائص التالية :

أ — ان لكل انسان الحق في التعليم ولا يجوز ان يرفض له هذا الحق .

ب — ان للآباء في المقام الاول الحق في اختيار التربية الدينية لاولادهم حسب عقائدهم .

ج – ان التربية تهدف إلى التفتح الكامل لشخصية الانسان وللشعور بكرامته . وإلى دعم الاحترام لحقوق الانسان وحرياته الاساسية .

د – ان المصلحة العليا للطفل هي وحدها التي ترشد أولئك المسؤولين عن تربية الطفل وتوجيهه .

* ملاحظات :

٢٥ – ونلاحظ على هذه الخصائص للحقوق الثقافية الدولية :

– انها حق خاص . وليست فريضة عامة .

– كما نلاحظ على هذا الحق الخاص التعبير عنه في البروتوكول الاول لاتفاقية المجلس الاوروبي بصيغة سلبية لا بصيغة ايجابية حيث قال ولا يجوز أن يرفض حق احد في التعليم .

– وتبعاً لذلك نلاحظ أيضاً انه من المتفق عليه في مبادىء الحقوق العالمية ان لكل انسان ذي حق ان يتنازل عن حقه الخاص ، ونتيجة لذلك فان تنازله عن حقه الخاص لا يشكل جرماً ، لانه لا يمس غير شخصه .

وفي ذلك كله اضعاف لهذا الحق في التعليم الذي هو ضرورة أساسية لحياة الانسان ، وهبوط به إلى مستوى الوصايا من غير اي ضامن يضمن التنفيذ لهذه الوصايا ، وخاصة اذا لاحظنا الهدف لهذا الحق الثقافي كما نصت عليه المواثيق الدولية ، فهو يهدف تبعاً لهذا الحق الخاص إلى انه تفتح شخصي لشخص الانسان ولكرامته ، من دون أية اشارة إلى أنواع علوم الحياة وشمولها ، وضرورتها لحياة الفرد ومجتمعه ، وخاصة الايمان بالحقيقة العلمية الاولى مصدر هذا الوجود ، وخالق السموات والارض ومبدع الانسان ، مع وجوب الخضوع إلى تعاليم الله المتعلقة بالانسان والحياة . ونحن نجزم بأن فقدان هذا الايمان بالله كهدف اساسي من أهداف الحقوق الثقافية الدولية لدى الامم المؤمنة بالله ، هو مصدر المخاوف من تقدم وتطور التكنولوجيا الذي اشار اليه تصريح طهران في المؤتمر الدولي لحقوق الانسان المنعقد في ٢١ ابريل حتى ١٣ مايو

٦٨ م . والذي جاء في فقرته ١٨ قوله : واذا كانت الاكتشافات العلمية ، وتطورات التكنولوجيا قد فتحت لنا حديثاً الامال الواسعة للتطور الاقتصادي والاجتماعي والثقافي ، غير ان هذا التقدم يمكن مع ذلك ان يضع حقوق الفرد وحرياته في خطر ..

*** خصائص الحقوق الثقافية في الاسلام :**

٢٦ — ولكننا اذا لحصنا النصوص الاسلامية في الحقوق الثقافية نجدها تتميز بالخصائص التالية :

اولا — أن هذه الحقوق الثقافية في الاسلام قد ورد التعبير عنها بانها فريضة اجبارية ، وبالنتيجة لا يجوز التنازل عنها ، وبناء على ذلك فهي ليست مجرد حقوق للانسان كما اعلنته مواثيق حقوق الانسان في المنظمات الدولية .

ثانياً — ان هذه الفريضة تقع في آن واحد على عاتق الفرد والجماعة وكلاهما مسؤول عن تنفيذ هذه الفريضة ، وهي فريضة حيوية عامة وليست حقوقاً خاصة .

ثالثاً — ان هذه الفريضة تتمتع في الاسلام بضمانات جزائية وليست مجرد توصيات او احكام ادبية لا ضامن لها كما هو الامر في مواثيق المنظمات الدولية ، وبالنتيجة فان للسلطة العامة في الاسلام حق الاجبار على تنفيذ هذه الفريضة ، وذلك خلافاً لمفهوم هذه الحقوق في المواثيق الدولية التي تعتبرها حقاً شخصياً لا يمكن الاجبار عليه اذا تنازل عنه صاحبه . ولكن الواجب يلزمنا التنويه في هذا المقام بالتقدم الذي حققته اتفاقية حماية حقوق الانسان وحرياته الصادرة عن المجلس الاوروبي بروما بتاريخ ٤ نوفمبر ١٩٥٠ م ، وذلك باحداث محكمة لحماية حقوق الانسان لم تنص عليها المواثيق الدولية الاخرى وان كانت احكامها ظلت احكاماً ادبية لا تتمتع بوسائل الارغام على التنفيذ .

رابعاً — ان هذه الحقوق الثقافية في الاسلام تعطى لاولياء الطلاب كامل حريتهم في اختيار نوع الثقافة والتربية التي يختارونها لاولادهم حسب عقائدهم ،

بل تفرض ذلك على المسلمين . وذلك خلافاً للانظمة غير الديمقراطية التي تفرض نوعاً خاصاً من التربية ضد ارادة الآباء ، وكذلك خلافاً للانظمة الديمقراطية العلمانية التي تفرض العلمانية وحدها في الثقافة والتربية وفي كلا النظامين مصادرة لعقول الاطفال والشباب . واخضاعهم في العقائد إلى فلسفة النظم الحكومية وحدها ، وابعادهم عن التوجيه الشرعي المعترف به بالدرجة الاولى للاباء وللاولياء في مواثيق حقوق الانسان الدولية . ونرى من الواجب في هذا المقام ان ننوه ايضاً بتقرير لجنة الخبراء الاوروبية التي وضعت النص النهائي لاتفاقية حماية حقوق الانسان وحرياته الاساسية ، وقد لفت هذا التقرير في ١٣ مارس ١٩٥٠ م ، نظر اللجنة الوزارية الاوروبية إلى النظم غير الديمقراطية التي تعمل على اخضاع الاطفال إلى دعايتها العقائدية ، وذلك باقصائهم عن التأثير المشروع لابائهم كما نرى ان ننوه بمثل ذلك فيما يتعلق بالعلمانية كما اشارت اليه مجلة حقوق الانسان الاوروبية ، المجلد السادس الصفحة ٤٧٩ الحاشية ٢٥ .

خامساً — ان هذه الفرائض الاسلامية في الحقوق الثقافية تطبق في المملكة العربية السعودية بصورة مجانية للجميع ، وفي جميع مراحل التعليم الاولى والثانوي والعالي ، ومن غير تمييز ما بين انسان وانسان ، وقد سبقت المملكة في ذلك معظم دول العالم المتقدم في حضارته اليوم ، وذلك لاعتبار الثقافة العامة واجباً دينياً عاماً .

سادساً — ان المملكة العربية السعودية ، عملا بالواجب الديني في نشر العلم ، فهي لا تجعله مجانياً فقط ، بل تكافىء عليه بمنح شهرية مغرية ، وخاصة في مراحله العالية ، والمهنية ، وذلك تشجيعاً للدراسات العليا في مختلف العلوم والاختصاصات .

سابعاً — واخيراً فهنالك الميزة الاساسية لهذه الفريضة الثقافية في الاسلام وهي انها تفتح امام الانسان جميع آفاق السماء والارض للبحث والعلم بمختلف علوم الحياة وانواع التكنولوجيا من غير تحديد ولا خوف من أخطار تقدمها كما

تخوفت منها الامم المتحدة في تصريح طهران ، وذلك من اجل الاعتراف والاقرار علمياً بخالق الكون ومبدع الانسان ، وهذا ما يجنب علوم التكنولوجيا في تقدمها من ان تكون مادية نفعية فقط ، لتكون أداة حقيقية في تغذية الروح إلى جانب مصالح الجسد ، وذلك بتقريب الانسان من خالقه وبدعوته للعمل بوصاياه واحكامه كي يجمع الانسان ما بين مقاصد العلم الروحية العليا ، إلى جانب حظوظه الجسدية في الدنيا ، وينقذ بذلك نفسه من الضياع ومن اوحال الحيوانية والمادة .

* خلاصة وختام :

٢٧ — وفي ختام هذا البحث عن الحقوق الثقافية في الاسلام ، ومقارنة خصائصها بخصائص الحقوق الثقافية في المواثيق الدولية اراني مضطراً إلى لفت نظر اعضاء الندوة المحترمين إلى ان ما اوضحته حول الحقوق الثقافية في الاسلام وخصائصها القائمة على الالزام بفريضة العلم وعلى شمول هذا العلم لجميع علوم الحياة وتكنولوجياتها لم يكن الغرض منه ان نجعل هذه الندوة ميدان مفاضلة ما بين الاسلام وغير الاسلام ... ولكن الغرض هو ان نعمل جميعاً على رفع مستوى موضوع هذه الندوة في الحقوق الثقافية ، وان يضع كل منا ما عنده من تعاليم في ذلك ... وان نبحث الموضوع متجردين الا من الهدف الذي نسعى اليه ، وهو كرامة الانسان وواجباته العلمية في تعاليمنا الالهية ، خاصة وقد قامت هذه الندوة في عاصمة الفاتيكان وبدعوة منها ، وضمت مسؤولين من العلماء في الدينين فيها ... ومن اولى من رجال الاديان السماوية في هذه الايام باسماع العالم صوت السماء ، وبالتعاون مع الاسرة جميعها لحماية كرامة الانسان ولحماية حقه في العيش بأمن وسلام ، وحقه في العدل والمساواة من غير تمييز ما بين انسان وانسان ، لا في الاعراق ولا في الاديان .

٢٨ — واذا كنا شرحنا خصائص الحقوق الثقافية في الاسلام بهدف تفتيح شخصية الانسان والشعور بكرامته على اساس من العدل والمساواة في حق

الحياة .. وانها تبدأ بالايمان بالله وبالاخذ بتعاليمه كأساس للحياة الكريمة .. وانها تشمل العلم بمختلف انواع علوم الحياة وتكنولوجياتها اللازمة لحياة الانسان ولعمارة الارض .. وان خاصتها الاولى في الاسلام انها فريضة عامة تجعل للسلطة الحاكمة حق الاجبار عليها وليست حقاً شخصياً لا مجال للاجبار عليه اذا تركه صاحبه . وان الثقافة في المملكة العربية السعودية مجانية في مختلف درجاتها : الابتدائية والثانوية والعالية ، بل هي مكافأ عليها غالباً وخاصة في جميع اقسامها العالية ..

نقول اننا اذا شرحنا خصائص الحقوق الثقافية في الاسلام ، وتطبيقاتها في المملكة العربية السعودية كما قد رأيتموها الان ، فذلك لنعلم مقدار حظ حقوق الانسان الثقافية وتطبيقاتها في المملكة العربية السعودية العاملة في ذلك بشريعة القرآن ، ثم مقدار خسارة الانسان فيها لو وقفت المملكة في الحقوق الثقافية عند حدود المواثيق الدولية التي ترد تلك الحقوق إلى وصايا لا ضامن لها في حقوق الانسان .

٢٩ — واخيراً نعلن باننا بشرحنا لخصائص الحقوق الثقافية في الاسلام لا نريد اضعاف المواثيق الدولية في حقوق الانسان وانما نأمل ان نعمل جميعنا على تدارك ما فيها من ضعف ، مع تقديرنا للروح التي قامت عليها هذه المواثيق ، وتقديرنا للرجال وللحكومات التي ساهمت فيها . وخاصة حكومات المجلس الاوروبي في تدارك بعض النقائص الاساسية في الميثاق الدولي لحقوق الانسان ، وذلك حين اقدمت هذه الحكومات في اتفاقية حماية حقوق الانسان وحرياته الاساسية على احداث محكمة دولية لحماية هذه الحقوق لم يشر اليها الميثاق الدولي لحقوق الانسان .

واننا لنرجو بعد ذلك من قادة الفكر في هذه الحقوق ، ان يقدروا على ضوء ما شرحناه عنها في الاسلام ، ما قد قامت عليه الحقوق الثقافية فيه من ابعاد روحية ومادية طبقاً لشريعة القرآن ، وحماية لحقوق الانسان ولكرامته في مختلف الاوطان والاعراق والاديان .

الندوة الإسلامية العالمية

انعقدت في مكة المكرمة الدورة الثالثة للندوة الإسلامية العالمية في موسم الحج لعام ١٣٩٤ هـ . واتخذت التوصيات الآتية في ٤ ذي الحجة ١٣٩٤ هـ الموافق ١٨ ديسمبر ١٩٧٤ م :

أولا : الجهاد

١ — نظرا لما تتعرض له الأمة الاسلامية من هجوم شرس وعنيد يستهدف الاتيان على دينها وأرضها ونظرا لما حدث بالفعل من ضياع أجزاء كبيرة من قلب العالم الاسلامي وأطرافه تشمل فيما تشمل المسجد الأقصى وفلسطين الى جانب أقطار أخرى تئن تحت وطأة الاستعمار العالمي وتتعرض لخطر الابادة في أجزاء كثيرة من العالم ،

فانها توصي برفع علم الجهاد بين المسلمين جميعا حتى يتم تحرير كل شبر من أرض الاسلام ويتمكن المسلمون من استعادة أرضهم واعلاء كلمة الله .

٢ — ان الجهاد الذي نطالب به لا بد أن يعم جميع الميادين الثقافية والاجتماعية والاقتصادية التي تسلل العدوان الاستعماري والصهيوني منها فان الجهاد في هذه الساحات لا يقل خطرا ولا أثرا عن الجهاد في ميدان القتال . وقد يزيد في بعض الأحيان عليه لارتباط مستقبل الأمة به .

٣ — كما ان غرض الاستعمار تقويض البنيان الاسلامي والاجهاز على رسالتنا وحضارتنا فان الواجب يفرض علينا مزيدا من الحرص في التشبث بكتاب ربنا وسنة نبينا محمد ﷺ .

٤ — اعادة النظر في جميع برامج التعليم وحذف الدس الاستعماري الثقافي منها وتزويد الطلاب في جميع المراحل بزاد علمي منظم يجعل منهم جيلا اسلاميا واعيا يقظا .

٥ — امداد معاهد المعلمين بالمناهج والرجال والظروف التي تحقق هذه الغايـــة .

٦ — منع المدارس التبشيرية منعا باتا ، ومنع كل لون من التعليم لا يحمل الصبغة الاسلامية أو يخرج متعلمين مقطوعي الصلة بدينهم وتاريخهم . ، ورفض التعامل مع المؤسسات العالمية المشبوهة التي تتظاهر بالحياد وتبطن الطعن على ديننا .

٧ — توصي الندوة بالتيقظ لتيارات الانحلال الوافدة من الخارج والتي تغري الشباب بالميوعة والبحث عن اللذائذ والمرفهات وتؤكد أن هذه التيارات موجهة لاضعاف المقاومة الاسلامية وخلق جيل متخاذل لا يطيق أعباء الجهاد وذلك ما يخدم أغراض الصهيونية والاستعمار .

ان عماد الجهاد هو العقيدة الصلبة والخلق القوي ، ولا شك أن حراسة الجيل الناشىء من التقاليد الخبيثة المصدرة عمدا لاضعافه والقضاء عليه توفر لنا عدة المقاومة المطلوبة وتطمئننا الى مستقبل واضح .

٨ — توصي الندوة بتحصين المسلمين ضد العصبيات الضيقة والنزعات العنصرية والقومية التي تتنكر للاسلام وتضيق بتعاليمه .. ويقتضي ذلك اشعارا

دائما لكل مجتمع اسلامي بأنه جزء من كل وان ولاء المسلم انما يكون لدينه العظيم ولأمته المترامية الأطراف فكل شبر من أرض يحيا عليه مسلم هو وطنه الكبير الذي يهتم به ويدافع عنه .

٩ — دراسة الاستغلال الاستعماري لبعض الأقليات الدينية الموجودة أو التي أوجدها بين المسلمين ومراقبة نشاطها الثقافي والاجتماعي والاقتصادي الذي يضر بالمسلمين أو يضعف مواقفهم أمام أعدائنا .

ومعروف أن التسامح الاسلامي بلغ حدا رائعا في التجاوز والاغضاء ، ولكن ذلك لا ينبغي أن يكون ذريعة للنيل منه أو العدوان عليه وخاصة في هذه الظروف العصيبة التي يمر بها المسلمون الآن ..

١٠ — وأخيرا توصي الندوة بالعمل على حشد المسلمين قاطبة وجمع صفوفهم للمعركة المتوقعة مع الصهيونية والاستعمار . ويتطلب ذلك : —

أ — تخصيص أركان حية في برامج الاذاعات المسموعة والمرئية للحث على الاستعداد المادي والأدبي وللتركيز بما لا بد منه من تضحيات حتى نحرز النصر.

ب — تكوين لجان توعية تشرح طبيعة الجهاد لاستنقاذ المسجد الأقصى وسائر الأراضي الاسلامية المغتصبة سواء في فلسطين أو غيرها .

ج — انشاء كتائب للتحرير وللجهاد ينتسب اليها الشباب المسلم ويتم فيها تدريبهم عسكريا اعدادا لمعارك المصير المنتظرة على أن يكون ذلك تحت اشراف رسمي تتعاون فيه دول الجامعة العربية والدول الاسلامية .

ثانيا : الحركات الهدامة

ان الحركات الهدامة في مؤسساتها المختلفة ، سواء منها ما هو منظمة ظاهرة أو جماعة سرية قد وصلت الى مرحلة خطيرة من التغلغل في جميع جبهات العالم الاسلامي نتيجة تقصير وغفلة طويلة بعد استعمار غاصب .

ولقد كشفت الأبحاث عن مدى توسع هذا الخطر ونموه . لذلك ترى الندوة

ضرورة العمل بقوة وفي كافة المجالات من أجل حصر هذا الخطر والكشف عنه والقضاء عليه بكل الوسائل الميسرة مع حشد الجهود لهذه المواجهة وتجنيد كل القوى من المفكرين والصحفيين والباحثين المسلمين والمتخصصين في مختلف المجالات لدرء هذا الخطر . وفي هذا توصي الندوة بما يأتي : —

أ — منظمة المفكرين والكتاب المسلمين

انشاء جهاز فكري قادر على العمل ويكون ذلك بانشاء منظمة المفكرين والكتاب المسلمين داخل اطار رابطة العالم الاسلامي بحيث تقوم على مراجعة كل ما يصدر في العالم الاسلامي وخارجه وما يوجه الى المسلمين من دعوات ومذاهب وشبهات مثارة ، وحصر هذه التحديات والكشف عنها والرد عليها على أن تقوم هذه المنظمة بالتبادل الثقافي بين مفكري الاسلام وكتابه واعلان ميثاق فكري أمام الكعبة المشرفة بالتعهد بصيانة الميراث الاسلامي وحمايته والدفاع عنه واليقظة التامة لكل ما يراد به من تزييف والرد على الشبهات كذلك من شأن هذه المنظمة العمل السريع في مواجهة أي ظاهرة من ظواهر العمل التنصيري أو الاستشراقي أو محاولات التغريب بحيث يكون الرد سريعا ازاء كل ظاهرة وفي لحظة ظهور الخطر ، كذلك من شأن هذه المنظمة حماية ظهور المفكرين المسلمين من القوى الوافدة والاستعمارية التي تحاول القضاء عليهم .

وترجو الندوة من الأمانة العامة لرابطة العالم الاسلامي الاسراع في الدعوة الى عقد مؤتمر للمفكرين الاسلاميين والعاملين في حقل الدعوة لدراسة انشاء هذه المنظمة .

ب — انشاء صندوق تمويل الدعوة الى الاسلام

انشاء صندوق تمويل للدعوة الاسلامية من مصادر مختلفة يمكن تحديدها ، وفي مقدمة هذه الوسائل طبع طوابع تجمع في جميع أنحاء العالم الاسلامي بالاضافة الى الموارد التي تقدمها الزكاة الاسلامية ومعونات كبار المسلمين والهيئات

الاسلامية على أن يكون هذا الصندوق مصدرا لتمويل مختلف البحوث والدراسات وتقوم رابطة العالم الاسلامي بالاشراف على هذا الصندوق .

ج ـ انشاء معهد للدعاة

توصي الندوة بضرورة الاسراع في انشاء معهد لاعداد الدعاة الاسلاميين ، على أن يتولى العمل فيه طائفة من الخبراء المسلمين في مختلف مجالات الفكر الاسلامي ويستقدم عددا من الشباب المسلم المثقف لتدريبه وبعثه الى مختلف أقطار العالم .

وتأمل اللجنة أن تؤسس فروع لهذا المعهد في مختلف أنحاء العالم حيث ما أمكـــــن .

د ـ توصي الندوة بضرورة العناية بتوعية المرأة المسلمة توعية اسلامية بحيث تكون قادرة على العمل في الحقل الاسلامي في مجال التعليم والارشاد والتمريض .

هـ ـ انشاء دار نشر اسلامية كبرى تقوم على طبع رسائل مختصرة بمختلف اللغات المتداولة في العالم الاسلامي وفق منهج يعد لمواجهة كـــل حملات الغزو الثقافي المطروحة في العالم الاسلامي والرد عليها وكشف زيفها .

و ـ انشاء صحيفة اسلامية يومية كبرى يمكن أن تصدر أسبوعيا أولا في حجم الصحف اليومية وتصدر في احدى العواصم الاسلامية وباللغات العربية والفرنسية والانجليزية باشراف من يختارون من الصحفيين من المسلمين للعمل لتكون أداة سريعة ويومية في مواجهة كل التحديات والشبهات والأخطار ، وتوصي الندوة في بادىء الأمر بتطوير مجلة أخبار العالم الاسلامي الموجودة حاليا وتعزيز صحافة الرأي الاسلامي في مختلف دول العالم الاسلامي .

ز ـ اعتماد منهج أصيل للتربية الاسلامية والتعليم الاسلامي يراعى فيه حماية الشباب المسلم من أخطار المنهج الوافد على أن يعد هذا المشروع بواسطة

مجموعة من خبراء التربية الاسلامية ويقدم الى الحكومات المسلمة لاعتمـــاده وتنفيـــذه .

كذلك توصي الندوة بأن تقدم كل المدارس الاسلامية والجامعات دراسة تسمى مقدمة المناهج بين يدي دراسات العلوم والتجارة والاقتصاد والتربية وغيرها تكشف عن الأصول العامة التي قدمها الفكر الاسلامي للفكر البشري في مختلف المجالات .

وتوصي الندوة للعمل على اعداد كتب مبسطة لأطفال المسلمين تمكنهم من فهم دينهم فهما سليما مبسطا بحيث يتيسر لهم تطبيقه في الحياة العملية كما توصي بانشاء مجلة اسلامية للأطفال .

ج — انشاء عدد من المستشفيات في المناطق الحساسة في العالم الاسلامي ويمكن أن تبدأ هذه المستشفيات على هيئة مستوصفات صغيرة لتكون بديلا للمسلمين عن المستشفيات التي تقيمها هيئات التنصير والعمل على انشاء مستوصفات متنقلة تجوب مختلف القرى وتقوم في الوقت نفسه بتوزيع الكتب الاسلامية وذلك أسوة بالتجربة الناجحة لرابطة العالم الاسلامي في اندونيسيا والنيجر .

ط — مراقبة المنح الدراسية التي تقدم للشباب المسلم من البلاد غير الاسلامية والاشراف عليها وذلك حماية للشباب المسلم من الوقوع في براثن الهيئات التنصيرية وهيئات الاستشراق حيث ثبت أن أغلب المنح التي تقدم للبلاد الاسلامية تسيطر عليها هيئات لها أهداف استعمارية .

كذلك توصي الندوة بالتوسع في المنح الداخلية للطلاب الوافدين من العالم الاسلامي .

ي — انشاء مؤسسة كبرى للشباب لرعايته وحمايته وتوجيهه يكون لها مراكز بمختلف أنحاء العالم خاصة في البلاد الغربية على أن تقوم هذه المؤسسة بدراسات واسعة لتغطية حاجات الشباب المسلم ومواجهة التحديات التي يتعرض لها .

ويقوم بالاشراف على هذه المؤسسة عدد من خبراء التربية الاسلامية لعلاج

مختلف القضايا التي تواجه الشباب وعلى هذه المنظمة أن تتخذ من المسجد وسيلة أولى لهذا الغرض وأن تقدم للشباب النماذج الطيبة والأسوة الحسنة من المدرسين والدعـــاة .

كما توصي الندوة بالعمل على حماية الشباب من الحركات الرافضة الحديثة كالهيبزيين والوجوديين .

ك - العمل على اعداد خطة لتوجيه وسائل الاعلام الوجهة الاسلامية وذلك عن طريق التفاهم مع الحكومات الاسلامية سواء في مجال الاذاعة أو التلفزيون أو المسرح أو السينما أو الصحافة وعمل ميثاق عمل اسلامي لاعداد هذه الوسائل الاعلامية وتوجيهها الوجهة الاسلامية الصحيحة .

ثالثا : توصيات خاصة

أولا : في مواجهة العلمانية :

توصي الندوة باعتبار الشريعة الاسلامية في مختلف البلاد الاسلامية دستورا لها كما توصي بأن تقوم الجامعات بمختلف البلاد الاسلامية بدراسة المذاهب الغربية في اطار وجهة النظر الاسلامية على اعتبار أنها وجهات نظر خاصة وانها افتراضات فيها الصواب وفيها الخطأ وأن للمسلمين مفاهيم أساسية في مختلف النواحي السياسية والاجتماعية ، كذلك توصي بتأكيد مفهوم ارتباط الدين بالمجتمع وبالدولة والحياة مع ضرورة ادخال العقيدة الاسلامية في برامج التعليم الجامعي ودراسة اقتصاد الاسلام في كليات الاقتصاد ودراسة السياسة الاسلامية في كليات العلوم السياسية ودراسة الشريعة الاسلامية كمنهج تطبيقي في كليات الدراسات القانونية .

ثانياً - في مواجهة الشيوعية :

نقض الفكر الماركسي والكشف عن أخطاره وزيفه والاشارة الى مدى

كفاية الاسلام كمنهج حياة لاسعاد المسلمين واسعاد البشرية وتوصي الندوة باعداد دراسات شاملة متخصصة تنقض مختلف جوانب الفلسفة المادية والماركسية التي يدعونها الاشتراكية العلمية وذلك على طراز علمي حديث لحماية الشباب المسلم من أخطارهم في الجامعات وطبع كتيبات مبسطة تقدم للشباب في المدارس المختلفة لتوعيتهم من هذا الخطر والدفاع عن أنفسهم وتوصي الندوة بضرورة العمل السريع لحماية الشعب المسلم في كل مكان من أخطار الشيوعية .

وفي هذا المقام تراقب الندوة في قلق بالغ الأوضاع غير الانسانية التي يتعرض لها أبناء الجنوب العربي وتستنكر المجازر الوحشية التي تمارسها الحكومة الشيوعية هناك ضد العلماء والمفكرين المسلمين وقتلهم وسحلهم وتشريدهم ، في محاولة مكشوفة للقضاء على الاسلام في جنوب الجزيرة العربية واقامة دولة تكون منطلقا للحركات الالحادية الهدامة لغزو المسلمين في عقر دارهم وتطالب الندوة المسلمين حكومات وهيئات وشعوبا بالعمل الجاد المتواصل لرفع هذا العدوان الواقع على المسلمين في دول الستار الحديدي وفي كل مكان يتعرضون فيه للقهر الشيوعي وخطر الابادة الشاملة .

ثالثاً — في مواجهة التنصير :

توصي الندوة بتسمية هذا الخطر الذي يسمونه التبشير باسمه الحقيقي وهو التنصير كما توصي بفتح مدارس عن طريق الهيئات الاسلامية الأهلية وبناء المستشفيات والملاجىء التي تغني المسلمين عن دخول تلك المدارس والمستشفيات .

كذلك توصي بالنظر في المناهج التي تقدمها المدارس والجامعات التابعة للارساليات التبشيرية التي تقوم بالتنصير بحذر شديد والكشف عن هدفها المسموم في تفريغ العقل الاسلامي من مقوماته كما توصي بالتنبيه الى العلاقة الجذرية بين التنصير والاستعمار القديم والحديث .

رابعاً — في مواجهة الماسونية :

توصي الندوة بالعمل على كشف أسرار الماسونية في دراسات واسعة والكشف عن صلتها بالصهيونية وخدمتها لها كما توصي بابراز الأسماء الجديدة التي تستتر وراءها كالروتري والليونز وشهود يهوه واخوان الحرية والعمل على ابعاد زعماء الماسونية عن مراكز التوجيه في البلاد الاسلامية المختلفة .

خامسا — في مواجهة البهائية :

توصي الندوة بالكشف عن زيف البهائية وخطرها على مفهوم الاسلام وتوضيح ثبات الشريعة الاسلامية بوصفها شريعة ربانية عامة لها قدرتها على النماء والاستجابة لتغييرات المجتمع والأحداث والبيئات عن طريق الاجتهاد في الفروع .

كذلك توصي الندوة بالتنبيه الى العلاقات الوطيدة بين البهائية والصهيونية ، وخدمة البهائية للصهيونية ، والتوصية بحظر كل نشاط بهائي في البلاد الاسلامية سواء أكان سريا أم علنيا .

رابعا : لغة القرآن

بما أن ثمة محاولات مشبوهة تقوم بها بعض الجهات المعادية للقضاء على اللغة العربية التي ظلت هدفا لمؤامرات الحاقدين على التراث العربي والاسلامي وعلى الرغم من أن هذه المحاولات تلقى كل معارضة واستنكار من العالمين العربي والاسلامي الا أن المخططين لهذه المؤامرات الحاقدة مصممون على المضي في في محاولتهم القضاء على لغة القرآن ، تحت شعارات التيسير تارة وتحرير اللغة العربية وحروفها من قيود القواعد تارة أخرى .

ومن المؤسف جدا أن تجد هذه الدعوات استجابة وترحيبا لدى بعض الدول الاسلامية التي أقدم بعضها على استبدال الحرف العربي بالحرف اللاتيني واحلال

العامية محل الفصحى مما يشكل تهديدا خطيرا لمستقبل الأمة ولغتها الأصيلة .

وفي ضوء هذا الواقع توصي الندوة بما يأتي :

١ ـ دعوة جميع الدول الاسلامية الى الاهتمام بتدريس القرآن الكريم وتحفيظه للطلاب وذلك بوضع برامج ومناهج لجميع مراحل التعليم تكون العناية بالقرآن ولغته ركنا بارزاً فيها .

٢ ـ الدعوة الى ضرورة الاعتزاز باللغة العربية بوصفها لغة القرآن ، ورفض كل سخرية منها واتخاذ مواقف حازمة من أصحاب هذه النزعات .

٣ ـ مناشدة الكتاب والمؤلفين والأدباء المسلمين العمل على احتذاء البيان القرآني والبيان النبوي الشريف فيما يقدمون من أعمال .

٤ ـ ومناشدة هؤلاء الكتاب كذلك أن يستلهموا التراث الاسلامي بما فيه من روائع البيان ويعرضوه عرضا يلائم هذا العصر .

٥ ـ من الضروري اظهار محاسن الأدب العربي وتقديمه للقراء في الصورة التي تبرز جمال العربية في التعبير والتصوير وذلك بمقارنته بآداب اللغات الأخرى.

٦ ـ حث جميع الدول العربية والاسلامية على الحفاظ على الخط العربي والحرف العربي كذلك باعتبارهما الأساس الأول للحفاظ على لغة القرآن ومناشدة الدول التي استبدلت بالحرف العربي الحرف اللاتيني العودة الى مجراها الأصيل حتى لا تنقطع الصلة بين المواطن الاسلامي وجذور تراثه العريق .

٧ ـ من الضروري التزام لغة القرآن في جميع المعاملات الرسمية مما يظهر اعتزازنا بهذه اللغة .

٨ ـ المطالبة بأن تكون لغة القرآن لغة رسمية في جميع المؤتمرات والمحافل الدولية .

٩ ـ الدعوة الى عقد مؤتمر للمتخصصين في العلوم التجريبية كالطب والهندسة ونظائرهما تكون مهمته تعريب التعليم في هذه المواد التي تدرس للعرب المسلمين بغير لغة القرآن .

١٠ — حث الدول العربية على الاكثار من انشاء مراكز لتعليم لغة القرآن في البلاد الاسلامية التي لا ينطق أهلها بالعربية وخاصة في البلاد التي تضم أقليات اسلامية .

١١ — بث برامج اذاعية لتعليم اللغة العربية للمسلمين وغيرهم في جميع أنحاء العالم .

١٢ — دعوة المتخصصين في علوم اللغة الى تبسيط وسائل تعلمها أسوة باللغات الأخرى .

خامسا : الاقليات الاسلامية

١ — مناشدة جميع الدول والهيئات والمنظمات الاسلامية في العالم الاهتمام بقضايا ومشكلات الأقليات الاسلامية في جميع أنحاء العالم وتقديم المساعدات المختلفة لهذه الأقليات حتى تتمكن من استمرار بقائها وحفاظها على دينها .

٢ — انشاء صندوق للجهاد لصالح هذه الأقليات ينفق منه على مساعدتهم في كل ما تحتاج اليه على أن يكون مركز هذا الصندوق في الأمانة العامة لرابطة العالم الاسلامي .

٣ — حث الحكومات الاسلامية على اتخاذ مواقف ايجابية وحازمة من كل الحكومات التي تضطهد الأقليات الاسلامية وحملها على رعاية حقوق هذه الأقليات في اقامة شعائرها وممارسة عباداتها الدينية ونشاطاتها الثقافية والاجتماعية .

٤ — من الضروري أن ينشأ في كل دولة اسلامية مركز لتدريب المجاهدين المسلمين وتزويدهم بالخبرات العسكرية للدفاع عن دينهم وعن وجودهم ضد محاولات الابادة التي يتعرضون لها .

٥ — مطالبة الدول الاسلامية بتبني قضايا الأقليات المسلمة في المنظمات والمحافل الدولية .

٦ — الاعتراف بحركات التحرير والجهاد الاسلامي الذي تقوم به هذه الأقليات واتخاذ كل الخطوات المترتبة على ذلك بدعمه سياسيا وماليا وعسكريا .

٧ — مطالبة الحكومات الاسلامية بتقديم المنح الدراسية لأبناء الأقليات المضطهدة .

٨ — مناشدة الأمانة العامة لرابطة العالم الاسلامي باذاعة جميع الحقائق والوثائق المتعلقة بقضايا الأقليات على جميع دول العالم حتى يقفوا على حقيقة ما يتعرض له أشقاؤنا المسلمون » .

مشروع كتابة تاريخ العرب والإسلام

١ – في ضيافة جامعة الكويت عقدت اللجنة التحضيرية الموسعة التي شكلتها الأمانة العامة لاتحاد الجامعات لدراسة مشروع كتابة تاريخ العرب والاسلام ، سبع جلسات صباحية ومسائية في الفترة من يوم الاثنين ٢٥ الى يوم السبت ٣٠ نوفمبر ١٩٧٤ ، درست فيهاالمشروع من كافة نواحيه واتخذت التوصيات التي يتضمنها هذا التقرير .

وقد حضر اجتماعات الحلقة السادة الآتية أسماؤهم :

الأستاذ الدكتور أحمد عزت عبد الكريم	:	رئيس الجمعية التاريخية بالقاهرة
الأستاذ الدكتور أحمد مختار العبادي	:	الأستاذ بجامعة الاسكندرية
الأستاذ أحمد مشاري العدواني	:	الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالكويت
الأستاذ الدكتور حسين مؤنس	:	أستاذ ورئيس قسم التاريخ بجامعة الكويت

الأستاذة الدكتورة زاهية قدورة	: عميدة كلية الآداب بالجامعة اللبنانية
الأستاذ الدكتور شاكر مصطفى	: أستاذ التاريخ بقسم التاريخ بجامعة الكويت
« « صالح أحمد العلي	: أستاذ بقسم التاريخ بجامعة بغداد
« « عبد العزيز الدوري	: الأستاذ بالجامعة الأردنية
« « عبد العزيز عبدالله الفدا	: مدير جامعة الرياض
« « عبد الكريم كريم	: الأستاذ بجامعة محمد الخامس بالرباط
« « محمد عواد حسين	: الأستاذ بقسم التاريخ بجامعة الكويت

ومن الأمانة العامة للاتحاد :

الاستاذ الدكتور محمد مرسي أحمد	: الأمين العام لاتحاد الجامعات العربية
السيد عبد الخالق عزت	: المستشار الفني لاتحاد الجامعات العربية

واعتذر عن الحضور كل من :

الأستاذ الدكتور عبد العزيز كامل	: نائب رئيس الوزراء ووزير الأوقاف بجمهورية مصر العربية
الأستاذ الدكتور محمد الطالبي	: الأستاذ بالجامعة التونسية
والأستاذ الدكتور نور الدين حاطوم	: الأستاذ بجامعة الكويت ، لمرضه

وحضر اجتماعات الحلقة بدعوة منها للاشتراك في مناقشة ما يتصل بالتاريخ العربي الحديث :

الأستاذ الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى : أستاذ التاريخ بجامعة الكويت
الأستاذ الدكتور أحمد سعد الدين طربين : أستاذ التاريخ بجامعة الكويت

ووقع اختيار الأعضاء على السيد الأستاذ الدكتور أحمد عزت عبد الكريم رئيسا ، والأستاذ الدكتور حسين مؤنس مقدم المشروع ، مقررا .

٢ — ثم درس السادة أعضاء الحلقة مذكرة المشروع المعروض عليها دراسة عامة شاملة ، وبعد ابداء ملاحظات شتى على الطريقة التي فصلها المشروع فيما يتصل بكتابة هذا التاريخ في عدد محدد من المجلدات على يد نخبة مختارة من مؤرخي الأمة العربية ، كل بحسب تخصصه ثم تنفيذه عن طريق أي هيئة علمية أو ثقافية عربية كبرى تتقدم للقيام بهذا التنفيذ وتحمل أعبائه المالية والادارية في حدود ما هو وارد في مذكرة المشروع ، ثم يتم النشر عن طريق دار نشر عربية ذات خبرة طويلة في نشر الكتب العلمية وقادرة على نشر مجلدات هذا المشروع كلها في سلسلة من المجلدات على مستوى رفيع ، أقر السادة الأعضاء القواعد التي اقترحت المذكرة أن تتم كتابة هذا التاريخ على أساسها ، وهي :

١) وحدة الشعوب الاسلامية جميعا وان اختلفت الدول ونظم الحكم .

٢) ترابط الأمة الاسلامية العامة خاصة في حالات تعرضها أو جانب منها لخطر خارجي يستهدف الاسلام أو سلامة الوطن العربي أو الاسلامي أو جزء منهمـــا .

٣) وحدة التيارات التاريخية العامة التي مرت ببلاد الاسلام كلها .

٤) اظهار العطاء الحضاري الاسلامي العربي للحضارة العالمية وبيان استمراره وفاعليته وقيمته الرفيعة .

٥) الالتزام بالخط الاسلامي العربي العام وتجنب كل لفظ أو اشارة يمكن أن تمس شعور العرب والمسلمين .

٦) تجنب مشاعر التعصب والتفريق بين جماعة اسلامية وأخرى وتحاشي تيارات التعصب التقليدية الشائعة في بعض مؤلفات التاريخ المتداولة في البلاد العربية واعتبار المسلمين أمة واحدة واعتبار غير المسلمين من سكان الوطن العربي والاسلامي جزء من الأمة الاسلامية تراعي عقائدهم وتحترم مشاعرهم ويبين في وضوح وانصاف ما قاموا به من مساهمات كبرى في خدمة الحضارة الاسلامية والعربية وذلك لأن الاسلام دين تسامح ومساواة واخاء ومودة ولأن العالم العربي ملك لكل سكانه من العرب مهما اختلفت أديانهم .

٧) تحري الدقة التامة في كتابة هذا التاريخ والاهتمام بابراز الحقائق وحدها على اعتبار أن تاريخ أمة الاسلام حافل بنفسه بالمفاخر والأمجاد وليس بحاجة الى أي مبالغة .

وفي أثناء المناقشة أكد الأعضاء مرة بعد مرة على ضرورة التزام الأسس العلمية الدقيقة في كتابه هذا التاريخ كله ، ورأوا أن يكتب في مستوى علمي رفيع ويكون في نفس الوقت سهل التناول بحيث يستطيع الرجوع اليه طالب الجامعة والمثقف العربي ، ويفيد منه دون عناء وذلك حتى تعمم الفائدة من وراء هذا المشروع .

وتحقيقا لهذا الغرض رؤي أن يكتب هذا التاريخ كله بروح عربية اسلامية تقوي أواصر التضامن والتآلف بين العرب والمسلمين مع مراعاة تجنب كل ما عسى أن يمس مشاعر أي جماعة عربية أو اسلامية أو يميل الى ناحية مذهبية أو عصبية لأنه يكتب لكل العرب والمسلمين ليخدمهم ويقرب بينهم ؛ ويؤكد وحدتهم في الماضي والحاضر ويحفزهم على التمسك بالوحدة في المستقبل .

ورأت الحلقة أن يكون هذا التاريخ في مجموعه تاريخا حضاريا ، فلا ينفق معظم الجهد في ذكر تفاصيل التاريخ السياسي بل يهتم في المكان الأول ببيان أحوال الناس في حياتهم العادية ويتتبع تطور المجتمع وحرص الشعوب العربية والاسلامية جميعاً على الترابط والتماسك والمحافظة على الاطار العربي الاسلامي العام لحياتهم سليما .

وأوصت الحلقة بأن ينبه مؤلفو أجزاء هذا التاريخ الى تجنب اتخاذ مجلدات هذا التاريخ معرضا للدفاع عن نظريات وآراء خاصة بهم ، ولا يمنع ذلك من ذكرها في مواضعها ويعرض معها في نفس الوقت شتى الآراء والنظريات الخاصة بكل نقطة من نقط الموضوع الذي يكتب فيه .

وأوصت الحلقة بأن يكون لهذا التاريخ في جملته طابع واحد عام من ناحية الاتجاه والأسلوب ، ولهذا فلا بد من تجنب ما عسى أن يقع من متناقضات بين الآراء المعروضة في أجزاء الكتاب المختلفة ، وستقوم هيئة المحررين المقترحة بمراعاة ذلك .

٣ — ولذلك كله أوصت اللجنة بضرورة وضع دليل أو مرشد للمؤلفين يضعه عدد قليل من أعضاء الحلقة ثم يعرض على جميع الأعضاء في الاجتماع التالي للحلقة ليبدوا ملاحظاتهم عليه . وبعد أن يتم الاتفاق على صورته النهائية يرسل الى جميع المؤلفين ويطلب اليهم أن يلتزموا بما فيه وسيتناول هذا الدليل كل ما يتصل بطريقة التأليف من الناحيتين الموضوعية والشكلية .

٤ — ثم درست الحلقة الهيكل العام لتأليف هذا التاريخ كله وتقسيمه الى مجلدات وانتهت بعد المناقشة الى تقسيم التاريخ العربي والاسلامي كله الى عصور أو أدوار لكل دور طابعه العام ، وقد سميت هذه الأدوار بالحلقات ، وتضم كل حلقة منها عددا من المجلدات .

ومرفق بهذا التقرير ملحق يتضمن بيان هذا التقسيم الى حلقات وعددها سبع ، ومجلدات وعددها تسعة وثلاثون مجلدا تشمل تاريخ العرب والاسلام كله من قبيل الاسلام الى العصر الحاضر .

٥ — وبعد مناقشة هذا الهيكل العام واقراره في صورته النهائية انتقلت الحلقة الى دراسة المقترحات الخاصة بتأليف هيئة المحررين واختيار المؤلفين ، وبعد المناقشة اقترحت الحلقة تشكيل مكتب مؤقت من السيد الأستاذ الدكتور

مقرر الحلقة وأعضائها الموجودين في الكويت لوضع دليل المؤلفين المشار اليه والاتصال بالأمانة العامة لاتحاد الجامعات العربية وبالجهات المعنية بالمشروع في الكويت وأعضاء الحلقة لترشيح أسماء هيئة المحررين (التي ستصبح الهيئة التنفيذية الدائمة للمشروع) ، واقتراح أسماء مؤلفي المجلدات .

ثم تدعى الحلقة للاجتماع لدراسة ما قام به المكتب المؤقت واتخاذ ما تراه من خطوات التنفيذ .

٦ — ونظرا لما أسفرت عنه دراسة الهيكل العام لهذا التاريخ من زيادة عدد المجلدات من ثلاثين الى تسعة وثلاثين مجلدا تقدر الحلقة تكاليف تنفيذ المشروع بوضعه الجديد بحوالي خمسين ألف دينار كويتي .

واختتمت الحلقة اجتماعاتها صباح السبت ٣٠ / ١١ / ١٩٧٤ .

* * *

وبتاريخ ٢٦ / ٢ / ١٩٧٥ صدر قرار وزير التربية والرئيس الأعلى لجامعة الكويت بانشاء مكتب فني لتنفيذ المشروع في الحدود التي تضمنها تقرير الحلقة ، ويشكل المكتب على الوجه التالي :

١ — السيد احمد مشاري العدواني	الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالكويت
٢ — الاستاذ الدكتور حسين مؤنس	استاذ ورئيس قسم التاريخ أمينا للمكتب
٣ — الأستاذ الدكتور شاكر مصطفى	استاذ بقسم التاريخ
٤ — الآنسة فتوح عبد المحسن الخترش	المعيدة بقسم التاريخ

ويتبع هذا المكتب واللجنة الادارية المعاونة له السيد أمين عام الجامعة .

* * *

هيكل
تقسم تاريخ العرب والاسلام الى حلقات
ومجلدات كل حلقة

الحلقة الأولى

الموضوع العـــام : العرب في صدر الاسلام

التاريخ العربي الاسلامي حتى نهاية العهد الأموي

المجلد الأول : **العرب قبل الاسلام**

- الكيانات العربية في الجزيرة العربية وعلى أطرافها
- القبائل العربية وأحوالها
- علاقات العرب بالشعوب المجاورة (الفرس والروم والأحباش)

المجلد الثاني : **السيرة النبوية وعصر الرسالة**

- قريش
- الوحي والرسالة
- الفترة المكية
- الفترة المدنية
- انتشار الدعوة
- بناء الأمـــة

المجلد الثالث : **عصر الخلفاء الراشدين**

- قيام الخلافة
- التوسع الاسلامي
- التنظيم المالي والاداري
- تنظيم القبائل في الأمصار (التمصير ودور الهجرة)

المجلد الرابع : **العصر الأموي :**

- تطور الخلافة والتيارات السياسية
- استمرار التوسع الاسلامي
- تطور التنظيم الاداري والمالي للدولة
- التطورات الاجتماعية والاقتصادية

المجلد الخامس : **التطور الفكري (مجلد حضاري)**

الحلقة الثانية

الموضوع العام : تطور الخلافة العباسية والمجتمع الاسلامي
الدولة الاسلامية حتى أواسط القرن الرابع الهجري

المجلد السادس : التاريخ السياسي للخلافة العباسية حتى نهاية خلافة المأمون

المجلد السابع : التاريخ السياسي للخلافة العباسية من خلافة المعتصم حتى مجيء البويهيين
(يوضع في المجلدين السادس والسابع التطور الاداري والمالي والتنظيم العسكري والعلاقات الخارجية)

المجلد الثامن : التطور الاجتماعي والاقتصادي في العهد العباسي .

المجلد التاسع : الأندلس من نهاية الفتوح الى بدء امارة عبدالرحمن الثالث.

المجلد العاشر : المغرب من نهاية الفتوح الى قيام الدولة الفاطمية .

الحلقة الثالثة

الموضوع العام : عصر الازدهار
(العالم الاسلامي من أواسط القرن الرابع الى أواسط القرن الخامس للهجرة)

المجلد الحادي عشر : تطور أقاليم المشرق : البويهيون — الغزنيون — الحمدانيون — الرداسيون — المروانيون .... الخ .

المجلد الثاني عشر : الفاطميون (في المغرب ومصر والشام) .

المجلد الثالث عشر : تاريخ الأندلس : الخلافة الأموية وعصر الطوائف .

المجلد الرابع عشر : تاريخ المغرب من بداية دولة بني زيري الصنهاجيين الى قيام دولة المرابطين .

المجلد الخامس عشر : الازدهار الحضاري الاسلامي (مجلد حضاري)

الحلقة الرابعة

الموضوع العام : عصر الصمود (تاريخ الاسلام من أواسط القرن الخامس الى أواسط القرن السابع للهجرة)

المجلد السادس عشر : الخلافة العباسية في العصر العباسي المتأخر .

المجلد السابع عشر : المشرق الاسلامي في عهد السلاجقة والأتابكة (تشمل جميع دول الأتابكة) والصراع مع الفرنج.

المجلد الثامن عشر : مصر والشام في عهد الأيوبيين ودور الأيوبيين في الصراع مع الفرنج

المجلد التاسع عشر : الأقاليم الشرقية الاسلامية في عهد الخوارزميين والغوريين وظهور المغول

المجلد العشرون : المغرب والأندلس في عهد المرابطين والموحدين .

الحلقة الخامسة

الموضـــــوع العام	: عصر الممالك والسلطنات المحلية (العالم الاسلامي من أواسط القرن السابع الى أوائل التاسع للهجرة)
المجلد الحادي والعشرون	: دول المغول والايلخانيين
المجلد الثاني والعشرون	: التيموريون ودول التركمان وسلاجقة الروم
المجلد الثالث والعشرون	: سلطنة مصر والشام المملوكية
المجلد الرابع والعشرون	: الأندلس من نهاية الموحدين حتى نهاية دولة بني نصر في غرناطة – المدجنون والمريسكيون – نهاية الأندلس – انتقال الحضارة الاسلامية الى الغرب عن طريق الأندلس
المجلد الخامس والعشرون	: دول المغرب : الحفصيون – المرينيون – بنو زيان (بنو عبد الواد)
المجلد السادس والعشرون	: تطور الحضارة الاسلامية حتى أوائل القرن التاسع الهجري مع الاشارة الى أثر الحروب مع الفرنج على الشرق والغرب بتفصيل (مجلد حضاري)

الحلقة السادسة

الموضوع العـــــام	: عصر الدول الاسلامية الكبرى (العالم الاسلامي من أوائل القرن التاسع حتى نهاية القرن الثاني عشر للهجرة الثامن عشر الميلادي)

المجلد السابع والعشرون : الدولة العثمانية والبلاد العربية في المشرق (حتى الحملة الفرنسية)

المجلد الثامن والعشرون : الدولتان الصفوية والقاجارية
البلاد العربية في المشرق في العهد العثماني

المجلد التاسع والعشرون : المغرب في العهد العثماني (طرابلس وتونس والجزائر)

المجلد الثلاثون : المغرب الأقصى في عهود الوطاسيين والسعديين والعلويين

المجلد الحادي والثلاثون : الجزيرة العربية من أوائل القرن التاسع الى أواخر القرن الثاني عشر للهجرة

المجلد الثاني والثلاثون : سلطنات الدكن ومغول الهند

المجلد الثالث والثلاثون : الاسلام في افريقيا وجنوب شرقي آسيا

الحلقة السابعة

الموضوع العام : تاريخ العرب والاسلام في العصور الحديثة (من بداية القرن التاسع عشر الميلادي الى الفترة المعاصرة)

المجلد الرابع والثلاثون : المشرق العربي في التاسع عشر حتى قيام الحرب العالمية الأولى :

تمهيد عن اضطراب الحكم العثماني والتحركات في البلاد العربية (السلفية — السنوسية) وموجة الزحف الأوروبي .

- الحملة الفرنسية في مصر والشام .

- مصر : عصر محمد علي وخلفاؤه .
التدخل الأوروبي .
الثورة العرابية
الاحتلال البريطاني (١٨٨٢) .
- السودان : وحدة مصر والسودان .
الثورة المهدية
انسحاب مصر
الاحتلال البريطاني للسودان
- الاستعمار الأوروبي في الصومال وشرق افريقيا
- الجزيرة العربية
انجلترا في الجنوب والخليج
قيام الدولة السعودية
- اليمـــن :
اجـــلاء العثمانيين عن اليمن
(١٨٣٥) عودة الأتراك الى حكم
اليمن (١٨٧٢)
- بلادالشام :
حركة التنظيمات العثانية والحكم
العثماني
- العراق :
حركة التنظيماتالعثمانية والحكم
العثماني
- يقظةالعرب :
العرب في مواجهة السيطرة
التركية والزحف الأوروبي.

الجمعيات الأدبية والسياسية .
تأزم العلاقات مع الترك حتى قيام الحرب .

المجلد الخامس والثلاثون : المغرب العربي في القرن التاسع عشر حتى قيام الحرب العالمية الأولى .

– الجزائر :

حكم الدايات
الحملة الفرنسية (١٨٣٠) .
الاستعمار الفرنسي في الجزائر والمقاومة الوطنية .

– تونس :

حركة الاصلاح
معاهدة الحماية
الاستعمار الفرنسي في تونس

المغرب الأقصى :

حركات الاصلاح
التغلغل الأوروبي (الفرنسي والأسباني)
الوفاق الودي (١٩٠٤) .
معاهدة الحماية
الاستعمار الفرنسي والاسباني في المغرب

ليبيـــا :

سقوط الأسرة القرامنلية

الحكم العثماني الثاني
السنوسية
استيلاء ايطاليا على ليبيا

المجلد السادس والثلاثون : ثورة العرب
الحرب العالمية الأولى وما بين الحربين العالميتين
تمهيد : انتهاء السيادة العثمانية على البلاد العربية
السيطرة الأجنبية على البلاد العربية
الثورة العربية لعام ١٩١٦
الانتداب الفرنسي على سورية ولبنان
الانتداب البريطاني على العراق وشرق الأردن وفلسطين
الأطماع الصهيونية ، الجزيرة العربية ، استقلال اليمن ، تكون المملكة العربية السعودية .
احكام السيطرة البريطانية على امارات الخليج .
ثورة ١٩١٩ في مصر والنضال من أجل الاستقلال حتى ١٩٣٩
ثورة ١٩٢٤ في السودان والنضال من أجل الاستقلال حتى ١٩٣٩
ثورة ١٩٢٠ في العراق والنضال من أجل الاستقلال حتى ١٩٣٩
ثورة ١٩٢١ في فلسطين والنضال من أجل الاستقلال حتى ١٩٣٩
ثورة ١٩٢٥ في سورية والنضال من أجل الاستقلال حتى ١٩٣٩
الانتفاضات العربية في منطقة الخليج والنضال من أجل الاستقلال حتى ١٩٣٩ .

الحركات الوطنية في اقطار المغرب العربي والنضال من أجل الاستقلال حتى ١٩٣٩ .

المجلد السابع والثلاثون : العرب والعالم المعاصر .

الحرب العالمية الثانية وما بعدها .

تأسيس جامعة الدول العربية .

العدوان الصهيوني على فلسطين ونتائجه

معارك التحرر الوطني : ثورة ١٩٥٢ في مصر ، ثورة ١٩٥٣ في المغرب ، ثورة ١٩٥٤ في الجزائر ، ثورة ١٩٥٨ في العراق . ثورة ١٩٦٢ في اليمن ، ثورة ١٩٦٣ في سورية ، ثورة ١٩٦٩ في السودان ، ثورة ١٩٧٠ في ليبيا ،

وحدة المواجهة العربية مع اسرائيل : حرب أكتوبر (تشرين) ١٩٧٣ .

* ملحوظة : (تلاحظ الأوضاع الداخلية وتطورها التي أدت الى حدوث الثورات المذكورة في البلاد العربية) .

المجلد الثامن والثلاثون : حضارة العرب في العصر الحديث

– حركات الاصلاح :

السلفية

محاولات الاصلاح في الدولة العثمانية ومداها في العالم العربي

– العرب والغرب :

الاتصال الفكري

الأثر الاقتصادي

الأثر الاجتماعي

التعليم وأثر الجامعات في العالم العربي

الصحف

الطباعة والنشر

تكون الرأي العام

ظهور الأحزاب

- الفنون والآداب
- تطور مركز المرأة في المجتمع
- العلوم التطبيقية وأثرها .
- دعاة النهضة
- النفط وآثاره الاقتصادية والاجتماعية

المجلد التاسع والثلاثون : المصادر والفهارس .

أطلس العالم الاسلامي

اخبار

المؤتمر العالمي الأول للاقتصاد الاسلامي

تنظم جامعة الملك عبد العزيز المؤتمر العالمي الأول للاقتصاد الاسلامي في الفترة من ٢٤ حتى ٣٠ ربيع الأول ١٣٩٥ هـ الموافق ٥ إلى ١١ ابريل ١٩٧٥ م وذلك بقاعة الزاهر من مكة المكرمة . وتشرف على هذا المؤتمر كلية الاقتصاد والادارة بالجامعة .

وقد تم تحديد بحوث المؤتمر في تسعة مجالات هي :

١ — مفهوم ومنهج الاقتصاد الاسلامي .
٢ — حصر المراجع المعاصرة في الاقتصاد الاسلامي .
٣ — سلوك المستهلك والمنشأة في الاطار الاسلامي .
٤ — دور الدولة الاسلامية في الاقتصاد الحديث .
٥ — التنمية الاقتصادية في الاطار الاسلامي .
٦ — الزكاة .
٧ — بنوك بلا فوائد .
٨ — التأمين في اطار الشريعة الاسلامية .
٩ — التعاون الاقتصادي بين الدول الاسلامية .

مؤتمر التضامن الاسلامي الأول
في مجال العلم والتكنولوجيا

يعقد في كلية الهندسة بجامعة الرياض مؤتمر التضامن الاسلامي الأول في مجال العلم والتكنولوجيا في شهر ربيع الأول ١٣٩٥ هـ (٢٩ مارس الى ٤ ابريل ١٩٧٥ م) ويهدف المؤتمر الى تدعيم الروابط بين كليات الهندسة والهيآت المسئولة عن التعليم ومراكز البحوث الصناعية والصناعات في العالم الاسلامي . كما يزمع المؤتمرون دراسة سبل الاستفادة القصوى من الطاقات والخبرات المتاحة في العالم الاسلامي كوحدة متكاملة لتحقيق النهضة الصناعية .

ويشتمل جدول أعمال المؤتمر الموضوعات التالية :

- التعليم الجامعي والفني ومدى وفائهما بحاجة التقدم التكنولوجي والصناعي في أقطار العالم الاسلامي .
- الصناعات الخفيفة والثقيلة في العالم الاسلامي ودراسة تطويرها .
- مراكز البحوث الصناعية وعلاقاتها بالصناعات القائمة والمتوقعة .
- الصناعات الحربية في العالم الاسلامي ودراسة تطويرها .
- خرائط علمية وتصنيعية للعالم الاسلامي .
- الترجمة والتأليف وضرورتها ومشكلاتها .
- تدريس العلوم والتكنولوجيا باللغة العربية واللغات المحلية في العالم الاسلامي .
- إضافات المسلمين في مجالات العلوم والتكنولوجيا .
- العقبات التي تعوق التقدم الصناعي وطرق تذليلها .
- مجالات التعاون والتكامل بين الجامعات ومراكز البحوث الصناعية .

* * *

المؤتمر الرابع
للفقه الاسلامي

عقد في الفترة من ١٤ إلى ١٩ / ١٢ / ١٩٧٣ في كلية الشريعة وأصول الدين بالزيتونة بتونس الأسبوع الرابع من الفقه الاسلامي بدعوة من المجلس الأعلى للآداب والفنون (شعبة القانون) بالقاهرة ، واتخذ المؤتمر التوصيات الآتية :

الموضوع الأول : ..

١ ـ القسامة طريقة مشروعة لمحاولة الوصول الى القاتل عند قيام القرينة غير الكافية في الاثبات بالنسبة الى متهم معين أو بالنسبة الى أهل المكان الذي وجد فيه القتيل ووجوب الدية على العصبة أو أهل المكان أو على بيت المال في هذه الحالة مبني على مبدأ التضامن الاجتماعي والمسؤولية الجماعية عن المحافظة على الأمن وتحمل المغارم المالية ..

٢ ـ من مبادىء الشريعة الغراء أن للفرد على الجماعة حق الحماية والرعاية فقد أخذت الدولة الاسلامية على عاتقها منع الجريمة واذا لم تسفر جهودها عن تحقيق ذلك وجب عليها أن تعيد التوازن الذي أخلت به الجريمة والأصل أن عبء ذلك يقع على الجاني فان لم يعرف أو عجز هو وعاقلته عن دفع الدية وجبت على بيت المال اذ لا يسوغ أن يختلف حظ المجني عليهم في جرائم القتل بحسب ما اذا عرف القاتل أو لم يعرف أو بحسبما اذا كان موسرا أو معسرا ، وقليل من تشريعات الدول الحالية يسمح بتعويض ضحايا جرائم القتل من الأموال العامة كنوع من المساعدة الاجتماعية التي تعطى لمن أضيروا في معاشهم بسبب الجريمة وتعويض عن الخسائر المادية وحدها وبحد أقصى لا يصل دائما الى قدر الضرر .

أما الشريعة السمحة فانها تعطي أولياء الدم حقهم كاملا مما يبرز سمو أحكام الشريعة على أحكام قوانين أكثر الدول غنى وتقدما ويقتضي العمل بها في هذا المجال في البلاد الاسلامية ..

الموضوع الثاني :

« الولاية على النفس »

١ — البلوغ يختلف باختلاف البلاد وظروف المعيشة ولذا ينبغي أن يراعى في تحديد سن البلوغ ظروف كل بلد .

٢ — بطلان تصرفات المجنون من تاريخ ثبوت جنونه .

٣ — يتولى المشرع في كل بلد تحديد سن الحضانة مراعيا في ذلك مصلحة الصغير وتوضع ضمانات لعدم استغلال الصغير سلاحا ضد الطرف الآخر .

الموضوع الثالث :

« الغبن والتغرير وأثرهما في العقود »

الفقه الاسلامي في جملته يجعل الغبن الفاحش المبني على الجهل أو التغرير مؤثرا في العقود تأثيرا يوجب خيار الفسخ للمغبون أو حقه في الرجوع بالنقص كما يعتبر الغبن في العقود ولو بغير الشروط السابقة اذا كان المغبون قاصرا أو محجورا أو كان جهة وقف أو بيت المال أو جهة عامة أخرى والفقه الاسلامي بهذا يحقق العدالة في العقود ويبقي على المودة بين المتعاملين ويستأصل أسباب الضغائن والأحقاد ويحمي الحق العام ولذا فان قواعد الشريعة الاسلامية في بيان الغبن المؤثر وتحديد حكمه هي القواعد واجبة التطبيق في هذه المسألة لحكم المعاملات في قوانين البلاد الاسلامية .

الموضوع الرابع :

« ولاية المظالم »

إن البلاد الاسلامية في حاجة الى انشاء ديوان المظالم لانصاف الناس في الحالات التي تقصر عن تحقيق العدل فيها الأجهزة الأخرى وان هذا الديوان لا يمكن أن ينجح في تأدية

رسالته في العصر الحاضر كما نجح في الماضي الا اذا كان محل الرعاية والحماية وتوفير الأسباب اللازمة لتحقيق أهدافه في دفع الظالم وانصاف المظلوم .

الموضوع الخامس :

« الدعاوى الجنائية في الحدود والقصاص في الشريعة الاسلامية »

١ ـ ان الحدود الاسلامية تتجلى فيها حكمة الله وعدله ورحمته الواسعة اذ أنها ما شرعت الا لتحمي مجتمع الفضيلة والتربية الاسلامية والعدل الاجتماعي الذي يعم وان تطبيقها مع ذلك مع وجوبه مشروط بالاحتياط المستند الى قاعدة درء الحدود بالشبهات فاذا امتنع توقيع الحد وقعت العقوبة التعزيرية ومن الواجب كذلك أن تأخذ قوانين البلاد الاسلامية بعقاب الجرائم وفقاً لأحكام الشريعة الاسلامية .

٢ ـ على المشرع أن يكفل للمجني عليه من الضمانات ما يسمح له بايصال الدعوى الجنائية الى القضاء .

التوصيات الخاصة بموضوعات الأسبوع الخامس للفقه الاسلامي :

رأى المشتركون في الأسبوع الرابع الاكتفاء بثلاثة موضوعات حتى يتسنى بحثها على وجه أوفى وهي :

١ ـ درء الحدود بالشبهات .

٢ ـ القيود الواردة على الملكية للمصلحة العامة .

٣ ـ الضرورة والحاجة وأثرها في الأحكام الشرعية .

التوصيات الخاصة بمكان وزمان الأسبوع الخامس :

يقترح المشتركون في الأسبوع الرابع أن ينعقد الأسبوع الخامس من الفقه الاسلامي في المملكة العربية السعودية ، اذا وافقت على ذلك على أن يكون في المكان والزمان اللذين تحددهما الدولة المضيفة علما بأن المفروض أن يعقد الأسبوع كل سنتين .

الملتقى الثامن
للفكر الاسلامي

عقد في بجاية (الجزائر) في الفترة من غرة ربيع الأول ١٣٩٤ إلى الثاني عشر منه الملتقى الثامن للفكر الاسلامي .

وقد تضمنت التوصيات ما قررته اللجنة الأولى حول وضع الأقليات والجاليات عموما والاسلامية خصوصا ؛ في كثير من بلدان القارات الخمس وواجب العلماء والمفكرين ورجال الإعلام نحوها .

أما اللجنة الثانية فقد تناولت توصياتها دور المفكر اليوم وعلى مر العصور من أمته وتجاه الانسانية في كل من قضايا الساعة وآفاق المستقبل .

وتناولت توصيات اللجنة الثالثة مساهمة (بجاية الحمادية) في الحضارة والفكر الإسلاميين والعالميين .

وشملت توصيات اللجنة الرابعة مساهمة الحضارة والفكر الاسلاميين في مختلف مجالات العلوم والفنون والتراث الانساني على العموم ، وعوامل ازدهارهما ؛ وضعف أثرهما وشروط انبعاثهما .

أما اللجنة الخامسة والأخيرة في المؤتمر ، فقد شملت توصياتها وعي الذات لنفسها وتوكيدها كذات مسلمة ، والأصالة مع التفتح والعالمية ومدى امكانية التوفيق بينها ، ودرجة أهمية هذا التوفيق في عالم اليوم بالنسبة للفرد والمجتمع ومصير الانسانية كلها .

وسيعقد الملتقى التاسع للفكر الاسلامي في مدينة تلمسان بالجزائر من الأول الى العاشر من رجب المقبل .

* * *

• وجهت وزارة الاعلام بالمملكة العربية السعودية الدعوة الى ٣٨ دولة اسلامية لحضور مؤتمر الاذاعات الاسلامية الذي سيعقد في الرياض خلال الفترة من ١٤ الى ٢١ ربيع الأول .

* * *

• تنفيذا لتوصيات اللقاء الثاني لندوة الشباب العالمية للدعوة الاسلامية فقد تم تشكيل الأمانة العامة الدائمة لهذه الندوة باسم : « الندوة العالمية للشباب الاسلامي » من الدكتور عبد الحميد ابو سليمان أمينا عاما والدكتور أحمد محمد توتنجي أمينا عاما مساعدا وعدد آخر من الأعضاء عن قارات العالم وبعض جامعاته ومنظماته . وتقرر أن يكون مقر الندوة مؤقتا في مبنى وزارة المعارف بالرياض . وتنوي الأمانة ترجمة بعض المؤلفات الاسلامية الى اللغات الأجنبية .

• • •

• انعقدت في مدينة بهوبال بمقاطعة مدهيا برديش بأواسط الهند الدورة السابعة لمؤتمر الدراسات الاسلامية لعموم الهند وذلك من اليوم التاسع حتى الحادي عشر من شهر سبتمبر الماضي . ويرجع الفضل في عقد هذا المؤتمر كل عامين بانتظام الى الدكتور مقبول أحمد مدير مركز الدراسات للشرق الأوسط في جامعة عليكرة الاسلامية . وقد عقدت الدورة الأولى في عام ١٩٥٨ .

وقد رأس هذه الدورة السابعة الشيخ أبو الحسن الندوي ، واستمرت الجلسات يومين قدمت خلالهما ٢٦ بحثا حول مختلف فروع العلوم الاسلامية .

• • •

• اجتمعت في جدة الجمعية العمومية لوكالة الأنباء الاسلامية الدولية (أينا) في المدة من ٢ إلى ٥ نوفمبر ١٩٧٤ . وحضر الاجتماع ممثلو ٢٨ دولة اسلامية . وأصدرت الجمعية بيانا مشتركا اشتمل على عدة قرارات .

• • •

• انعقد في مكة المكرمة المجلس التأسيسي لرابطة العالم الاسلامي في دورته السادسة عشرة في الفترة من ٢٥ ذي القعدة ١٣٩٤ هـ (٩/١٢/ ١٩٧٤) الى ٢٥ ذي الحجة ١٣٩٤ هـ (٨/ ١ / ١٩٧٥) وتداول في التقرير المقدم من الأمانة العامة واتخذ عدة قرارات منشورة في نشرة أخبار العالم الاسلامي العدد ٤٠٧ وفي مجلة رابطة العالم الإسلامي (ملحق خاص) ، فنحيل اليها للأهمية ولضيق المكان عن نشرها هنا .

• • •

Vol. 1, No. 2 Rabi 2 1395 — April 1975

al-Muslim al-Muʿāsir

The Contemporary Muslim